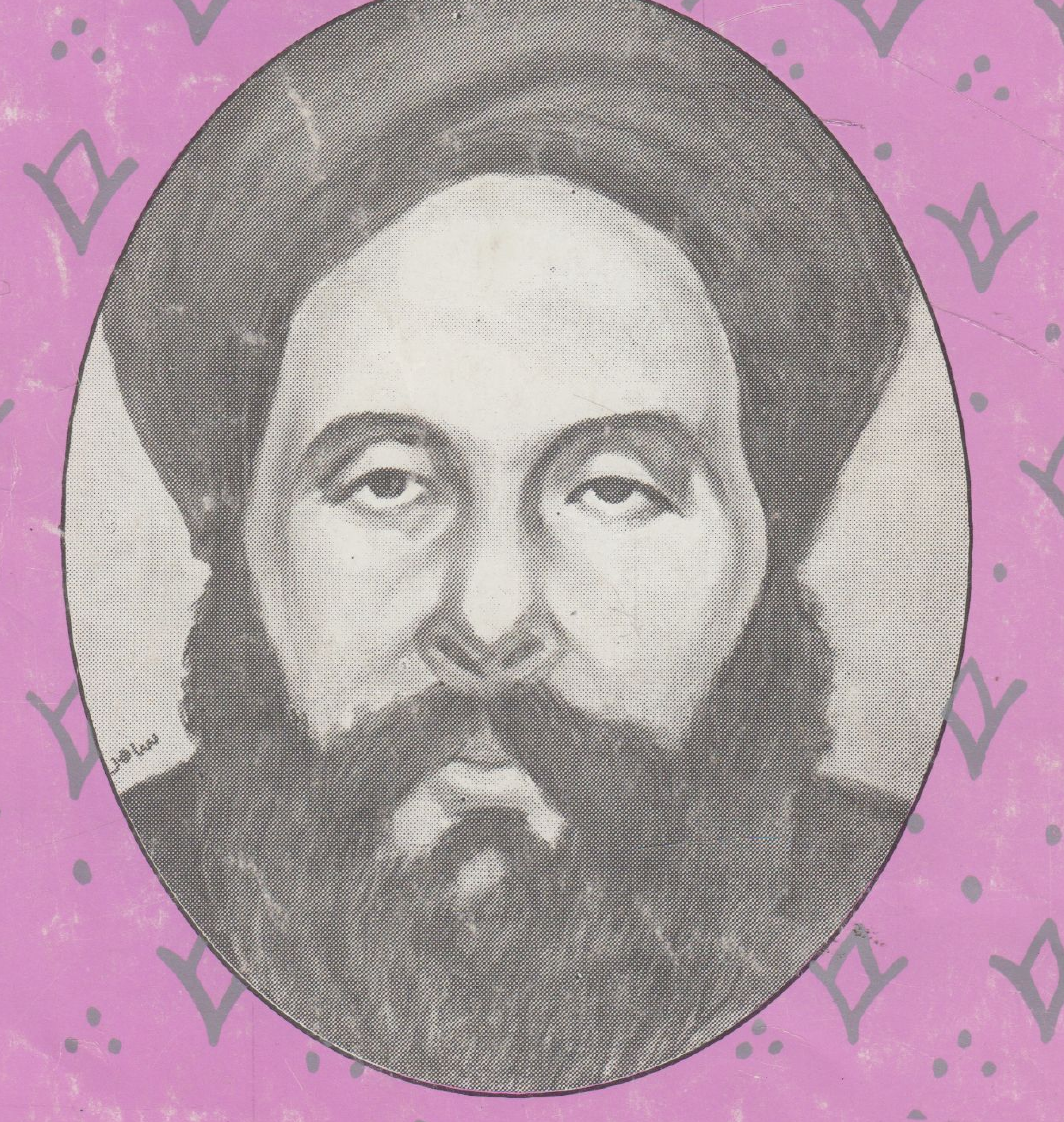




الكتاب التذكارى

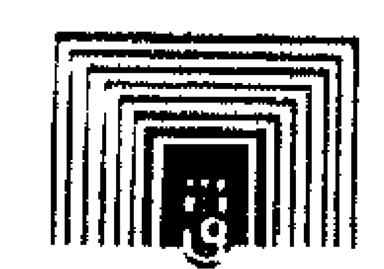
عبد الله النديم

قراءات وأبحاث



د. أبو الحسن سلام - د. عبد الله سرور - د. عبده الراجحى - د. فاروق عثمان اباظه - د. فوزى المصرى - د. محمد محمود السروجى - د. محمد مصطفى هدارة - د. مصطفى الجوينى - د. مصطفى عبد الغنى - د. نبيل رشاد نوفل - د. نعمات أحمد عثمان

الهيئة العامة لقصور الثقافة



الكتاب التذكارى

عبد الله النديم

قراءات وأبحاث



د. أبو الحسن سلام - د. عبد الله سرور - د. عبده الراجحى -
د. فاروق عثمان اباظه - د. فوزى المصرى - د. محمد محمود
السروجى - د. محمد مصطفى هدارة - د. مصطفي الجويني -
د. مصطفى عبد الغنى - د. نبيل رشاد نوفل - د. نعمات أحمد عثمان

لوحة الغلاف بريشة الفنان
سامى امين

الكتاب التذكارى

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

حسين مهران

المشرف العام

محمد السيد عيد

مدير التحرير

مسعود شومان

المراسلات باسم مدير التحرير

على العنوان التالى

١٦ شارع أمين سامى

القصر العينى - القاهرة

رقم بريدى ١١٥٦١

عبد الله النديم

بين النشأة والتكوين

(١٨٤٥ - ١٨٨١)

د. فاروق عثمان أباظه

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل كلية الآداب بجامعة الإسكندرية للدراسات العليا والبحوث

يعد عبد الله النديم أحد أقطاب الحركة الوطنية التى نشأت فى مصر قبل الاحتلال البريطانى لها فى عام ١٨٨٢ وخطيب الثورة العرابية، ولسان حالها الذى لم يسلم منه الخديو أو الإنجليز لتدخلهم فى شئون مصر، وحتى السلطان لتخاذله عن حماية مصر من الوقوع فى براثن الاحتلال الانجليزى البغيض.

ولد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسى الشهير بالنديم فى يوم عيد الأضحى عام ١٢٦١هـ (١٨٤٥م) بمدينة الاسكندرية[١] بقسم مينا البصل، بكفر عشرى، بشارع عبد الواحد بك رقم ١٦[٢].

كان أبوه مصباح بن إبراهيم الإدريسى يعمل نجارا بدار الصناعة (الترسانة)[٣] التى أنشأها محمد على بالاسكندرية عام ١٨٣١م لبناء سفن الأسطول المصرى، وكان والد النديم قد قدم إلى الإسكندرية من «قرية الطيبة» إحدى قرى مديرية الشرقية ضمن الشبان الذين جمعوهم للعمل فى تلك الدار والمصانع الأخرى التى أنشأها محمد على لإمداد الجيش بكل ما يحتاج إليه[٤]. ولم يستمر مصباح فى العمل بدار الصناعة، حيث كان ممن سرحوا من وظائفهم بعد صدور فرمان ١٨٤١م الذى حدد عدد الجيش ثمانية عشر ألف جندى ومن ثم فلم تعد هناك حاجة لكل هؤلاء الموظفين بعد أن تقلص عدد المصانع الحربية تبعا لتخفيض عدد جنود الجيش، ولكن مصباح بعد تسريحه من دار الصناعة لم يعد إلى قريته كبقية زملائه، إذ كان قد أعجبه العيش بالإسكندرية ففضل الإقامة بها وأخذ يبحث عن عمل يقتات منه بأقل التكاليف، ولذا افتتح مخبزا فى حى «المنشية» لصناعة الخبز وبيعه للنزلاء والأجانب، ومع قلة ربح تلك المهنة – وقتئذ إلا إنها كفته شر الحاجة والجوع[٥].

وبعد أن استقر الحال بمصباح فى عمله الجديد بالاسكندرية واطمأن إلى حياته الجديدة تزوج ورزق بابنه «عبد الله» الذى نشأ وتربى فى ذلك الحى

الشعبى، ولما اشتد عوده أرسله أبوه إلى «كتاب» الحى ليتعلم القراءة والكتابة وليحفظ القرآن الكريم، وقد ظهرت على عبد الله منذ البداية ملامح النجابة والذكاء، فأتم حفظ القرآن الكريم وهو لم يبلغ التاسعة من عمره بعد(٦) وهى سن مبكرة لاتمام هذا العمل الضخم، لكنه كان يتميز بقوة ذاكرته التى كانت عونا له فى جميع مراحل حياته. وكان هذا النبوغ المبكر باعثا لأبيه على أن يدعه يواصل تعليمه(٧) ولكن.. أى نوع من التعليم ذلك الذى سيوجه إليه عبد الله؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب معرفة نسب والده وميوله.. فقد قيل إنه فى الأصل ينحدر من السلالة النبوية الشريفة: فهو إدريسى - حسنى - النسب من جهة أبيه، كما اشتهر بورعه وتقواه وحبه مجالسة العلماء والتردد على حلقاتهم بعد صلاة العصر فى المساجد ليتفقه فى الدين - رغم أنه كان أميا - فإذا ما عرفنا كل ذلك عن نسب أبيه وميوله لأدركنا على الفور أن والده سوف يوجهه إلى التعليم الدينى وليس التعليم المدنى الذى بدأ ينهض فى عهد محمد على، وهذا ما حدث فعلا عندما ألحقه والده بالجامع الأنور(٨) .

التحاق عبد الله بالجامع الأنور :

التحق عبد الله بالجامع الأنور للدراسة، وكان أبوه يتطلع إلى أن يصبح ابنه شيخا معمما وعالما مفخما ممن لهم هيبة فى نفوس الشعب ويحظون باحترام وتقدير الحكام، ولكن عبد الله لم يظهر تقدما فى دراسته بالجامع الأنور بسبب خطة الدراسة العقيمة، والكتب المعقدة وجمود العقلية المسيطرة على هذا النوع من التعليم، فضاق ذرعا بما يدرس من مواد لأنها لاتتفق مع ميوله من ناحية. فضلا عن جمودها وتعقيدها من ناحية أخرى(٩) فهجر ذلك النوع من الدراسة إلى نوع آخر يوافق مزاجه ويناسب استعداده ألا وهو مجالس الأدب التى كان يغشاها الأدباء والشعراء والزجالون، فيسمع أشعار الشعراء وزجل

الزجالين ونوادر المتماجنين وقصائد الرواة، فوقع كل ذلك فى نفسه موقعا حسنا، ووجد منه أذنا صاغية ونفسا واعية دون أن يدرك أن هذا بابه، وقد منحه الله ذاكرة قوية وحافظة لاقطة وقدرة على التقليد فائقة، فأخذ يحاكى ما يختزنه، فتارة يصيب فينال إعجاب رفاقه، وتارة يخفق فتصيبه سخرية الحاقدين عليه، ومن كل ذلك كان يتعلم(١٠) وشيئا فشيئا استطاع عبد الله أن يبدع ما شاء له الإبداع(١١).

ولكن صناعة الأدب لم تكن تدر عليه دخلا يكفى لإطعامه فلم يجد أمامه سوى اللجوء لأبيه ليطعمه ويوفر له سبل المعيشة الأخرى بعد أن شق عليه عصا الطاعة وخالف رغبته فى أن يكون شيخا من شيوخ الإسلام. لكن أبيه نفض يده منه لأنه كان يعتبر أن إقراض الشعر ونظم النثر إنما هما رجس من عمل الشيطان، فأخذ عبد الله يبحث عن عمل يتكسب منه، فتعلم فن الإشارات التلغرافية ولما أتقنها استُخدم بمكتب التلغراف ببنها(١٢) ثم نقل إلى مكتب القصر العالى(١٣) حيث تسكن «الوالده هانم» أم الخديو إسماعيل، ومنحته تلك الوظيفة قدرا كبيرا من الاحترام لأنه أصبح من موظفى القصور الملكية(١٤) كما أتاحت له الوظيفة أن ينهل من فنون الأدب ومن ثم تنمية مواهبه الأدبية فأخذ يغشى مجالس الأدباء فى القاهرة من أمثال محمود سامى البارودى وعبد الله باشا فكرى والسيد على أبو النصر، ومحمود صفوت الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى، ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا وعبد الله بك حافظ(١٥) .

وفضلا عن ذلك فقد أتيحت لعبد الله فرصة ذهبية أخرى وهى الوقوف على حياة القصور وما تعج به من أشكال النعيم والترف، وما تضمه بين جدرانها من مفاسد ومفاتن، وتعلم هناك كيف يحيا الامراء والسادة وقارن ذلك بحياة الفقراء والعبيد فى حيه الشعبى والاحياء الفقيرة الأخرى فى معظم أنحاء البلاد، وكيّف النديم حياته على ذلك، فهو فى النهار عامل تلغراف يستقبل الإشارات ويرسلها،

وفى الليل أديب يتقبل نماذج الأدب ويقلدها، ولكن الحظ لم يمهله فى وظيفته تلك حيث أخطأ فى إحدى البرقيات الخاصة بالقصر مما جلب عليه غضب خليل أغا[١٦] الذى طرده من القصر شر طردة فخرج منه هائما على وجهه وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت[١٧] ومن المرجح أن يكون ارتياده لمجالس جمال الدين الأفغانى قد بلغ القصر فدبر له رجاله تلك المكيدة لطرده[١٨] .

عبد الله النديم فى الدقهلية :

بعد طرد النديم من القصر العالى عاد إلى سيرته الأولى كما كان فى الإسكندرية حيث سدت فى وجهه أبواب الرزق وأصبح لايجد ما يقيم أوده، حتى انتهى به المطاف لدى عمدة إحدى قرى مديرية الدقهلية فآواه وعهد إليه بتعليم أولاده، ولكن المقام لم يطل به عند ذلك العمدة حيث اختلفا وتسابا وذلك لأن النديم طلب أجرا من العمدة مقابل تعليم أولاده ولكن العمدة أنكر عليه ذلك حيث كان يرى أن طعامه ومسكنه مقابل تلك الخدمة فاختلفا وهجاه عبد الله هجاء مرا، وترك داره هائما على وجهه مرة أخرى حتى اتصل بأحد أعيان المنصورة من ذوى المروءة فاستدعاه وأكرمه وفتح له دكانا يبيع فيه المناديل وبعض الأشياء الأخرى، فاتخذ عبد الله هذا الدكان متجرا لبيع المناديل ومجمعا للأدب يجتمع إليه أصحابه فيتذاكرون الأدب ويتناشدون الشعر ويتبادلون النوادر، ولكن تجارته بارت لعدم التفاته إليها واهتمامه بالأدب دونها، فخوى دكانه من البضاعة مما اضطره إلى إغلاق أبوابه، وأخذ يطوف البلاد وينزل ضيفا على هواة الأدب إلى أن استقر به المقام أخيرا فى طنطا[١٩].

عبد الله فى طنطا :

رحل عبد الله إلى طنطا عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) حيث كان يوجد بها بيت «شاهين كنج» مفتش الوجه البحرى الذى كان يتخذ من بيته منتدى للشعر والأدب فتعرف بعبد الله وأعجب به ومالبث أن أصبح له نديما، ومن هنا اشتهر

بلقب النديم، وأصبح مجلس شاهين باشا بعد أن انضم النديم إليه قبلة المثقفين وعشاق الأدب، وصار للنديم فيه ليال مشهورة يحضرها فحول الشعراء وأكبار الزجالين، فناظرهم النديم – على مرأى ومسمع من شاهين ورواد مجلسه فى أساليب البديع والنوادر، وناشدهم فنون النظم والنثر فظفر بهم جميعا(٢٠) .

وثمة حادثة طريفة حدثت له فى مدينة طنطا كان لها بعض الأثر فى حياة النديم المستقبله ذلك أنه فى إحدى ليالى المولد الأحمدى عام١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) بينما كان يجلس فى أحد المقاهى مع بعض أصدقائه من الأدباء إذ أقبل عليهم اثنان من الشحاذين الذين كانوا يسمون بالأدباتية(٢١) وأخذا يلحان فى طلب بعض النقود منهم، فانبرى لهما النديم يطارحهما الأزجال وخاصة عندما قال له أحدهما :

أنعم بقرشك ياجندى	وإلا اكسنا أمال يا افندى
أحسن أنا وحياتك عندى	بقى لى شهرين طوال جوعان

فرد عليه النديم ببداهته قائلا :

أما الفلوس أنا مديشى	وأنت تقول ما مشيشى
يطلع علىّ حشيشى	أقوم أملص لك لودان

وظل النديم وكل واحد منهما من الأدباتية يتحاوران هكذا لمدة ساعة حتى ألجمهما النديم وألزمهما السكون فانصرفا مهزومين(٢٢).

ولما بلغ شاهين باشا الخبر استظرفه وفكر فى إقامة حفل عام فى منزله يدعو إليه كبار «الأدباتية» والزجالين ويدخلون فى مبارة زجلية مع النديم، واشترط عليهم أن يمنحهم عشرة جنيهات إذا ظفروا به أما إذا ظفر بهم هو فسيجلد كل منهم عشرين جلدة، وحضرتجمهرة من كبار الأدباتية متحفزين لمناظرة النديم، واحتشد جمع غفير من الناس أمام منزل شاهين باشا

لمشاهدة تلك المباراة الأدبية التى استمرت ثلاث ساعات، ظل فيها الأدباء يطارحون النديم الأزجال، الواحد تلو الآخر إلى أن أفرغوا كل ما فى جعبتهم من زجل وقد هزمهم النديم جميعا هزيمة منكرة بين استحسان المشاهدين والحاضرين، وقد عدل شاهين باشا عن جلدهم وكافأهم بمبلغ خمسة جنيهات[٢٣] فكانت تلك الحادثة سببا فى شهرته بين الأدباء والظرفاء..[٢٤] .

وقد أخذ خصوم النديم عليه ذلك الموقف وعيروه به فيما بعد، وقالوا إنه انحدر إلى مستوى الشحاذين عندما رضى بمساجلتهم ومنازلتهم وأن يغالبهم على الملأ، فمثله مثل المصارعين أمام الزفة، ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس، ساقط الهمة[٢٥]) وكان هذا عنتا منهم وحقدا عليه وغيظا منه لأنهم كانوا يتلمسون الأسباب لمضايقته والنيل منه، مع أن الأمر لم يتعد أن يكون مباراة أدبية، والزجل فن من فنون الأدب، وكان هذا الحادث بمثابة فتح جديد فى حياة عبد الله النديم، لم يلبث بعده أن مهر فى الزجل حتى بلغ الذروة فيه[٢٦] .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على «تتونجى بك» أحد أفراد حاشية الخديو وكان ذا مال وجاه، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته وهيأت تلك الوظيفة للنديم فرصة التردد على القاهرة ليقابل موكله هناك. وكانت صلته بكل من شاهين باشا – صاحب الحظوة لدى الخديو اسماعيل– وعمله لدى تتونجى أحد رجال الحاشية وصاحب النفوذ الكبير فى القصر. قد أمنت خوف النديم من جبروت خليل أغا، ورفعت تلك الوظيفة من روحه المعنوية وأعادت إليه الشعور بكرامة الموظف الذى يكسب قوته بعرقه وجهده[٢٧] .

اتصال النديم بالأفغانى فى القاهرة :

أخذ النديم يتردد على القاهرة لمقابلة تتونجى بك كلما دعت الظروف إلى ذلك فأتيحت له فرصة التردد مرة أخرى على نوادى الأدب بالقاهرة، وحضور

دروس جمال الدين الأفغانى الذى كان يلقى على تلاميذه دروسا فى الفلسفة والاجتماع والأدب يتخللها نقد لأحوال مصر الإجتماعية مع إظهار أسباب ضعفها وذكر سبل إصلاحها، وينحى باللائمة على استسلام الحكام للمستغلين الأجانب واتباع طرق استبدادية فى الحكم وتجنب الطرق الدستورية والابتعاد عن الأساليب القويمة وعدم الالتزام بأساليب الشورى وبث الرعب والفزع فى نفوس الناس(٢٨) .

أثارت تلك الدروس كوامن الأسى واللوعة فى نفس النديم لما وصلت إليه حالة البلاد من تأخر وانحطاط بسبب حكم اسماعيل الاستبدادى الذى أدى إلى تدهور البلاد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فضلا عن غرقه فى الديون بعد أن وقع فى شراك المرابين، وأدى ذلك إلى التدخل الأوروبى فى شئون البلاد مما أوقعها فى حالة من التأخر والفقرلم يكن لها مثيل من قبل، ومما زاد الأسى فى نفس النديم أنه شاهد تلك الحالة على الطبيعة فى الأحياء الشعبية التى تربى فى أحدها بالاسكندرية وقارنها بما شاهده من ترف ونعيم عندما كان موظفا للإشارات البرقية فى القصر العالى(٢٩).

وكان جمال الدين الأفغانى يحث تلاميذه على الإنضمام إلى الجمعيات السرية التى يمكن أن تخلص البلاد مما هى واقعة فيه من فقد وبؤس، وتقضى على الظلم المتفشى فيها، فأنشأ المحفل الماسونى(٣٠) الذى انضم إليه النديم مع كثيرمن تلاميذ جمال الدين ومريديه ، وقد قسمهم إلى عدة لجان، لجنة للمالية وثانية للحقانية وثالثة للأشغال، ورابعة للحربية.. وهكذا لكل وزارة ومصلحة لجنة تدرس شئونها، وتتعرف على نقاط الضعف فيها وتقدم طرق إصلاحها، وتتعامل كل لجنة مع الوزير المختص وتناقشه فى شئون وزارته، وارتضى النديم العمل فى الاسكندرية التى عاد إليها عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) ليتخذها مقرا لدعايته وتنبيه الناس لمبادىء حزب الإصلاح، ويساعده فى تحرير صحف المحفل «مصر» و«التجارة»(٣١).

عودة النديم إلى الاسكندرية :

عاد النديم إلى مسقط رأسه عام ١٨٧٩م وعمره يناهز الخامسة والثلاثين، وهو أكثر خبرة بأمور الدنيا فيما لقى من عظماء الرجال ووجهائهم، عاد إلى الاسكندرية فرأى فيها منظرا غير مألوف عما كان سائدا أثناء إقامته فيها من قبل، حيث كانت المجالس الأدبية عندما غادرها لا تتحدث إلا فى غزل أبى نواس ووصف البحترى ومديح الشعراء للخديو، ولما عاد إليها وجد تلك المجالس تتحدث فى حالة البلاد ووقوعها تحت طائلة الديون، وتدخل الدول الأوروبية فى شئونها، وضرورة تخليصها من هذا الفساد على يد أبنائها المخلصين، ووجد بها جمعية سرية تسمى «جمعية مصر الفتاة» لتحقيق هذا الغرض فانضم إليها، وأخذ يحث أعضاءها على الخروج من السرية إلى العلنية حتى لا يعطوا للخديو وأعوانه الفرصة للبطش بهم والزج بهم فى غياهب السجون، ولذا أعلن برنامجا لها يزيل أى شكوك قد تثار حولها حيث أعلن أنها تهدف إلى الأخذ بيد الفقراء، ونشر التعليم بين الطبقات الفقيرة، وكان هذا مجرد غرض ظاهرى ليس إلا. أما الغرض الحقيقى فكان يتمثل فى رفع الظلم عن الناس وإزالة الخوف والرهبة من نفوسهم، وتعريف الناس بحقوقهم وحثهم على التمسك بها والذود عنها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا(٣٢).

اعتزم النديم ومعه بعض اعضاء جمعية مصر الفتاة إنشاء مدرسة تنهج نهجا غير ما هو متبع فى مدارس الحكومة حيث يتعلم فيها التلاميذ الخطابة والأدب ويربون تربية وطنية، ووضع لها برنامجا وطنيا وسرعان ما جمع الاكتتاب لهذه المدرسة من أثرياء الثغر ووجهائه ، وفتحت أبوابها وألتحق بها أبناء الفقراء والأيتام واسندت إدارتها إليه، فضلا عن قيامه بتدريس فن الخطابة ومادة الأدب العربى بها، وأطلق عليها اسم مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية(٣٣).

وقد وثق النديم الصلة بين المدرسة والقصر خاصة بعدما عزل اسماعيل وحل محله ابنه توفيق الذى تفاءل به الناس خيرا لعزمه على السير فى طريق الإصلاح، وجعل النديم المدرسة تحت رعاية عباس باشا ولى العهد، وكان الخديو يحضر حفلاتها ويسمع إلى خطب النابهين من تلاميذها، وأخذت المدرسة فى التقدم ، ولكن رياض باشا - ناظر النظار وقتئذ- ساءه نجاح النديم وتقربه للخديو فأخذ يعمل فى الخفاء للكيد له حتى نجح فى الضغط على مجلس إدارة المدرسة لإقصاء النديم عن إدارتها، ولكن النديم بذكائه كان قد سبق مجلس الإدارة إلى تقديم استقالته من إدارتها(٣٤).

النديم والصحافة :

طرق النديم بابا جديدا لمتابعة رسالته فى خدمة بلاده، وكان الباب الجديد هو ميدان الصحافة وشجعه على ذلك سابق اتصاله بصحيفتى أديب اسحق وسليم نقاش، وتمرنه على الكتابة فيهما وإحساسه بأن أسلوبه قد حاز إعجاب الناس، رغم أن المقالات التى كان يكتبها فى صحيفتهما لم تكن تزيل باسمه(٣٥) فأنشأ صحيفة «التنكيت والتبكيت»(٣٦) ويدل اسمها على الغرض الذى هدف إليها من وراء تلك الصحيفة الجديدة، حيث كان يهدف إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه فى أسلوب قد يكون لاذعا تارة ومضحكا تارة أخرى للإقلاع عن العادات القبيحة التى تسربت إلى المجتمع المصرى من الغرب واستنهاض الهمم، وقد ظهر العدد الأول من تلك الصحيفة فى ٦ يونيو ١٨٨١م فى أسلوب مبسط فكه لايستعصى فهمه على عامة الناس ويستسيغه مثقفوهم وأدباؤهم ، ولذا انتشرت الصحيفة بسرعة فى طول البلا وعرضها(٣٧).

ومما تجدر الإشارة إليه أن العدد الأول من تلك الصحيفة قد طبع منه ثلاثة آلاف نسخة كانت تنفذ فور صدورها لأن الناس كانوا يتخاطفونها بشوق ولهفة لأنها صادفت هوى فى نفوسهم ونزلت على رغبتهم، ووجدوا فيها ضالتهم

وأدركوا أنها ترجمة صادقة لأحاسيسهم ومشاعرهم، ويرون فيها متنفسا لما يختلج فى صدورهم، خاصة بعدما أيقنوا فى صاحبها صدق النوايا والإخلاص والجبروت وتوعيتهم لما فيه صلاحهم وسعادتهم(٣٨) ثم استبدل صحيفته تلك بصحيفة أخرى هى «الطائف»(٣٩) التى كانت سياسية صرفة(٤٠) وظهر العدد الأول منها فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨١.

النديم والخطابة :

لم يقتصر النديم فى رسالته الإصلاحية الاجتماعية على الكتابة فقط بل اعتمد على الخطابة أيضا حيث كان يخطب بالناس فى المساجد، وأخذ يبتدع خطبا تهدف إلى إصلاح مفاسد المجتمع وتحض على الخلق الرفيع والسلوك القويم وينبه الناس إلى ما يحيط بهم من ظلم وجور، وكتب الخطب لخطباء المساجد لتوعية الناس، كما قام هو بالخطابة فى مساجد القرى بطول البلاد وعرضها(٤١).

وحزّ نجاح النديم فى نفوس معارضيه والحاقدين عليه من أنصار رياض باشا، كما هالهم الشهرة التى وصلت إليها صحيفته، فأخذوا يشنون عليه الحملات، فتارة يتهمونه بالسعى وراء الشهرة والحث على عمل الخير ثم الإتيان بما يناقض كلامه، وتارة أخرى يتهمونه بالجهل فى أمور الدين، وضحالة مستواه الثقافى رغم إدعائه العلم والمعرفة، فانبرى لهم يبادلهم ردا برد أقوى مما أفقدهم صوابهم وجعلهم يعدون له الأكمنة ويحفرون له الحفر للقضاء عليه قضاءً مبرما(٤٢).

وتمادى النديم فى خطبه، فلم تعد مجرد دعوة لإصلاح الأحوال الاجتماعية . بل تطرقت إلى تحريض الناس على الثورة ضد الحكومة لممارستها أعمال العنف والظلم، وتجلى ذلك عندما أخذ يطوف بالبلاد محرضا أياهم على الثورة كما حثهم على المطالبة بحقوقهم المشروعة وعدم التفريط فى كرامتهم وحثهم

على مساندة الجيش والالتفاف حول زعمائه باعتبارهم القوة التى تستطيع المطالبة بحقوق الشعب وإنقاذه من الظلم الذى يئنون منه، ولكن رياض باشا لم يكن يعجبه مثل هذا النقد اللاذع لسياسته فأعد قرارا بنفى النديم إلى السودان ولكن الخديو توفيق لم يوافق عليه فخاب ظنه وفشل سعيه، ورغم كل ذلك فإن النديم لم يبال بما يحيط به من خطر لأنه كان قد وصل إلى المرحلة التى أصبح مستعدا فيها لتقديم روحه قربانا للوطن(٤٣).

ومن المرجح أن محادثات سرية دارت بين النديم - أثناء طوافه بالبلاد- وبين رسل زعماء الحركة الثورية في الجيش ليكون لسانا لهم ينشر دعواهم بين الناس ويهيىء أذهان الشعب وخاصة الفلاحين للثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية المتردية فى البلاد، وليؤيد الرأى العام الحركة التى يعد لها فى حذر وكتمان شديدين(٤٤).

وكانت أسباب الثورة العرابية آخذة فى التبلور، وازداد الاستياء العام ضد الخديو الذى خيّب الآمال التى عقدها الشعب عليه عندما تولى الحكم فى استعادة الكرامة الوطنية للبلاد، والحد من التغلغل الأجنبى فى شئونها، ورفع الظلم عن كاهل الشعب، وإبطال السخرة فى الريف وتدعيم الحكم النيابى وتوفير الرخاء والرفاهية والتعليم للمواطنين، وإعطاء كل مواطن حقه فى الترقى والتقدم، وعدم اختصاص فئة دون أخرى بالغنائم والمكاسب والرقى، وتوفير الحرية الشخصية للمواطنين وإباحة حرية القول والكتابة ، وعدم التنكيل بالكتاب لمجرد نقدهم أعمال الحكومة، وسيطرة الأجانب عليها والاستبداد والتصرف فى شئونها والزج بهم فى غياهب السجون، بل إنه أعرض عن الاستجابة لرغبات الشعب وأقصى عنه الناصحين وارتمى فى أحضان الأجانب وصار لايعمل إلا بمشورتهم، ولا يقر أمرا إلا بتوجيههم، ولذا علت الشكوى من أعمال الحكومة وعقدت الاجتماعات السرية والعلنية لمطالبتها بالإصلاح، وعقد الشعب

الأمل على الجيش لتحقيق أمله فى الإصلاح ورفع الظلم عن الشعب، وقد كان النديم ينقد الحكومة نقدا لاذعا، ولما رأى الشعب يحول أنظاره نحو الجيش طالبا معونته أخذ فى مساندته والإشادة بجهوده فى خطبه ومقالاته وتحريض الناس على الالتفاف حوله ومنحه ثقتهم وتفويضه بالمطالبة بحقوقهم ورفع الظلم عنهم .

وهكذا يتضح لنا أن النديم كان علما من أعلام الوطنية، جاهد بقلمه ولسانه دون أن يكل أو يمل، ولم يطاطىء الرأس لتهديد أو وعيد بل ظل مرفوع الهامة، صلب الإرادة، قوى العزيمة، لايحوله عن عقيدته شظف العيش أو الجوع والحرمان، بل كان كلما تضافرت عليه وسائل الاضطهاد والاستبداد يزداد إصرارا على مواصلة الجهاد، فيحارب مناهضيه حربا لاهوادة فيها، حتى خشى أعداء الوطن قلمه ولسانه، فشغل تفكيرهم، وقض مضاجعهم، وصاروا يحسبون له كل حساب، ويكيدون له المكيدة تلو الأخرى فيفوت عليهم تخطيطهم، ويفسد عليهم مكائدهم ويخرج من ذلك ظافرا بفضل حيله الواسعة وذكائه الفذ وحركته الدائبة.

هوامش البحث

١- على الحديدى : عبد الله النديم .. خطيب الوطنية ، ص١٤ .

٢- شحاته عيسى ابراهيم: عظماء الوطنية فى مصر فى العصر الحديث، ص ١١٢

٣- انشئت دار الصناعة (الترسانة) على أحدث النظم بحيث كانت تضارع مثيلاتها فى دول أوربا، وكان الهدف من إنشائها هو إنشاء أسطول جديد، وجمع لها محمد على ثمانية آلاف من أبناء الفلاحين من الصبيان والشباب ممن يتوسم فيهم النجابة والذكاء والمهارة والقابلية للتعلم ومن ثم العمل فيها - على الحديدى : المرجع السابق ص١٤ .

٤- شحاته عيسى ابراهيم: المرجع السابق، ص١١٣ .

٥- على الحديدى: المرجع السابق، ص١٥ .

٦- شحاته عيسى ابراهيم: المرجع السابق ص١١٣

٧- على الحديدى : المرجع السابق، ص ١٨ .

٨- انشأه الشيخ ابراهيم باشا فى الاسكندرية عام ١٢٤٠هـ(١٨٢٤م) ووقف عليه الأراضى الكثيرة وأسماه «بالجامع الأنور» ليضارع به الجامع الأزهر فى القاهرة ورتب له العلماء لتدريس نفس العلوم التى تدرس بالأزهر- على الحديدى : نفس المرجع ، ص١٩ .

٩- شحاته عيسى ابراهيم : المرجع السابق، ص١١٤ .

١٠- أحمد أمين: من زعماء الاصلاح، ص٤٣ .

١١- شحاته عيسى ابراهيم ، المرجع السابق، ص١١٤ .

١٢- أحمد أمين، المرجع السابق، ص٤٤ .

١٣- أنشأ الخديو اسماعيل القصر العالى على النيل عند حلوان وخصصه لإقامة أمه «خورشيار هانم» وكان قصرا فخما يسر الناظرين، وكان كل شىء فيه يسير على الطريقة الشرقية، وقد احتفظت فيه الوالده هانم بأربع فرق فنية الأولى موسيقية والثانية موسيقية وترية مصحوبة بمغنيات مصريات وتركيات والثالثة فرقة خاصة بالرقص الشرقى الجميل والرابعة لتمثيل الروايات الكوميدية لتسلية الزائرات. أحمد شفيق.: مذكراتى فى نصف قرن، ج١، ص٨٥، ٨٦ .

١٤- على الحديدى : المرجع السابق، ص١٤ .

١٥- شحاته على ابراهيم: المرجع السابق، ص١١٤ .

١٦- هو كبير أغوات الوالده هانم والمسيطر على شئون القصر - شحاته عيسى ابراهيم - نفس المرجع،ص١١٥ .

١٧- أحمد أمين : المرجع السابق ، ص٤٦ .

١٨- على الحديدى : ا لمرجع السابق، ص٤٦ .

١٩- أحمد أمين: المرجع السابق، ص٤٦، ٤٧ .

٢٠- على الحديدى: المرجع السابق، ص ، ٥٣- ٥٥ .

٢١- الأدباتية طائفة من الشحاذين يستجدون بأدبهم العامى وطلاقة لسانهم فى الشعر وحضور بديهتهم، وقد عرفوا بالإلحاح فى الطلب حتى يحصلون على ما يريدون - أحمد أمين: المرجع السابق، ص٤٨ .

٢٢- شحاته عيسى ابراهيم: المرجع السابق، ص١١٥، ١١٦ .

٢٣- على الحديدى: المرجع السابق: ص. ص ٥٨- ٦٤ .

٢٤- أحمد أمين: المرجع السابق، ص٤٩ .

٢٥- أحمد أمين : نفس المرجع، ص٤٩، ٥٠

٢٦- شحاته عيسى ابراهيم: المعجع السابق ١١٦ .

٢٧- على الحديدى: المرجع السابق،ص ٦٤ .

٢٨- شحاته عيسى ابراهيم: المرجع السابق، ص١١٧ .

٢٩- شحاته عيسى ابراهيم : نفس المرجع والصفحة.

٣٠- كانت المجامع الماسونية فى ذلك الوقت تتمتع بنفوذ كبير، وكان الدخول إليها يفرض نوعا من الرهبة على المنضمين لها حيث كان ينتظرهم سوء العاقبة إذا أباحوا بأسرارها و كان لها قسم خاص يجرد الإنسان من الولاء لكل شيء بما فى ذلك الزوجة والأولاد، ولايبقى له إلا الولاء للماسونية وحدها - عبد العليم القبانى: نشأة الصحافة العربية بالاسكندرية ١٨٧٣ - ١٨٨٢ ، ص٩٢ .

٣١- على الحديدى : المرجع السابق، ص ٦٨ .

٣٢- شحاته عيسى ابراهيم : المرجع السابق، ص١١٨، ١١٩ .

٣٣- أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢ .

٣٤- شحاته عيسى ابراهيم : المرجع السابق، ص١٢٠ .

٣٥- أحمد أمين : المرجع السابق، ص٥٢ .

٣٦- جاكوب لاندو، ترجمة سامى الليثى: الحياة النيابية والأحزاب فى مصر من ١٨٦٦ إلى ١٩٥٢م ، ص١٠١ .

٣٧- أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٥٣ .

٣٨- على الحديدى: المرجع السابق، ص.ص ١١١ - ١١٤ .

٣٩- صلاح قبضايا : الصحف اليومية المصرية فى القرن التاسع عشر، ص٢١ .

٤٠- عبد المنعم ابراهيم الجميعى: عبد الله النديم، الاعداد الكاملة لمجلة الاستاذ، ج١، ص٣.

وعلى الحديدى : المرجع السابق، ص١٦٥ .

٤١- شحاته عيسى ابراهيم: المرجع السابق، ص ١٢٣ .

٤٢- شحاته عيسى ابراهيم: نفس المرجع والصفحة..

٤٣- على الحديدى: المرجع السابق ، ص. ص ١٢٠ - ١٢٨ .

٤٤- على الحديدى: نفس المرجع، ص ١٢٨ .

٤٥- شحاته عيسى ابراهيم : المرجع السابق ، ص١٢٤ .

عبد الله النديم

بين الاستخفاء والنفى

(١٨٨٢-١٨٩٦)

د. فوزى المصرى

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب – جامعة طنطا

يعد عبد الله النديم الإدريسى نموذجا فريدا من نماذج الشخصيات فى تاريخ مصر الحديث التى اضطلعت بالمسئوليات الملقاة على عاتقها فى فترة الثورة العرابية. والنهضة الأدبية، والبعث الاجتماعى لمصر فى تلك الفترة، فكان خطيب الثورة ولسان حالها، ولكنه اضطر إلى الاختفاء بعد فشلها ثم ألقى القبض عليه ونفى خارج مصر.

عبد الله النديم فى فترة الاستخفاء :

كان عرابى قد فكر هو ورفاقه - بعد فشل الثورة العرابية - فى طلب العفو من الخديو، وكتبو إليه رسالة ضمنوها رغبتهم، وأرسلوها إليه فى الإسكندرية مع وفد منهم، ثم عدلوا من صيغة الرسالة الأولى فى رسالة ثانية أرسلوها مع عبد الله النديم ليسلمها للخديو، ولكنه عندما وصل إلى كفر الدوار علم أن الخديو رفض العريضة الأولى وأمر بالقبض على بعض أعضاء الوفد الذى تقدم بها، فلم يكمل النديم سيره إلى الإسكندرية وارتد عائدا إلى القاهرة بعد أن أيقن بخطورة موقفه وأن الهلاك قريب منه، وخطط للهرب والاستخفاء، ولم يضيع الوقت فى هذا الأمر فما هو إلا «فص ملح وداب» ونشطت الحكومة فى البحث عنه ولكن دون جدوى[1] ولما يئست من البحث عنه أعلنت عن مكافأة ضخمة قدرها ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكن برغم ضخامة المكافأة فإنها لم تأت بالنتيجة المرجوة منها، لأن الذين آووه عرفوا مقدار التضحية فى سبيل الوطن، وقدموا من قبل أنفسهم فداء لوطنهم فى ميدان القتال، فلا أقل من تقديمها فى سبيل من بث فى قلوبهم هذاالحس الوطنى الجارف. وظل النديم مختبئا لمدة عشر سنوات[2] معتمدا على ذكائه وحيله المحكمة ومهارته فى التخفى، ولما فشلت الحكومة فى القبض عليه اضطرت إلى محاكمته غيابيا وإصدار حكم غيابى ضده بالنفى المؤبد إلى خارج مصر[3].

وكان أول استخفاء لعبد الله النديم فى بولاق التى ذهب إليها ليختفى بها

أياماً عند صديق له حتى يخف الطلب عليه، وكان خلال تلك الأيام يغير من منظره وملبسه حتى لاينكشف أمره، فكان يخرج لابساً «زعبوطاً» أحمر ومتعمماً بعمامة حمراء، رابطاً عينه بمنديل، مطيلاً لحيته حتى أيقن الجميع أنه أحد مشايخ الطرق الصوفية، وزيادة فى الحيطة والحذر - حتى لاينكشف أمره - كان النديم يتعمد تصنع الفزع لكى يخيف خادمه فيبالغ فى التستر وكتم أمر سيده. مما أراح نفس النديم من جهة خادمه الذى لازمه طوال فترة الاستخفاء[٤].

وكان النديم قد أمضى فترة تخفيه التى بلغت عقدا من الزمان خارج القاهرة، حيث قضى معظمها فى قرى مديرية الغربية[٥] فتنقل خلال تلك الفترة فى البلاد متنكرا يدخل كل بلد بلباس مخصوص، ويتكلم فى كل منها بلسان يوافق الدعوة التى يتبعونها، فكان يدعى أنه مغربى أو يمنى أو شرقاوى، أو فيومى أو نجدى، وتبعا لذلك كان يغير من شكل لحيته حسب الدعوى التى يدعيها، فيطيلها عندما يدعى المشيخة، ويقصرها عندما يدعى أنه سائح، كما كان يغير من لونها فى كل بلد يذهب إليه، فهى تارة بيضاء وأخرى حمراء، وثالثة سوداء، ولم يقتصر الأمر على تغيير الشكل والمظهر لينجح فى الاستخفاء بل كان يغير اسمه كذلك، فتارة يكون اسمه الشيخ يوسف المدنى، وأخرى الشيخ محمد الفيومى، وثالثة الشيخ على المغربى، وفضلاً عن كل ذلك ولمبالغة فى الاستخفاء فقد كان يثير عجب الناس عندما يلتقى بهم ويتشبهون عليه فيقولون «سبحان الله جل من لاشبيه له»[٦] .

وكانت هناك بعض العوامل التى ساعدت النديم على الاستخفاء منها مهارته فى حيله، وإتقانه لما يدعى، فإذا ادعى أنه مغربى تكلم اللهجة المغربية بإتقان، وإذا ادعى أنه مدنى أحكم لهجتها، وإذا ادعى أنه يمنى أتقن لهجتها، واستمر على ذلك الحال وهو بارع فى حيله حتى ذاع صيته وبلغت شهرته القاهرة،

حتى أن رياض باشا أرسل إيه سعد زغلول فى «القرشية»[٧] ليسأله عن مثل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهم معناه، فقابله النديم على أنه عالم يمنى[٨] وإمعاناً فى التخفى - حين رأى جدّ الحكومة فى طلبه - استعان النديم برجل فرنسى ليشيع عن هروبه إلى «ليڤورنو» بإيطاليا ونقلت جريدة الأهرام هذا الخبر فصدقه الناس، ونتج عن ذلك أن الحكومة وجهت لومها إلى رجال الضبط لإهمالهم فى القبض عليه. وأدى ذلك إلى أن خف عنه الطلب، برغم أنه كان خدعة حيث كانت جواسيس الحكومة تبحث عنه فى كل مكان - فكتبت جريدة «المحروسة» عن هروبه إلى الخارج قائلة: «إن الأقوال تعددت فى مقرعبد الله النديم، فمن قائل إنه لجأ إلى إيطاليا، ومن قائل إنه هرب إلى طرابلس الغرب، ومن قائل إنه فر إلى السودان واتصل بالمهدى وأصبح من رجاله المقربين، وقال آخرون إنه سافر إلى «سيلان» للالتقاء بأحمد عرابى فى منفاه، ورجح صاحب الجريدة أن يكون المقام قد استقر به فى باريس[٩].

ومن الجدير بالذكر أنه برغم إمعان النديم فى التخفى إلاّ أن بعض رجال الضبط المتعاطفين معه تعرفوا عليه، فذات مرة التقى به أحد رجال الضبط من الشراكسة وكان يشغل وظيفة «مأمور مركز» وعرفه ذلك الرجل، فأمر جنده بالانصراف، ثم اختلى به وأخبره أنه عرفه برغم تنكره ثم أعطاه ما معه من نقود، ورسم له خطة السير حتى لا يقع فى أيدى رجال الضبط[١٠].

وكان النديم فى بداية فترة الاستخفاء شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه، ولايعرف ما آل إليه أمرهم، كما كان شديد الشوق إلى كتبه ومؤلفاته التى تركها فى منزل الأسرة بالاسكندرية قبل الهرب، ومن فرط شوقه إليهم طلب من صديقه الفرنسى أن يتحسس الأمر ويأتيه بالأخبار، وبعد التقصى أبلغه صديقه أن أسرته قد شتت فى البلاد وتنكر الناس لهم، ووضعت الحكومة العيون من حولهم، وعلم أن أباه يقيم عند أقاربه فى الريف، وأن مؤلفاته قد فقدت حيث إن

والده كان قد اصطحبها معه فى أثناء هجرته من الإسكندرية بعد ضربها ووضعها فى صناديق كبيرة وشحنها بالقطار، ولكن عندما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم عليه المسافرون ، فلم يجد رجال المحطة بداً من إلقاء صناديق الكتب فى النيل حتى تتسع العربة للركاب، وبذا ضاعت مؤلفات النديم التى انفق فيها تسعة عشر عاماً من عمره بين القراءة والتفكير والتأليف(١١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن النديم كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالاً منتظماً بعدما هدأت الأحوال قليلاً وخفت الطلب عليه كما كان باراً بخادمه الذى رافقه طوال فترة الاستخفاء، وكان أميناً على سره، ولذا كان النديم رحيما به فغير اسمه من حسين إلى صالح حتى لاينكشف أمره ثم زوجه وعلمه القراءة والكتابة وحفظه بعض سور القرآن الكريم وعلمه الفقه والتوحيد واتخذه خليلا طوال فترة الاستخفاء(١٢) .

وبرغم شدة الأزمات التى واجهت النديم طوال فترة استخفائه إلا أنه لم يستكن لها ، فكان كلما انفرجت إحدى أزماته ووجد شيئا من الفراغ شغل نفسه بالدراسة والتأليف، فكان إذا اطمأن فى قرية قرأ كل ما تصل إليه يده من الكتب وكانت مكتبته خلال فترة الاستخفاء خفيفة يسهل حملها إذا ما دعا داعى الرحيل حيث كانت تحتوى على تفسير القرآن لأبى السعود، قاموس الفيروز أبادى، والوافى فى المسألة الشرقية لأمين شميل، وجغرافية ملطبرون - ترجمة رفاعة الطهطاوى- وكان يستغل وقت فراغه فى التأليف فيما يعن له فى الدين والتاريخ، وقد استطاع النديم أن يكتب فى فترة الاستخفاء عشرين مؤلفا فضلا عن شغل نهاره بتحرير الجورنال وقضاء ليلة فى دراسة الأحوال، والاشتغال بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية(١٣).

وقد تمكن عبد الله النديم خلال فترة الاستخفاء أن ينشر ملحقا لمجلة «الأستاذ» وكان ذلك عبارة عن صفحات من كتاب ألفه وهو فى المخبأ أسماه

«كـان ويكون» وهدف من تدوينه إلى عـرض خـلاصـة أفكاره فى الدين واللغـة والسياسـة والأدب والتاريخ ملتزما فيه بحرية الفكر مع عدم التعصب لدين أو لجنس. وكان النديم قد وضع هذا لكتاب على نمط قصصى، دون فيه كل ما كان يدور بينه وبين صديقه الفرنسى[١٤] من حديث وجدل، وكان معظم ما نشر به عن أصول الأديان وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام فضلا عن بعض أخباره فى مخبئه، وبعض نظرات سياسية. وكان مانشر فى هذا الكتاب يدل على بعد نظر مؤلفه وكثرة إطلاعه وسماحته الدينية، وشدة حبه لمصر وشعبها[١٥] .

وبرغم مبالغة النديم فى الاستخفاء والتنكر إلا أن أمره كشف بعد عشر سنوات من الاختفاء والتنقل بين قرى مديرية الغربية حيث ألقى القبض عليه فى شهر نوفمبر ١٨٩١م[١٦] عندما نزل بقرية الجميزة[١٧] وعرفه عمدتها وكتم أمره، لكن رجلا يدعى حسن الفرارجى - كان جنديا سابقا ثم استخدم جاسوسا- عرفه، فكتب إلى السراى وإلى الداخلية التى أمرت بالقبض عليه وذهب وكيل حكمدار الغربية ومعه قوة من الجند فالتفوا حول القرية، وحاول النديم الهرب ولكن الحيل لم تسعفه فاضطر إلى تسليم نفسه. ومن حسن حظه أنهم لم ينتبهوا إلى أوراقه التى كان فى بعضها هجاء مر للخديو توفيق لو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته، وبعد القبض عليه أرسل إلى طنطا للتحقيق معه، وكان وكيل النيابة الذى كلف بالتحقيق معه وقتئذ هو قاسم بك أمين الذى أحسن معاملته، وأمر بتنظيف مكانه فى السجن وإضاءته والسماح له بشرب القهوة والدخان، وأعطاه نقودا من جيبه، وانصب التحقيق معه حول معرفة من آواه، وهل كانوا يعرفقونه أو لا؟ ولكن النديم أنكر أن يكون أحد ممن آواه يعرف حقيقته. وبعد الانتهاء من التحقيق صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عنه[١٨] وإبعاده خارج مصر، فاختار يافا ونزل بها أوائل عام ١٨٩٢[١٩].

نفى النديم إلى يافا للمرة الأولى :

عندما صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عن النديم وإبعاده عن مصر إلى أى جهة يشاء فاختار يافا ونزل بها، فأكرمه أهلها واتخذ بها دارا جعلها منتدى للأدباء والعلماء، وطاف فى ربوع فلسطين يشاهد آثارها، ويحج إلى مزاراتها، ويجتلى حسن طبيعتها، وظل النديم فى منفاه الاختيارى حتى توفى الخديو توفيق وتولى الخديو عباس الثانى الحكم فأصدر أمرا بالعفو عنه، وسمح له بالعودة إلى مصر فى نفس العام الذى نفى فيه، وبعد عودته إلى مصر فكر طويلا فيما يفعل وإلى أين يذهب . وتردد بين القاهرة والاسكندرية ثم اتخذ قراره بالإقامة فى القاهرة[٢٠] وأنشأ بها مجلة أسبوعية أسماها «الأستاذ» عام ١٨٩٢ فكانت صفحة جديدة فى تاريخ نضاله حيث هدف من ورائها إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعى وإصلاح التعليم والدفاع عن الشرق ضد الغرب، وشحذ همم المصريين، فحققت من الشهرة والانتشار فى شهور ما لم تحققه المجلات الأخرى فى أعوام، ولعبت دورا فى تقوية الشعور الوطنى لدى المصريين فى تلك الآونة[٢١].

وقد وصف «فاتيكيوتيس» Vatikiotis هذه الفترة بأنها الفترة التى وصلت فيها الصحافة المصرية إلى مرحلة النضج بعد أن تخلت عن رسميتها وفجاجتها التى كانت عليها قبل الاحتلال الإنجليزى[٢٢] مما أدى إلى استيقاظ الشعب المصرى وتحمسه بعد فترة الذهول، وهو ما كانت تخشاه سلطات الاحتلال، خاصة بعد تحسن الأحوال المعيشية وتحول الناس إلى المشاركة فى الحياة السياسية[٢٣] وما كان ذلك ليحدث إلا بالمقالات الجريئة التى نشرها النديم فى مجلة الأستاذ هادفا من ورائها إلى مقاومة الاحتلال البريطانى وكشف خباياه وتحقيق الإصلاح الاجتماعى.

ولم يقتصر النديم فى مقالاته التى نشرها بجريدة الأستاذ على مناهضة

الإنجليز وشحذ همم المصريين فقط بل تعداه إلى سب المؤيدين للإنجليز، وهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير مما أدى إلى تأليب الجرائد المعارضة له الحكومة عليه وتحذيرها منه، وقالت إنه يعد البلاد لفتنة بين المصريين والأجانب، وأنه يهيئ لثورة كالثورة العرابية، ونصحت الإنجليز بأخذ حذرهم منه وإلا ساءت العاقبة، كما وصفته تلك الصحف بأنه متعصب للدين، وأنه ثورى مهيج، ولكنه لم يأبه لكل ذلك واستمر فى منازلة خصومه والتشهير بهم، مما حدا باللورد كرومر إلى أن يطلب من الخديو عباس نفيه فانصاع للأمر ، وودع النديم قراءه فى آخر عدد من جريدة «الأستاذ» الذى صدر فى ١٣ يونيه ١٨٩٣[٢٤].

نفى النديم إلى يافا للمرة الثانية :

اختار النديم مدينة يافا مقرا لمنفاه للمرة الثانية، ومنحته الحكومة مبلغ أربعمائة جنيه يستعين بها على سفره ثم رتبت له مبلغ خمسة وعشرين جنيها شهريا يعيش بها، على ألا يكتب شيئا فى الصحف يتصل بسياسة مصر، فغادر مصر إلى يافا فى منتصف يونيه ١٨٩٣[٢٥]، وهناك عاد النديم إلى سيرته الأولى حيث التف حوله العلماء والمثقفون والأعيان. ولم يستطع أن يفى بوعده للحكومة المصرية، حيث وسع من دائرة حديثه فانتقد احتلال الانجليز لمصر فضلا عن نقد سياسة الدولة العلية والتلميح إلى دكتاتورية السلطان وضعفه أمام الإنجليز وتخليه عن مصر فى محنتها، وبذا انتقل ميدان كفاحه من القاهرة إلى يافا، إلا أن العيون تربصت به فكانت له بالمرصاد ، وكانت تقارير الجواسيس تحذر من خطورته على كل من الإنجليز والسلطان معا[٢٦] ولذا أصدر السلطان أمره بإبعاده من يافا التى أمضى بها أربعة أشهر[٢٧] كما قضى الأمر بإبعاده من الأراضى التابعة لتركيا[٢٨] .

نفى النديم إلى الأستانة :

طبقا للأمر السلطانى أصبح النديم بدون مأوى حيث أصبح ممنوعا من دخول مصر أوالأراضى التابعة لتركيا، وأقلته الباخرة إلى الاسكندرية ، فأقام بها أياما حتى تحل مشكلته وقابله خلالها الغازى مختار باشا مندوب السلطان العثمانى وزين له السفر إلى الآستانة. وكان كثير من أحرار العثمانيين من ذوى الأفكار المتحررة آنذاك قد فروا إلى أوروبا ومصر وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وإصلاح أحوال الدولة ويوجهون النقد اللاذع للسلطان، ولذا كان من سياسة السلطان عبد الحميد استرضاؤهم وترغيبهم فى الإقامة بالآستانة حتى يكونوا تحت سمعه وبصره، فيجرى عليهم الرزق ويسند إليهم الوظائف ويمنعهم من الاتصال بخارج تركيا فيصبحون سجناء فيها وبذلك يتقى شرهم، وتبعا لهذه السياسة فقد احتشد فى الأستانة العديد من أرباب القلم والفكر وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغانى الذى دخل القفص السلطانى عام ١٨٩٢م ولحق به النديم، ولكن مع الفارق فى المعاملة المادية، فالأفغانى خصص له قصر فخم وعربة وخدم وحشم – كانوا بمثابة عيون عليه – فضلا عن الحصول على خمسة وسبعين جنيها شهريا أما النديم فعين مفتشا للمطبوعات بالباب العالى نظير الحصول على مرتب شهرى قدره خمسة وأربعون جنيها مضافا إليها مبلغ خمسة وعشرين جنيها كان يتقاضاها من مصر، فكان ذلك يعينه على الإنفاق على نفسه وإخوانه(٢٩).

وكانت الآستانة سجنا للنديم صمت فيه قلمه وسكت فيه لسانه وعطلت فيه مواهبه فلم يعد هناك مجال للخطابة أو الكتابة أو التعبير عما يجيش بخاطره من أفكار يدعو فيها إلى الحرية بل أصبح فى وسط يكاد يختنق فيه من كثرة العيون التى ترصده، وكان لايفرج عنه هذا الضيق إلا مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى يحادثه ويسامره، وكان كلاهما يشكو لصاحبه تعذيب روحه

الحبيسة فى القفص إذ كانا شريكين فى الجهاد، نفيا وحبسا فى قفص السلطان، فجمعت بينهما المحنة والغربة وتجسدت بينهما روابط الأخوة والاتحاد أمام هذا المصير المشترك[٣٠].

وخلال فترة نفيه بالآستانة نال النديم الحظوة لدى السلطان وتعرف بكثير من ذوى الفضل من الوزراء ورجال الدولة[٣١] وكان فى حاشية السلطان عبد الحميد آنذاك داهية أكبر يدعى أبا الهدى الصيادى الذى كان قادرا على معرفة نفوس الناس ويعرف من أين تؤتى، فاتخذ طريق الصوفية وانتحل لنفسه أعلى نسب، وله أتباع فى كل البلاد كانوا بمثابة عيون تأتيه بالأخبار من كل صوب، فيستغلها عند السلطان وتدخل فى شئون السياسة والإدارة والجيش حتى لقب بعدة ألقاب منها «مستشار الملك» و«حامى العثمانيين» واتخذ من الأمراء والأعيان أعوانا له على ما يريد، وكان العلماء يؤلفون الكتب وينسبونها إليه، وينظم الشعراء القصائد ويدعونها له، وزاد نفوذه لدى السلطان حتى استولى على تفكيره وحواسه، فأصبح مطاع الكلمة لايعصى له أمر، ولم يكن ميالا لحب الخير وأهله حتى لقب – وقتئذ– بشيطان تركيا، ولما رأى ما لجمال الدين من حظوة لدى السلطان، خاف على مركزه لديه وأخذ يكيد لجمال الدين عنده ليفقده ثقته، وكان السلطان يسمع لتلك الوشايات ويفضى بها إلى جمال الدين ليكره أبا الهدى وكان هدفه من ذلك أن يرى حاشيته فى شقاق حتى لايتآمروا عليه[٣٢].

وكانت صداقة النديم لجمال الدين سببا فى أن يلحقه غضب أبى الهدى الصيادى حيث كان دائم الوشاية به والشكاية منه إلى السلطان باستمرار، ومما زاد من كره أبى الهدى للنديم أنه مصرى الجنسية، حيث إن واحدا وعشرين عالما مصريا كانوا قد أفتوا بتكفيره وزندقته ، ومن ثم فهو يمقت مصر والمصريين على حد سواء، ونفث عن مقته هذا فى كرهه وكيده لعبد الله النديم[٣٣].

وعلى الرغم من قوة أبى الهدى الصيادى إلا أن النديم لم يتحرز من خصامه ومنازلته، وأطلق فيه لسانه ووضع فيه كتابا أسماه «المسامير» استعمل فيه النديم أسلوبا وضيعا لمنازلة أبى الهدى وهجاه فيه هجاءً مرا . وبلغ أمر هذا الكتاب إلى أبى الهدى، فأبلغ السلطان أن هذا الكتاب زاخر بهجائه، فأمر السلطان بالبحث عن الكتاب لكن دون فائدة حيث استطاع «چورچ كرتشى» صديق جمال الدين والنديم أن يهرب به إلى مصر ثم يطبعه فيها[٣٤].

لقد وجد النديم فى خصومته لأبى الهدى متنفسا لنفسه المكبوته، فأخذ يفضح دسائسه وتقاريره الكاذبة للسلطان وتلاعبه بالدين وانسابه للطرق الصوفية بما يسود وجه أبى الهدى، فاضطر الأخير إلى الاستنجاد بالسلطان ضد النديم، فدعا السلطان النديم إلى قصر الخلافة وطلب منه أن يكف عن هجاء أبى الهدى فصاح النديم بأعلى صوته «لقد قلد مولانا السلطان أبا الهدى وسام الافتخار فلألبسنه أنا وسام العار يلازمه فى حياته ويصحبه إلى قبره بعد مماته» وبرّ النديم بوعده فكان كتابه «المسامير» الذى كال فيه النديم لأبى الهدى وأسرته أنواع الرذائل وأحط الموبقات[٣٥].

وقد تمكن «جورج كوتشى» أن يهرب الكتاب إلى مصر ويطبعه بها طباعة أنيقة. وكان ذلك الكتاب يقع فى أربع وتسعين صفحة ويتكون من مقدمة وتسعة مسامير، ومزودا بصور كاريكاتورية لكل مسمار، وأعلن النديم أن هذا هو الجزء الأول وسوف تليه بقية لأجزاء إلا أنه لم يظهر غيره[٣٦].

وفى عام ١٨٩٤ زار الخديو عباس الثانى الآستانة واتصل بالنديم الذى كان سفيرا له لدى السلطان . وجرى النديم فى ذلك الأمر بين الخديو والسلطان ليتوسط فى زواج الخديو من إحدى بنات السلطان وكاد ينجح فى مسعاه لولا أن أبا الهدى أثار خوف السلطان من هذا الزواج، معلنا أنها خدعة إنجليزية يراد بها انتزاع الخلافة من تركيا ونقلها إلى مصر حين يولد لعباس ولد من

ابنة السلطان، وسوف يتخذه الإنجليز ذريعة وينادون به خليفة على المسلمين، وصدق السلطان كلامه ورفض هذا الزواج، وفضلا عن ذلك فقد انتهز أبو الهدى فرصة لقاء الخديو بجمال الدين والنديم وهما يتنزهان فى حديقة الكاغدخانه ودسّ لهما عند السلطان حيث قرر بأنهما بايعاه تحت الشجرة على أن يؤسسا له خلافة عباسية وصدق السلطان الدسيسة وكانت أزمة جديدة بينه من ناحية وبين جمال الدين والنديم من جهة أخرى(٣٧).

وخلال زيارة الخديو عباس الثانية لتركيا عام ١٨٩٥م استأذنه النديم فى أن يصحبه فى رحلة العودة إلى مصر، فوافق الخديو واصطحبه على ظهر الباخرة، ولكن دسائس أبى الهدى حالت دون ذلك حيث أسرّ إلى السلطان بأن المؤامرة التى حيكت تحت الشجرة فى حديقة الكاغدخانه فى العام الماضى قد أوشكت على أن تؤتى ثمارها وأخبره بفرار النديم من الآستانة برفقة عباس بدون إذن السلطان ليتم فصول المؤامرة فى مصر، وصدق السلطان أبا الهدى كعادته وأمر بحجز الباخرة فى مضيق الدردنيل وإعادة النديم إلى الأستانة مرة أخرى تمهيدا لنفيه إلى إحدى الولايات البعيدة المهجورة حتى لايقابل أحدا من أصدقائه ولما علم النديم بذلك ثار ثورة عارمة وأرسل تلغرافا إلى السلطان الذى أكبر فيه عزة نفسه وعفا عنه دون أن يسمح له بالعودة إلى مصر(٣٨).

لم تطل حياة النديم فى الآستانة بعد ذلك حيث أصيب بالسل الرئوى، ولما أحس بدنو أجله أرسل تلغرافا إلى أخيه وأمه يستعجلها بالسفر إلى الأستانة ليراهما قبل أن يوافيه الأجل المحتوم، ولكنه توفى فى يوم ١٠ اكتوبر ١٨٩٦م قبل أن يتحقق أمله فى رؤية ذويه، فبكاه محبوه، وأمر السلطان بالاحتفال بتشييع جنازته رسميا، وسار فيها كبار رجال الدولة وعلمائها حتى واره التراب فى مدفن يحيى أفندى فى «إشكطاش» فسكت خطيب الشرق إلى الأبد(٣٩).

أثر دعوة النديم على الجيل الجديد :

مات النديم الكاتب والشاعر والأديب، والخطيب الوطنى المفوه، وأحد تلاميذ جمال الدين الأفغانى الذين تمسكوا بتعاليمه[٤٠] ولكن دعوته لم تمت حيث تسلم راية الكفاح من بعده تلاميذه وعلى رأسهم مصطفى كامل الذى قاد المرحلة التالية من الكفاح الوطنى[٤١] الذى كان ضرورة تاريخية ملحة فى تلك الفترة، ولكن الفضل يعود إلى مصطفى كامل فى حمل رايته[٤٢].

ونجح مصطفى كامل فى هذا المجال إلى أبعد حد حيث انجذب إلى فكرالنديم بشدة واهتم بتوليد قوة للنضال ضد بريطانيا بعد أن فهم من خطب النديم ومؤلفاته دسائس السياسة الإنجليزية التى أدت إلى فشل الثورة العرابية وكانت وسليته لذلك هى الاعتماد على القوى الداخلية والخارجية لتحقيق ما يصبو إليه، فاعتمد فى الداخل على تأييد الخديو كسلطة شرعية فى البلاد، أما فى الخارج فقد اعتمد على فرنسا التى عول عليها كثيرا لحل المسألة المصرية[٤٣].

وهكذا يتضح لنا مدى عظمة النديم، وشجاعته التى تمثلت فى حياته الحافلة بالنضال والكفاح فى سبيل وطنه، وقد وجدت دعوته صداها لدى جيل مناضل من شباب مصر الذين قادوا المرحلة التالية من مراحل الحركة القومية فى سبيل الاستقلال والحرية وتحقيق الغاية بأن تكون مصر للمصريين – فاستحق بذلك أن يسجل اسمه فى سجلات المجد والفخار.

هوامش البحث

١- أحمد أمين: من زعماء الإصلاح، ص ٦٧، ٦٨.

٢- عمر عبد العزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص٢٨٤.

٣- أحمد أمين : المرجع السابق ، ص٦٨.

٤- أحمد أمين: نفس المرجع والصفحة.

٥- عبد المنعم ابراهيم الجميعى: عبد الله النديم ، الأعداد الكاملة المجلة الأستاذ، ج١ ص٣.

٦- أحمد أمين : المرجع السابق، ص٦٩.

٧- القرشية: إحدى ضواحى مدينة طنطا بمديرية الغربية.

٨-أحمد أمين: نفس المرجع ص٦٩.

٩- أحمد أمين : نفس المرجع، ص٦٨، ٦٩.

١٠- أحمد أمين: نفس المرجع، ص٦٨، ٦٩.

١٠- أحمد أمين: نفس المرجع، ص٧٠.

١١- أحمد أمين: نفس المرجع، ص٧٠، ٧١.

١٢- أحمد أمين : نفس المرجع، ص.ص ٧١، ٧٣.

١٣- أحمد أمين: نفس المرجع، ص ٧١، ٧٢.

١٤- كان هذا الصديق الفرنسى قد أتى من باريس قبل الثورة العرابية وتعلم اللغة العربية والتركية وأقام فى مصر متتبعا حوادثها وتعرف على عبد الله النديم فى الاسكندرية عام ١٢٩٢هـ(١٨٧٥م) وتوثقت بينهما الصلة، وكان له ضيعة قريبة من البلدة التى اختبأ فيها النديم، مما أتاح له زيارته فى مخبأه والقيام بكل ما يحتاجه من خدمات. أحمد أمين نفس المرجع. ص٨١.

١٥- أحمد أمين : نفس المرجع والصفحة.

١٦- عبد المنعم ابراهيم الجميعى: المرجع السابق، ج١ ص٢.

١٧- الجميزة: إحدى قرى مديرية الغربية.

١٨- أحمد أمين: المرجع السابق، ص٧٣، ٧٤.

١٩- عبد المنعم إبراهيم الجميعى: المرجع السابق، ج١، ص٣.

٢٠- أحمد أمين : المرجع السابق، ص٧٤.

١٢- عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص٢٨٤، ٢٨٥.

٢٢- Vatikiotis. P.J. The Modern History of Egypt. p-166.

٢٣- Little. Tom: Egypt. p. 95

٢٤- عبد الرحمن الرافعى: مصر المجاهدة فى العصر الحديث، التراجع والانتكاس من الاحتلال إلى ثورة ١٩١٩ ص٢٠.

٢٥- علي الحديدي: عبد الله النديم خطيب الوطنية، ص٢٨١.

٢٦- علي الحديدي: نفس المرجع، ص ٢٨٢.

٢٧- أحمد أمين : المرجع السابق،ص٨٢.

٢٨- علي الحديدي: المرجع السابق، ص٢٨٢.

٢٩- أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.

٣٠- علي الحديدي: المرجع السابق، ٢٨٤.

٣١- عبد المنعم ابراهيم الجميعي: المرجع السابق، ج١ ،ص٣.

٣٢- علي الحديدي: المرجع السابق، ص٢٨٤ ، ٢٨٥.

٣٣- علي الحديدي : نفس المرجع، ص٢٨٦.

٣٤- أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٨٥، ٨٦.

٣٥- علي الحديدي: المرجع السابق، ص٢٨٦ ، ٢٨٧.

٣٦- علي الحديدي: نفس المرجع، ص٢٨٨.

٣٧- علي الحديدي: نفس المرجع، ص٢٨٩.

٣٨- علي الحديدي: نفس المرجع، ص٢٨٩، ٢٩٠.

٣٩- أحمد أمين: المرجع السابق، ص٨٦.

٤٠- عبد الرحمن الرافعي:عصر اسماعيل ، ج١، ص٢٦٥.

٤١- عبد المنعم ابراهيم الجميعي: المرجع السابق، ص٤.

٤٢- Rothsein T: Egypt's Ruin - p-p 342-343.

٤٣- نعمات أحمد عثمان : تاريخ الصحافة السكندرية ١٨٧٣- ١٨٩٩، ص ٣٢١ ، ٣٢٢.

عبد الله النديم

ودوره فى الثورة العرابية

د. محمد محمود السروجى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

يعتبر عبد الله النديم من الشخصيات الوطنية المهمة فى تاريخ مصر الحديث بصفة عامة، وتاريخ الثورة العرابية بصفة خاصة. فهو يلقب بحق خطيب الثورة، والداعى لها، والمدافع عنها، والمتحدث باسمها. آمن بها فكرة، وتعشقها وهى حقيقة واقعة، ولم يتخل عنها فى أوقات محنتها، ولم يتنكر لها بعد فشلها، بل ظل المؤمن بها، والمخلص لذكراها، والوفى لمبادئها حتى آخر يوم فى حياته.

ولد عبد الله النديم بمدينة الإسكندرية فى ١٠ ديسمبر ١٨٤٥فى أسرة متوسطة الحال، وتلقى تعليمه الأولى بمسجد الشيخ ابراهيم باشا، وكانت دلائل النبوغ والذكاء ظاهرة عليه منذ صغره. كما امتاز بسرعة البديهة، وقوة الحجة، ورجاحة البيان، والى جانب ذلك كان يقرض الشعر، ويكتب النثر، وينظم الزجل، وكان مولعا بالفكاهة، جريئا إلى حد الهوس.

ويمكننا أن نقسم تاريخ حياة عبد الله النديم إلى قسمين أو مرحلتين: المرحلة الأولى كانت مرحلة التكوين والإعداد التى سبقت قيام الثورة العرابية وحتى عام ١٨٨١. وفيها اهتم بانشاء الجمعيات الخيرية وأهمها الجمعية الخيرية الإسلامية بالأسكندرية، وأصبح ناظرا لمدرستها. وفيها ايضا لوازم استاذه جمال الدين الأفغانى بعد انتقاله إلى القاهرة. وكان من تلامذته أيضا الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم اللقانى، وعبد السلام المويلحى، وحفنى ناصف، وسليم النقاش، وأديب اسحق، ومحمود سامى البارودى، وعبد الكريم سليمان.

كان الأفغانى يحث تلاميذه على المناداة بالحرية، ومحاربة الاستبداد بالكلمة المكتوبة والمسموعة، ولاسيما الخطابة التى برز فيها عبد الله النديم بتشجيع من اساتذته. عمل النديم فى ذلك الوقت موظفا بالتلغراف بقصر الوالدة باشا،

وحدث أن غضب عليه خليل أغا كبير أغوات القصر، ففصله من عمله، وطرده من القصر. فكان لهذا الحادث أثره فى حملته الشديدة التى شنها النديم على الظلم والاستبداد.

هام عبد الله النديم على وجهه بعد فصله، متنقلا بين مدن وقرى الوجه البحرى، لا يقر له قرار، ولا يطيب له عيش، فعرف عن قرب ما يعانيه الفلاح من الفقر والجهل والمرض، ومن العبودية والظلم الإجتماعى. واقنعته تلك الجولة بضرورة المناداة بالإصلاح الإجتماعى، جنبا إلى جنب مع الاصلاح السياسى، فلا غنى لأحدهما عن الآخر.

عاد النديم مرة ثانية إلى القاهرة، إلى مجلس استاذه جمال الدين الأفغانى. حيث وجده يشن حربا، لاهوادة فيها على الاستبداد السياسى المتمثل فى الخديوى اسماعيل، وفى التدخل الأجنبى، لاسيما من قبل بريطانيا وفرنسا على وجه الخصوص، وعلى الظلم الإجتماعى الذى يعانى منه شعب مصر.

وقد أوحت له الجولة التى قام بها فى قرى مصر بتدوين كتاب تحت عنوان «تاريخ مصر فى هذا العصر»، وهو الكتاب الذى قام بنشره محمد أحمد خلف الله يحمل عنوان «عبد الله النديم ومذكراته السياسية»، وقد هاجم فيه النديم الخديوى اسماعيل هجوما شديدا لاستبداده وظلمه.

تركز نشاط النديم فى ذلك الوقت فى توعية الناس وفى الكتابة فى جريدتى «مصر» و «التجارة»، وكذلك أسهم فى تحرير جريدتى «المحروسة» و«العصر الجديد» اللتين أصدرهما سليم نقاش، ولكنه لم يكتب اسمه على ما كانت تنشره له الجريدتان من مقالات.

عاد النديم إلى الاسكندرية وهو فى سن الخامسة والثلاثين من عمره بعد أن نال حظا وافرا من تعاليم استاذه جمال الدين الأفغانى، وبعد أن تجول فى

قرى مصر، وعرف عن كثب ما يعاينه الناس فى حياتهم اليومية من عنت وظلم وفاقة. ورأى أن يبدأ حركته الإصلاحية بتعليم النشء وهم أمل المستقبل- فأنشأ فى ١٨ ابريل ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان من أهم أهدافها فتح المدارس لتعليم أولاد الفقراء مجانا، مع العناية بتربيتهم على حب الوطن، ونبذ التعصب، والبعد عن العنصرية. بل إن تسامحه الدينى، وإيمانه بأخوة الجميع فى الوطن، دفعه إلى اقناع بعض أصدقائه من الأقباط أن ينشئوا جمعية خيرية قبطية على غرار الجمعية الإسلامية لتعمل على تحقيق نفس المبادئ والأهداف.

وإذا كان عبد الله النديم قد اعتنق مبادئ الثورة العرابية قبل أن ينضم إلى الحزب العسكرى بصفة علنية، إلا أن حادثة قصر النيل التى وقعت فى منتصف يناير ١٨٨١ قد دفعته إلى الإعلان عن رأيه فى مناصرة العسكريين، وبدأ نشاطا مكثفا، سلاحه الخطابة، مما أزعج رياض باشا رئيس الوزراء، ورأى نفيه خارج البلاد إتقاء لثوريته، فتصدى له على باشا فهمى من رجال الثورة قائلا له :«إن نديما منا معشر الجهادية، وإن لم يحمل سلاح العسكرية، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حفاظاً عليه بالأرواح والأجناد»، فاضطر رياض إلى العدول عن عزمه.

ويمكننا القول بإنه منذ تلك الحادثة تبدأ المرحلة الثانية من تاريخ حياة النديم، حيث وقف بكل ثقله إلى جانب رجال الثورة من العسكريين، فلم يترك فرصة إلا واستغلها فى الخطابة، داعيا الناس إلى الالتفاف حول رجال الثورة، منبها جماهير الشعب إلى ضرورة التمسك بالوحدة الوطنية، محذرا من دسائس التدخل الأجنبى. ومنذ ذلك الوقت أصبح النديم خطيب الثورة ومستشارها والمتحدث باسمها.

وفى مذكرات النديم يؤكد هذا الرأى ويصنف الناس من مؤيدين ومعارضين فيقول مخاطبا عرابى، «فلزمت الأفكار، وتركت الأوطار، وبعت نفسك لله، لا للمظهر والجاه، وقام معك الأمراء والقادة، والعلماء والسادة. وقام أخوك (يقصد نفسه) ينادى بلسانك، ويترجم عن جنانك، فسرى صوتنا فى البلاد، وتنبه الناس من الرقاد، وتبعنا من رجال الوطن أمشاج، وتوارد علينا زمر وأفواج، فكان لفيفنا العجيب على هذا الترتيب: مخلص أدرك ما قصدنا فقام يرصد ما رصدنا، ومتردد حائر مع النوازل دائر، ومذبذب إن عظمت الأدواء لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومنافق ينقل عنا والينا، ويحمل معنا وعلينا، وعدو ينسب الينا البدعة، وينصب لنا شرك الخدعة، وساذج يتحرك إذا نبه، ويسكن إذا جبه، لكل قسم نية، وختم عليها الطوية.»

كان نجاح رجال الجيش فى حادثة قصر النيل دافعا لهم على أن يخطوا خطوة أكثر قوة. فإذا كانت حادثة قصر النيل قد اقتصرت على مطالب الجيش، وهو قطاع مهم من قطاعات الشعب - فلتكن الخطوة التالية هى انتزاع مطالب الشعب كله. أشار عبد الله النديم على عرابى أن يكون ممثلا للأزمة عن طريق توقيعات الأهالى على توكيلات له بذلك. فكتب منشورا بذلك وقام بتوزيعه على كل بلاد القطر لجمع تلك التوقيعات. ونجح فى ذلك إلى حد كبير، وعاد النديم إلى القاهرة ومعه أحمال منها.

وبعد أن اطمأن عرابى إلى تأييد الأمة لخطواته زحف إلى ميدان عابدين بكتيبة العسكرية، ومن خلفه الآلاف من سكان القاهرة، وكان يحيط بالخديو توفيق فى ساحة القصر تشارلز كوكس القنصل الإنجليزى، والسير أو كلاند كولفن المراقب المالى البريطانى، والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية، والجنرال استون رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى وبعض الضباط.

وفى هذا اللقاء اجتمع النقيضان فى صعيد واحد، عرابى ومن ورائه الجيش المصرى وجمهور المصريين ممثلا للاتجاه الوطنى التحررى، ويقابله فى الجانب الآخر الاستبدادية ممثلة فى الخديو والنفوذ الأجنبى، تساندهم الرجعية المصرية.

طالب عرابى فى هذا اللقاء باسقاط الحكومة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى. وبلغ الحوار بين عرابى والخديو مداه، وبلغ التحدى بينهما أقصاه. فعرابى يرفع صوته عاليا مطالبا بمطالب الأمة العادلة، ويأبى الخديو الذى يستند على التأييد الأجنبى فيمن حوله من الأجانب أن يستجيب لنداء العقل إلا مضطرا، خوفا من عواقب الرفض، فانحنى للعاصفة مكرها، ووافق على مطالب الأمة والجيش، وهو يضمر غير ذلك.

لم يكن توفيق مخلصا فى موافقته، واستغل التباعد والتنافر اللذين خيما على العلاقة بين العسكريين وكبار الملاك الزراعيين فى إذكاء الخلاف بينهما، فأسند إلى شريف باشا- وهو من كبار أقطاب الحزب الوطنى- تشكيل الوزارة وكان الخديو توفيق يعتمد على شريف فى مواجهة العرابيين، والوقوف ضد مطالب مجلس النواب إذا ما تعارضت مع سياسته، وعلق شريف قبوله هذه المهمة بانسحاب عرابى وعبد العال حلمى بكتيبتهما إلى مديرية الشرقية ليتيح للوزارة فرصة العمل بعيدا عن ضغط الجيش عليها. وكان هدف الخديو من وراء ذلك ايقاع الفرقة بين الفريقين، ولكى يضرب أحدهما بالآخر، ويقضى بذلك على الحركة الوطنية. ولكى يفوت عرابى عليه فرصة إحداث الصدع فى العلاقات بين قادة الحركة الوطنية من الفريقين، قبل كل من عرابى وعبد العال حلمى تنفيذ الأمر بالابتعاد عن القاهرة.

صحب عبد الله النديم، الذى كان فى قلب تلك الأحداث، قوات عبد العال

حلمى فى طريقها إلى دمياط. وكذلك رافق جنود عرابى إلى رأس الوادى. فأصبحت مديرية الشرقية بانتقال النديم إليها مجالا لاجتماعاته وخطبه، ومركزا كبيرا لنشاطاته، لاسيما وأن المرشحين على مبادئ الثورة لمجلس شورى النواب قد التفوا حول عرابى والنديم، وكذلك جموع الفلاحين.

لم يمكث عرابى فترة طويلة فى رأس الوادى، فما لبث أن دفعته الأحداث إلى العودة للقاهرة هو وعبد الله النديم. وكان النديم قد أصدر فى ٢٦ يونيه ١٨٨١ صحيفة «التنكيت والتبكيت» لتعبر عن مبادئ وأهداف الحركة الوطنية، وكانت تعالج الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بإسلوب ساخر. وفى ٢٠ نوفمبر من السنة نفسها طلب منه عرابى أن يغير اسمها إلى «لسان الأمة» لتعبر عن سياسة الحركة، وتنطق باسمها. ولكن النديم سرعان ما غير هذا الاسم إلى «الطائف».

بدأ الإعداد لإجراء الانتخابات لمجلس شورى النواب، فوقفت الصحيفة إلى جانب مرشحى الحركة الوطنية، داعية المواطنين إلى اختيار الأكفاء، مع تعريفهم بكنه الحياة الدستورية ومزاياها، وضرورة التمسك بها. وعندما تم انتخاب المجلس ساندته الصحيفة لاسيما فيما واجهه من أزمات فى مستهل حياته النيابية. وأصبحت الصحيفة منذ ٥ مارس ١٨٨٢ لسان حال نواب الأمة، والمعبرة عن آرائهم وأفكارهم. وتمتعت الصحيفة بتأييد المجلس والحكومة ومساعداتها المادية والمعنوية.كما كان من مميزات الصحيفة نشرها لمحاضر جلسات المجلس، إضافة إلى ما كانت تنشره عن حياة الخديو اسماعيل وابنه توفيق فى لهجة قاسية ونقد مرير بدأت أصابع الخديو تلعب فى الخفاء، وتحيك مؤامرة قام بها الضباط الجراكسة للإطاحة بالوزارة الجديدة. وقد أحبطت يقظة الوزارة تلك المؤامرة، مما ساعدها على تطهير الجيش من أعوان الخديو.

وكان هذا مما أقتضته طبيعة المعركة القادمة.

قدم الضباط المتآمرون للمحاكمة، وصدرت ضدهم أحكام ،رفض الخديو التصديق عليها بإيعاز من قنصلى بريطانيا وفرنسا، مما ترتب عليه توتر العلاقة بين الوزارة والخديو. فأدى هذا الأمر إلى تفكير العسكريين جديا فى عزل الخديو والتخلص نهائيا من حكم اسرة محمد على. ولكن أعضاء الحزب الوطنى بالتعاون مع أعضاء مجلس النواب رفضوا الأخذ بهذا الرأى. من ثم بدأ الانشقاق واضحا بين معسكر الجيش ومعسكر الخديو بمن يلوذ به من أعضاء الحزب الوطنى وأعضاء مجلس النواب.

وفى مواجهة هذا الوقف المضطرب، الملئ بالاحتمالات، اسرعت بريطانيا وفرنسا بارسال بعض قطع من اسطوليهما الحربى إلى مياه الأسكندرية. كذلك أرسلت الدولتان المذكرة المشتركة الثانية فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ تطالبان فيها بإقالة وزارة البارودى، ونفى عرابى خارج البلاد، وإبعاد زملائه عن مدينة القاهرة.

بدأ كل معسكر من المعسكرين يستجمع قواه لمعركة لا مفر منها، وأخذ الفريقان يستقطبان ما يمكن استقطابه، فوقف الخديو تسانده الدولتان بريطانيا وفرنسا والرأسمالية المصرية فى جانب، والوزارة الوطنية ومن ورائها شعب مصر فى جانب آخر.

رفضت الوزارة قبول المذكرة، بينما قبلها الخديو لإحراج الوزارة ودفعها على الاستقالة، وتم هذا بالفعل. ونظراً لاضطراب الموقف ، وضغط الرأى العام على الخديو- إذ حضر النديم فى ذلك الوقت اجتماعا يضم عشرة آلاف مواطن، وقف فيهم خطيبا مندداً بتصرفات الخديو- أن قبل الخديو مكرهاً اسناد وزارة الجهادية (الحربية) إلى عرابى للمحافظة على الأمن والنظام.

أسرع الخديو باللجوء إلى الاسكندرية ليكون فى حمى اسطول الدولتين. وبذلك أصبحت الاسكندرية مقرا للخديو ومسانديه ومن يلوذ بهم، والقاهرة مقرا لعرابى ورجال الثورة الذين فكروا مرة ثانية فى الغاء الخديوية واعلان الجمهورية. ولما كان عبد الله النديم يخشى من حدوث ما يعكر الصفو فى مدينة الاسكندرية، رحل اليها وقام بنشاط كبير فى توعية الناس بعدم المساس بالأجانب أو الاحتكاك بهم، حتى لا تتخذها الدولتان ذريعة للتدخل العسكرى بحجة حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم. كما التقى بدرويش باشا الذى أرسله السلطان العثمانى لمحاولة حل النزاع القائم بين الخديو ورجال الجيش، وسعى لديه حتى أقنعه برفض المذكرة تدعيما لموقف العرابيين.

وما كان يخشاه النديم قد حدث بتدبير من رجال الخديو، إذ أوعز الخديو إلى عمر لطفى محافظ الاسكندرية بتدبير فتنة فى المدينة حتى يبدو عرابى أمام الأجانب أنه عاجز عن حفظ الأمن والنظام، ويسقط بذلك التعهد الذى قطعه على نفسه بحماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم. ويعطى بذلك المبرر لتدخل بريطانيا وفرنسا بحجة حفظ أرواح الأجانب بعد عجز الحكومة عن القيام بذلك.

وبالفعل دبرت مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونيه ١٨٨٢، وعجل هذا الحادث بتوجيه بريطانيا انذارها إلى الحكومة المصرية بايقاف ترميم القلاع الساحلية وتسليم ما بها من من أسلحة وعتاد، وإلا ضربت الاسكندرية فى صباح اليوم التالى ١١ يوليو ١٨٨٢. وترتب على هذا الضرب إخلاء المدينة من سكانها ونزوحهم إلى المدن والقرى الداخلية.

أسرع النديم بالعودة إلى القاهرة ليحفز الناس على الجهاد وعلى التمسك بوحدتهم فى مواجهة المعتدى الغاشم، ويدعو لهذه الحرب المقدسة، مستنهضا همم الناس لقتال الانجليز، محذر إياهم من الشقاق والفرقة، موضحا لهم بأن

الحرب القائمة هى بين المصرى أيا كانت ديانته وبين الأجنبى وقد وجدت الدعوة صداها لدى المصريين بمختلف طوائفهم، فقدموا ما فى استطاعتهم من جهد ومال.كما أعلن بطريرك الأقباط أن الانجليز بهذا العمل قد خرجوا على تعاليم المسيحية.

كانت المهمة الملقاة على كاهل النديم ينوء بحملها أولوا العزم من الرجال، فهو بالإضافة إلى كونه مستشارا لعرابى، كان عليه أن يصب جام غضبه على المعتدى الغاشم فى كتاباته الصحفية. وفى الوقت نفسه عليه أن يطوف البلاد لحث الناس على المقاومة، وعدم الاستماع إلى الدعايات المغرضة والمثبطة لعزائم الرجال. وكان عليه أن يفند تلك الدعايات والمزاعم وأن يرد على الشائعات التى تطلقها الصحف الأجنبية المعادية للثورة والمؤيدة للخديو.

وعندما وجهت بريطانيا قواتها الضاربة إلى قناة السويس، نقل عرابى قيادته العسكرية إلى القصاصين. ولم يتخل عنه النديم، فرافقه إلى ميدان القتال على صهوة جواده، يحارب بالكلمة النافذة إلى جانب قلوب الجنود، حاثا لهم على بذل ما يستطيعون دفاعا عن الأرض والعرض والمال، فإما النصر وإما الشهادة، وهى اسمى ما ينشده المجاهد فى سبيل الله.

وعندما نجحت بريطانيا فى الضغط على السلطان العثمانى لإصدار بيان بعصيان عرابى، كى تفت فى عضد الجنود الموالية له، أشار النديم على عرابى بنشر هذا البيان فى حينه والرد عليه حتى لا يفاجأ الجنود به عن طريق آخر. ولكن عرابى خشى من تأثيره على الجنود فرفض النشر. وقد استغلت بريطانيا هذا البيان أيما استغلال، فقامت سفارتها فى استانبول بشراء مليون نسخة من جريدة الجرائد التى نشرت البيان، وذلك لتوزيعها فى مصر وفى الهند على وجه الخصوص، حيث اضطربت الأوضاع هناك نتيجة غزو مصر ونظرا للفارق

الكبير بين القوتين المتجاورتين: قوة بريطانيا وقوة عرابى، بالإضافة إلى الخيانة التى حدثت فى صفوف الجيش أن هُزم عرابى فى موقعة التل الكبير الفاصلة فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢، لجأ بعدها عرابى والنديم إلى بلبيس ومنها إلى القاهرة، لمحاولة جمع فلول قواته، وإعادة الكرة مرة آخرى، ولكنه أخفق فى ذلك، واضطر إلى تسليم نفسه للقوات البريطانية حيث جرت محاكمته هو ورفاقه.

ومنذ يوم ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ اختفى النديم لدى أحد أصدقائه ببولاق لمدة عشرة أيام، استطاع خلالها أن يغير ملامحه وملابسه، ثم اتجه إلى المنصورة هو وخادمه، حيث كان يعتزم الهرب إلى الشام. وفى المنصورة نزل فى ضيافة أحد علماء الأزهر مدة أربعة شهور. وفى تلك الفترة حوكم النديم غيابيا وحكم عليه بالإعدام.

استمر اختفاء النديم تسع سنوات وهى مدة ليست بالقصيرة فى الوقت نفسه التى كانت تجد السلطات البريطانية الحاكمة فى البحث عنه، بل لقد رصدت مبلغ ألف جنيه لمن يدل عليه، وقد تنقل النديم من قرية إلى قرية أخرى، لا يستقر له قرار. وكان الذين ينزل فى ضيافتهم يعرفون حقيقته، ولكن نظرا لمكانة الرجل الوطنية وكفاحه الطويل ضد الظلم والاستبداد، كانوا لا يفشون سره، رغم تعرضهم للعقوبة الشديدة إذا ما كشف أمرهم. ومما ساعد النديم على الاختفاء تلك السنوات شدة حذره، وحذقه فى التنكر فى صور مختلفة، وإجادته التامة لعدة لهجات عربية، فكان إذا تزيا فى لباس مغربى تكلم العربية باللهجة المغربية، وإذا ما لبس لباسا حجازيا تكلم بلهجة أهل الحجاز، وهكذا. وقد اتخذ له عدة اسماء منها :محمد الفيومى، ويوسف المدنى، وعلى اليمنى وسى الحاج على المغربى، والشيخ الشرقاوى، والشيخ السبكى، والغزى، والنجدى وغيرها.

وساعده على التخفى أيضا التنظيم الدقيق الذى كان عليه الجهاز الذى أشرف على خطة الاختفاء وحيطته وحذره الشديدين. وتصادف أن تعرف عليه أحد رجال البوليس السرى ويدعى حسن الفرارجى، فأسرع بإبلاغ أمره إلى المسئولين طمعاً فى الحصول على جائزة التى خصصتها الحكومة لمن يرشد عنه. وبالفعل تم القبض عليه بقرية الجميزة التى كان يختبئ بها فى ٢ أكتوبر ١٨٩١.

أحدث القبض على عبد الله النديم دويا كبيرا فى الصحافة والمجتمع، وعندما عرض أمره على الخديو توفيق فى اكتوبر صدر الأمر باسقاط العضوية عنه، مع نفيه إلى بلاد الشام، ومنحه معاشا شهريا قدره ١٥٠ جنيها فاختار النديم يافا لتكون مقاما له، حيث بدأ نشاطه واجتماعاته بعلماء الشام ومثقفيه.

وعندما تولى الخديو عباس الثانى الحكم أصدر عفوه عنه فى ٣ فبراير ١٨٩٣، فعاد النديم إلى مصر فى ٩ مايو من السنة نفسها. لم تغير الأيام من مبادئ النديم شيئا، فإيمانه بالحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة ظلت كما هى، ولكنها غيرت من شعب مصر الذى تركه يلتهب وطنية وحماسة، فوجده قد استسلم للمستعمر، وخيم عليه اليأس والقنوط ومع ذلك لم ييأس لأنه كان كبير الأمل فى الشباب، عدة المستقبل.

ولما كان عباس فى مستهل حكمه للبلاد يرفض القيود التى فرضها اللورد كرومر عليه، فقد وجد فى عبد الله النديم أمله المنشود، فكلاهما يرفض الاستعمار ويقاومه، فتوثقت الصلة بينهما. وحاول النديم أن يعود إلى سيرته الأولى كصحفى لا يشق له غبار فأوعز إلى أخيه أن يستصدر ترخيصا باسمه لإنشاء مجلة «الأستاذ» الأسبوعية التى أشرف على تحريرها، وصدرت بالفعل فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٣. كان كفاح عبد الله النديم فى مرحلة ما بعد الثورة -

يدور حول مناصرة الخديو عباس علنا فى صراعه ضد الحكم الإنجليزى. وانبرت المجلة للرد على أصحاب جريدة المقطم الناطقة بلسان السلطات الإنجليزية الحاكمة، وأيضا للرد على ما تشنه الصحافة الإنجليزية من حملات على الصحف الوطنية وعلى رأسها مجلة «الأستاذ».

ضاقت السلطات الاستعمارية الحاكمة بمصر بحملات عبد الله النديم وبنشاطه المعادى لمصالحها، فطلب اللورد كرومر من الخديو نفى النديم مرة ثانية، حتى تستقر الأمور الداخلية فى البلاد، فرفض الاستجابة له فى بادئ الأمر، ولكنه اضطر أخيرا للإذعان حفاظا على كيانه ومصلحته فغادر النديم مصر إلى يافا مرة أخرى فى منتصف يونيه ١٨٩٣، واشترط عليه بألا يكتب شيئا فى الصحف تتعلق بالأمور السياسية بمصر.

وهناك عاد النديم سيرته الأولى، فأصبح مجلسه ملتقى العلماء والمثقفين من كل الفئات، حيث يخوضون فى مختلف أمور الحياة بحرية كبيرة وكان هذا النشاط- دون شك - لا يروق للسلطان عبد الحميد الثانى، ولذا أصدر أمره بإبعاد النديم عن يافا بعد أربعة شهور فقط، واستطاع أن يستدرجه إلى استانبول كما استدرج جمال الدين الافغانى من قبل، ليكون تحت رقابته، وعينه مفتشا للمطبوعات وكانت وظيفة اسمية.

التقى النديم هناك باستاذه جمال الدين، ولازمه فى كل جلساته. وكان أبو الهدى الصيادى من كبار رجال حاشية السلطان ومن المقربين اليه، وكان هذا الرجل يبغض جمال الدين لما له من مكانة لدى السلطان، وبالتالى شمل بغضه عبد الله النديم، فأخذ يكيد لهما لدى السلطان، مما دفع النديم إلى أن يطلق عليه اسم «أبو الضلال» بدلا من أبى الهدى وألف فيه كتاب «المسامير»، رماه فيه بكل نقيصة، وتتبع نشأته وأسرته بكل إزدراء. وقد نال هذا الكتاب من ابى

الهدى كل منال، فثار على النديم ثورة عاتية، ووقف له بالمرصاد.

حاول النديم أن يعود إلى مصر، وانتهز فرصة زيارة الخديوى عباس لاستانبول فى عام ١٨٩٥، وطلب منه أن يسمح له بمرافقته لأنه يريد أن يمضى البقية الباقية من حياته بمصر، ولكن رفض السلطان ذلك بإيعاز من ابى الهدى.

لم تطل به الحياة بعد ذلك فمات من مرض السل الرئوى فى ١٠ اكتوبر ١٨٩٦ ودفن بالآستانه. وأمر السلطان أن تشيع الجنازة رسميا، وسار خلفه استاذه جمال الدين الافغانى، والشيخ محمد ظافر شيخ وإمام السلطان، والسيد عبد الرحمن الجزولى، وكبار رجال الدولة ووجهاؤها.

فقدت مصر بموته رجلا وهب حياته وجهده فى سبيل رفعتها ورقيها، جاهد فى ميدان التعليم بهدف تربية نشء يؤمن بها، ويتفانى فى خدمتها،وجاهد فى مجال الإصلاح الاجتماعى ما وسعه ذلك، وجاهد فى صفوف الثورة العرابية بقلمه وروحه. وعندما فشلت لم يتنكر لها كما فعل غيره، بل ظل وفيا لمبادئها، فلم يكن ثمن العفو عنه السكوت عما يفعله المستعمر بمصر. بل لقد حاولت السلطات الإنجليزية الحاكمة أن تستميله اليها وأن توفر له كل سبل الراحة والعيش الرغيد، ففشلت فى ذلك فشلا ذريعا. فلم تجد فى النهاية مناصا من إبعاده عن مصر التى لم ينسها حتى آخر لحظة من حياته.

وأخيراً عرف هذا الجسد النحيل الذى لم يعرف الراحة، والذى لم يخلد إلى السكون الا مضطرا، الهدوء بعد العاصفة، تحت ثرى استانبول غريبا عن أهله وأصدقائه.

رحم الله عبد الله النديم، وأسكنه فسيح جناته، جزاء اخلاصه، وما قدمه لوطنه من خدمات جليلة.

تراث عبد الله النديم

د. محمد مصطفى هدارة

استاذ الأدب العربى كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

عبد الله بن مصباح بن إبراهيم المشهور باسم عبد الله النديم شخصية فريدة من شخصيات القرن التاسع عشر الميلادى، الثالث عشر الهجرى، وتفرد الشخصية تزكيه أسباب كثيرة: أولها أن عبد الله النديم عاش حياته بالعرض لا بالطول فهى لم تزد على ثلاث وخمسين سنة (١٨٤٣-١٨٩٦) من الناحية الزمنية ولكنه كان فى خلالها ملء الأسماع والأبصار فى مصر والعالم العربى والإسلامى، وكان نارا متأججة لاتهدأ تضىء وتحرق، وكان رحالة لايستقر به مكان، وكان شوكة فى حلوق الظالمين والمستبدين والمستعمرين يحاولون نزعها، وهى تزداد تشبثا بمكانها ووخزاتها. وثانى هذه الأسباب موسوعية معارف عبد الله النديم فهى تجمع بين العلوم الإسلامية والآداب العربية والتاريخ والسياسة واللغة والبلاغة والمعتقدات والعلوم الاجتماعية، وثالثها تنوع المهام التى أنيطت بعبد الله النديم فهو أديب كاتب على الطريقة التقليدية والطريقة العصرية وشاعر يجمع بين المنهجين التقليدى والابتكارى، وهو صحفى يعرف جيدا أثر الصحافة فى الجماهير، وهو سياسى يشارك فى الثورة العرابية ويعلن الحرب على الحاكمين وهو معلم يرى فى تربية الطلاب الأساس الصحيح للنهضة والخروج من مأزق التخلف والانهيار، وهو تاجر، وعامل تلغراف، ووكيل ضيعة. رابع أسباب تفرد شخصيته قدرته على الاختفاء عن أعين السلطات الحاكمة التى رصدت الأموال الطائلة لمحاولة القبض عليه، مدة تسع سنوات، لجأ فيها إلى مختلف الحيل والأشكال وتحدث بمختلف اللهجات ليكون بمنأى عن عيون الباحثين عنه فى كل مكان. وخامس الأسباب قدرته الهائلة على التأليف برغم عدم استقراره فى مكان، إذ لم تتم له فرصة البقاء طويلا فى مسقط رأسه الإسكندرية إبان الشباب، فقد كان يتردد بينها وبين القاهرة، ثم ساح فى محافظات مصر وخاصة فى وسط الدلتا، ثم نفى مرتين عن وطنه مصر، وقضى نحبه غريبا فى القسطنطينية[١].

وقد ذكر النديم فى صحيفة (الأستاذ) أنه حسنى النسب من جهة الأب الذى

يلقب بالإدريسى ، وينتـهى هذا اللقب من طريق إدريس الأكـبـر بن عـبـد الله المـحض الملقب بالكامل بن الحسن المـثنى بن الحسن السبط ابن الإمـام على ابن أبى طـالب. وقـد أنكر أحـمـد تيـمـور هذا النسب الذى أراد عـبـد الله النديم إثباته لنفسـه[٢] ويرى عمـر الدسـوقى أن ضـعـة نسب عبـد الله النديم دفـعتـه لادعـاء هذا النسب[٣] بينمـا ترى نفوسـه زكـريا سـعـيد أن النديم بعد كل مـا اكتسبه لنفسه من فضل لم يكن فى حاجة إلى التستر وراء الأنساب والأحساب لتدعيم مكانته[٤]. وعلى هذا فهى تميل إلى تصديقه وواضح من سيرة حياة عبد الله النديم أنه وهب ذكـاءً فطريا وحـافظة قـوية لاقطة أفـادته كـثـيـرا فى كـتـاباته ومسـاجلاته وخطبه، والدليل على ذكائه وقوة حافظته أنه أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ التاسـعة، وقد لاحظ أبوه مخايل النجابة فى داره فتمنى أن يصير عـالمـا فى الدين فـأدخله مدرسـة جـامع الشيـخ ابراهيم (فـأتقن فـقـه الشـافـعى والأصول والمنطق وعلوم الأدب اللسانية، وبلغ منهـا مـا لم يبلغه أحد قبله ، وذلك كله وهو فى سن المراهقة)[٥].

وفى تلك السن الباكرة تفتحت مواهبه الإبداعية فـأخذ يكتب الرسـائل وينظم القصـائد ، ولاشك أن عوامل أخرى كثيرة سـاعدت على صقل مواهبه الإبداعية منها انتظام لقائه بعدد من كبار أدباء العصر فى ندوة أحمد وهبى الأدبية التى كان يتردد عليها الشاعر الكبير مـحمود سامى البارودى وعبد الله فكرى والسيد على أبو النصـر ومـحمـود صـفوت السـاعـاتى والشيـخ أحـمـد الزرقـانى ومـحمـد سـعـيد. وقـد وصـفـهم النديم فى رسـالتـه «لواء النصـر فى أدباء العصـر» بأنهم «تجار البيان ونبلاء الزمـان»[٦] وكـان أحـمد وهبى نفسـه أديبـا وشـاعـرا برغم أنه كان صـاحب حـانوت طرابيش فى الغورية[٧]. ومن هذه العوامل أيضـا إفـادته من صلة الصداقة التى ربطت بينه والشيخ حمزة فتح الله «فقد كانا تربين لايفترقان لدى المطالعة، كأنما هى جذيمة وهما النديمان»[٨] وصلته بجمـال الدين الأفغانى وكل من كـانوا يتـرددون عليـه من أمـثـال الشيـخ مـحـمـد عـبده وعـبـد السـلام

المويلحى، وأخيه ابراهيم المويلحى وسليم نقاش وأديب اسحق وغيرهم من قادة الفكر والوطنية والدعوة إلى التجديد والحرية.

كل هذه العوامل هيأت عبد الله النديم ليكون شخصية متفردة فى عصره، تتميز بالأصالة وعمق الفكر والتنوع والتجدد ، تسمو إلى آفاق الفصحى وتغوص فى أعماق الشعب بلغته وتراثه، وحسبها فى سموها وغوصها صدق التعبير وقوته، وأداء الأمانة وإبلاغ الرسالة.

وما أصدق ما وصف به ابن منتصر الذى جمع مقالات النديم – عبد الله النديم بقوله (إنه الرجل العظيم الذى أحيا فى بلادنا سنة الجهاد فى سبيل الدفاع عن الحقوق الوطنية وأرهب جيوش الملحدين.. وعلمنا معنى الحرية والاستقلال والحياة، وأرشدنا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أنفسنا، ومهد لنا طرق المناضلة عن حقوقنا، وسبل الوصول إلى استرجاع ما سلب منا . إنه أول مناد فى مصر بالحياة الدستورية وداع إلى طلب الاستقلال،[9] وإن كنت أرى ابن منتصر مبالغا فى نسبة الأولية لعبد الله النديم فى طلب الحياة الدستورية والاستقلال. ولكنه من أوائل الداعين إليها.

وإذاكان التكوين الموسوعى لعبد الله النديم يمكن أن يثمر عددا من التآليف فى شتى ألوان المعرفة الإنسانية، فحياته المضطربة غير المستقرة تحول دون انصرافه إلى تأليف أى كتاب أو جمع أشعاره فى ديوان. لكن طبيعة النديم القوية الثائرة هيأت له تصنيف مائة مؤلف[10]، ثم كان تأثير حياته المضطربة أن ضاعت هذه المؤلفات ولم يبق منها إلا أقل القليل.

ويمكننا حصر أسباب ضياع ما ألفه النديم فيما يأتى[11]:

أولا: كان النديم يعير مؤلفاته المخطوطة لمن يطلبها فلا يردها الطالب وقد حدث هذا فى الاسكندرية وفى القاهرة وفى المنصورة، أى فى مراكز إقامته التى كان مستقرا فيها بعض الاستقرار.

ثانيا: عندما كان مقيما فى قرية بدواى فى محافظة الدقهلية واختلف مع عمدتها حتى أنه هجاه هجاءً مرا علم أن جماعة من أهل القرية يأتمرون به لقتله، فغادر القرية ليلا على عجل، دون أن يأخذ شيئا من متاعه، فلما جاء المتآمرون غضبوا لهربه فأحرقوا البيت وفيه كتب من مؤلفاته.

ثالثا: حين كان مقيما بالمنصورة غافله خادمه وسرق متاع بيته وفيه عدد من مؤلفاته.

رابعا: عندما اكتوت الاسكندرية بنار الحرب العرابية هاجر والده من الاسكندرية قاصدا القاهرة، فملأ بأمتعة بيته - وفيها عدد من مؤلفات ابنه عبد الله - عربة بضاعة فى القطار الذى استقله، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم القطار ازدحاما هائلا بالمهاجرين، فلم يجد المسئولون عن القطار بدا من إفراغ عربة البضاعة وإلقاء ما بها فى النيل ليفسحوا للمسافرين مكانا.

خامسا: من المنطقى أن تصادر السلطات عند القبض على النديم فى نوفمبر ١٨٩١ عقب فترة الاختفاء التى امتدت تسع سنوات كل ما كان ألفه وكان لايزال موجودا عنده.

سادسا: أشار كاتب سيرة النديم إلى مصادرة ديوانه بعد وفاته فى تركيا، ومن الطبيعى أن تصادر معه كل كتابات النديم الأخرى التى كانت لا تزال بحوزته.

سابعا: يشير كاتب سيرة النديم إلى أنه طلب ديوانه الأول والثانى (وبهما نحو سبعة آلاف بيت كما قرر كاتب السيرة نفسه) «ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما لأن فيهما هجوما كثيرا(١٢)، وإن كنت أشك فى هذه المقولة ، إذ كان كتاب «المسامير» أولى بالإحراق لما فيه من هجاء مقذع شعرا ونثرا، وكان النديم شديد الحرص على نشره، فاستطاع تهريب الجزء

الأول إلى مصر، ويبدو أنه لم يستطع ذلك فى الجزءين التاليين اللذين ربما تمت مصادرتهما مع بقية مؤلفاته فى تركيا.

وإذا تأملنا فى عدد مؤلفات النديم الذى ذكره مؤرخ سيرته أحمد سمير وهو مائة، هالنا الرقم ونسبناه إلى المبالغة، ولكننا إذا أدركنا أن كل رسالة مهما تكن قصيرة تعد مؤلفا، أصبح الرقم مقبولا، على الرغم من أن النديم كان يحاول أن يجمع المتشابه من الرسائل ليجعله كتابا مثلما فعل فيما أسماه (رياض الرسائل وحياض الوسائل)[١٣]، ويبدو أن عددا كبيرا من مؤلفات النديم التى ضاعت قد ضاع معها حتى عنوانها ، إذ يبلغ مجموع العناوين التى وصلت إلينا من مؤلفات النديم أربعة وستين، ما بين كتاب ورسالة، فكأن ما غاب عنا مضمونا وعنوانا يبلغ ستة وثلاثين وقد بذل على الحديدى جهدا - فى حدود الإمكانات المتاحة - لتصنيف مؤلفات النديم تصنيفا تاريخيا حسب مراحل حياته التى تدعو ظروفها إلى تقسيمها ست مراحل. ويبدو أن التصنيف الموضوعى لهذه المؤلفات كان عسيرا لافتقادنا وصفا مفصلا لما تتضمنه، إذ لايكفى العنوان وحده فى الدلالة على الموضوع . كما أن على الحديدى لم يدقق فى مادة الكتب أويهتم بمضامينها.

وسوف نحاول - قدر الإمكان - التعريف بالتراث الفكرى لعبد الله النديم فى إطار المراحل الست التى أجرى عليهاعلى الحديدى تقسيم المؤلفات[١٤] .

المرحلة الأولى: منذ نشأته حتى عام ١٨٧٨: وهى الفترة التى شهدت صباه فى الاسكندرية ثم عمله فى القاهرة والمنصورة وهى تقف عند بلوغه سن الخامسة والثلاثين. وهى أطول المراحل زمنا إذ تنطوى على فترة التحصيل العلمى والاحتكاك بعلماء العصر وأدبائه واكتساب المعارف منهم، كما تضم الفترة الأولى فى الإبداع والنضج الأدبى. وقد جمع فيها النديم أشعاره فى ديوانين يضمان نحو سبعة آلاف بيت وقد فقدا، ولكن ما بقى من شعره يدل

دلالة واضحة على أنه كان شاعرا مطبوعا واسع الإطلاع كثير الحفظ غزير الإنتاج، فهو ينظم الشعر فى كثير من الأغراض وفى مختلف المناسبات، ويستشهد به سواء أكان من نظمه أم من محفوظه فى وسائله وخطبه ومقالاته ورواياته ومقاماته ومذكراته، فقد كان للشعر فى كل أثر من آثاره مكان ظاهر يكشف عن موهبة أصيلةِ وطاقة شعرية كبيرة»(١٥).

كذلك ألف النديم فى تلك الفترة مجموعة كبيرة من الرسائل الأدبية التى كان قد بدأ كتابتها منذ الصبا وقد فقدت هذه الرسائل ولم يبق منها غير ست عشرة رسالة استطاع أن يجمعها شقيقه عبد الفتاح فى كتابه (سلافة النديم) وهذه الرسائل وهى كما يأتى :

١- لواء النصر فى أدباء العصر : ويبدو أنها أقدم رسائله إذ كتبها عام ١٢٧٧هـ/١٨٥٩م وعمره ستة عشر عاما وكان لايزال متأثرا بطريقة السامعين فى الكتابة وهو يقدم لها بطريقة التحميد فى الرسائل القديمة ثم ينتقل للحديث عن أسواق الأدب فى مصر المحروسة وينصر النقل على العقل فهو يقول: (ومن اعتمد على العقل وأزدرى النقل ذله) وينتقد الحياة الأدبية فى مصر (يتقدم الوضيع ويتأخر الشريف) ويشيد بذكر أحمد وهبى (لسان العرب ومعين الأدب، عريق النسب، طاهر الأخلاق، روض البيان ، ثبت الجَنان) ثم يعود لنقد الحياة الأدبية فى مصر قائلا (وحالنا اليوم تزييف الصناعة وطلب المحال.. وقد كثرت تجارة هذه البضاعة فى كل سوق.. فهجرت الناس هؤلاء الباعة ومالوا إلى الفسوق مثل المشترى، ثم يشيد بذكر صديقه عبد العزيز بك حافظ الواله بالجود، حسن الخلق والخلق، محب الصواب والحق) وكذلك يشيد بالسيد على أبى النصر (إمام كبير، حافظ خبير، ليس له نظير.. نظمه نظم اللآلى ، ونجمه بدر العالى.. وحليه الذوق السليم، والطبع القديم، يقول الزجل على عجل، بلا وجل، بأفصح لسان، وبالسجع يداوى الصدع، ويشفى السمع بأوضح بيان

وثالث من أشاد بهم محمود صفوت الساعاتي (روض البديع وثمرة أفنانه، مجلي عرائس الأبكار في حضور الأفكار.. الذي طلع في سماء المعارف شمسا، وطاب برقائق الأقوال نفسا) أما رابع الأدباء فهو محمود سامي البارودي (الشاب الذي غرس غصن القريض فأثمر، وأطلع هلال البديع فأقمر.. من رق حتى استعبد حر الكلام، عفي حتى تشربته قلوب الكرام) ورابع الأدباء في هذ الرسالة الشيخ أحمد الزرقاني (بستان الكلام وعنوان الكرام.. الفاضل الذي ألفته اللغة العربية، وعرفته المعاني الأدبية. ثم يأتي بعده ذكرمحمد بك سعيد ابن جعفر باشا مظهر (الأمير الذي دعا الأدب فلباه، وساسه حتى رباه.. نظم من المباني أرقها، ومن المعاني أدقها، الشاعر الناثر، المجيد الماهر). ثم يأتي ذكر عبد الله فكري (واحد الدنيا، وممتطي العليا).

ويرى النديم أن الأدباء الذين أشاد بهم (هم تجار البيان، ونبلاء الزمان، لاتنشر الرقائق إلا عنهم، ولاتقتبس المعارف إلا منهم، ومن عداهم رعاع، ولم يضيء لهم شعاع)(١٦).

٢- التنور المسجور: وهي من آثار الصبا أيضا وقد عقدها للمفاخرة بين السفينة والوابور، وهو يقدم لها بمقدمة طويلة يصف فيها رسالته بأنها (فكاهة نفوس، وزينة طروس، هذلها أدب، وجدها طرب،) ثم يمضي خياله فيقول إنه رأى السفينة والوابور قد جلسا يوما للمناظرة والفخر، (فشمرت السفينة عن الذراع ، وسحبت طرفها ونشرت الشراع. ثم بدأت في إذاعة مفاخرها (إن شكلي أول غريب ابتداع، وأحسن عظيم اخترع، ما تقدمني سوى الحيوان والكواكب، وضروريات الزرع وبعض آلات المعاطب، وكان البحر قبلي ظلمة ما طلع لها فجر، ولا انشرح لها صدر، وبعد أن أفاضت السفينة في ذكر محاسنها وأمجاد تاريخها (التهبت أحشاء الوابور بفحم الحجر، وصعدت أنفاسه مشوبة بشرر وزمجر وكفر، وصاح وصفر، وجرى حتى خرج عن

الشريط وقال، السكوت على هذه من التفريط، ثم بدأ فى الحديث عن نفسه مهاجما السفينة بقوله : (ما كنت أظن أن السفينة ، الحقيرة المسكينة، تخرج من الأجراف، وترفع فى وجهى المجداف.. فإنك وإن كنت أول عمل للخلق، وصناعة بنى بوجهه الحق، إلا إنك حمالة الحطب، قريبة العطب، إن هبت عليك نسمات ، هلك من فيك ومات. ولم تسكت السفينة إزاء تحدى الوابور فردت قائلة: مهلا يا أبا لهب فقد خرجت عن الأدب) وظلت تقارن بينه وبينها لتنسب إليه كل رذيلة ولنفسها كل فضيلة بما ينبىء عن سعة خيال النديم وإدراكه الواعى لكل ما يقع فى السفن أو القطارات من مشكلات وما فيها جميعا من محاسن. وقد التزم النديم فيها السجع مع توظيف فنون شتى من البديع واتسمت الرسالة بروحه الساخرة الناقدة[١٧] .

٣- طالع الكرامة بحسن السلامة:

كتب هذه الرسالة إلى أستاذه الشيخ محمد العشرى يهنئه فيها بسلامته عن حادثة وقعت له، فهى رسالة إخوانية يمزج فيها الشعر بالنثر المسجوع، يقول فيها (أستاذى وقدوتى وعين بشرى، وملاذى وعمدتى محمد العشرى.. بيت فأحسنت ، وغذيت فأسمنت..

غلامك الشهير بالنديم　　　من صار فى البيان كالنسيم[١٨]

٤- نار الغدو وثار العدو:

كتبها إلى صديقه عبد العزيز حافظ حينما رآه يجتمع بجماعة من المغاربة ويمارسون خرافات باطلة وقد بدأها بقوله (لاحول ولاقوة إلا بالله، اشتبه المراقب باللاه، واستبدل الحلو بالمر[١٩]، وقدم الرقيق على الحر، وبيع الدر بالخزف) وقد أسرف النديم فى استخدام البديع فى هذه الرسالة وخاصة الجناس والمطابقة، كما وظف الآيات القرآنية فى نسيج الرسالة كما نرى فى قوله (وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه

مزدجر، عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون، فلما أحسنا بأسنا إذا هم منها يركضون، فقابلوهم بنبال الطرد فى الأعناق، حتي إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق(٢٠) وهو نوع من الاقتباس النادر الذى يدل على تمثل النديم القوى للآيات القرآنية وقدرته على توظيفها فى مكانها الصحيح فى نسيج كلامه.

٥- استعطاف المقرر قلب المحرر:

وهى رسالة مكتوبة عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م وجهها إلى الشيخ أحمد عبد الرحيم محرر الوقائع المصرية والدافع إليها أن النديم كان قد نظم قصيدة فى وصف أفراح أنجال الخديو إسماعيل وتقع فى مائة بيت وخمسة ومطلعها:

بيت السعادة يطلع الأفراح ... دامت سلالته غذا الأرواح

وكان من الطبيعى أن يؤرخ فى قصيدته لهذه الأرواح كعادة الشعراء المقلدين فى عصره فكان تأريخه محصورا فى شطرة واحدة هى قوله (نور الخديوى أدوم الأفراح) وقد أرسل القصيدة إلى محرر الوقائع لنشرها ولكنه لم ينشر منها غير سبعة أبيات بوقيعة من حاسد ثم فرق المحرر أصل القصيدة فغضب النديم وكتب هذه الرسالة العاتبة الغاضبة قائلا فيها: وما على النديم إذا وقف ببابه ، كباقى الشعراء، وعرض على رحابه تهنئة الأمراء، أظنه يحظى بمشاهدة جلاله، ويتروح بتلك البدائع، ويذكر فى طبقة أمثاله، ضمن صحف الوقائع. وكنت قد أرسلتها بجملتها إلى ناديك، لتنشرها ، فأضم هذه اليد إلى أياديك ، وأشكرها ، ولكن خاب الأمل بتعرض الحاسد المتشاعر، فقل ماالعمل أيها الواحد فإنك آمر، لا أرى سبيلا للوصول غير العناب فقد ضاعت الأصول وأغلق الباب»(٢١).

٦- دور النحله وغرر الرحله:

وهى رسالة إخوانية كتبها من الإسكندرية إلى صديقه الأديب أحمد وهبى

يصف فيها رحلته بالقطار من القاهرة إلى الإسكندرية فى شهر رمضان فى وقت العصر وتاريخ الرسالة حسب إشارة وردت فيها عام ١٢٩١هـ - ١٨٧٤م. ويبرز النديم فيها ثقافته العربية التراثية فيقول فما ندرى أهو النعمان يدم عبوسه، أم الحجاج يمر على حبوسه، أم عنتره الذى يكر على آسر عبله، أم الكسعى يشفع قوسه ينبله، أم جبان رأى الصمصامة فى يد عمرو أم سياف صدر له من الخليفة أمر). وهو لا يكتفى بوصف القطار نثرا بل يصفه شعرا فيقول :

نظر الحكيم صفاته فتحيرا	شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله	بحديد قلب باللهيب يشعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده	وجدا فيجرى فى النضاء تسترا

ثم يصف قدومه إلى الإسكندرية بما يدل على شدة شوقه إليها، يقول (حتى شممت الشذى العنبرى، من النسيم السكندرى، فتحركت الأعضاء واضطربت ، وأحست النفس بالسرور وطربت.. فإنها نزهة نفسى ومركز أنسى (وأول أرض من جسمى ترابها).

ويشير النديم فى الرسالة إلى كساد الأدب فى القاهرة، يقول (فوجدهم يسمون شقشقة اللسان عنوان البيان، ويرون البلاغة والفصاحة فى الهجاء، والوقاحة، ويعدون الغلط الشفيع من أنواع البديع)[٢٢].

٧- حفظ الودائع لدرر البدائع :

وهى رسالة إخوانية لاندرى لمن كتبها وإن كان محرر السلافة ذكر أنها رد على كتاب وصل من هذا الصديق، وهى تتخذ شكل المقامة من حيث أسلوب النص والتزام السجع وتكلف بألوان كثيرة من البديع وتضمنها بعض الأشعار، منها قوله (فرأيت الصبح قد تقنع بقناع أحمر، وتحلى بنفيس الدر والجوهر،

والنسيم قد زادت دقته، وازدانت زقته، والنور قد كشف اللثام عن وجه النهار والروض شاكل السماء بتفتح الأزهار،.) وبعد أن يمعن النديم فى وصف الطبيعة الجميلة التى يعشقها، أخذ يصف كتاب صديقه قائلا «سكرت من سلاف معانيه رشفا، وقرأت ما فيه حرفا ، فإذا هو سفير عن فؤاد ودود، وترجمان عن ضمير غنى عنى الشهود.الخ» [٢٣]

٨- تنبيه اللبيب وتسلية الحبيب :

وهذه رسالة إخوانية أخرى كتبها إلى صديقه عبد العزيز حافظ، عند فصله من وظيفته فى تفتيش السكة الحديدية، وبلوغه أن صديقه سعد بعذا الفصل الذى أراحه من المكابدة والعناء ولهذا يقول له ((وإنك وإن كرهت التفتيش ونفضته وأبيت المرور ورفضته وسمعت من إخوانك ما تقرك، وعلمت أن القدر قدم غيرك وأخرك، فلا تنكر مقدمات الأمور و امتحانات الدهور ، وركوب المشاق لبلوغ الأدب، واستغراب الصبر لتفريج الكرب»[٢٤].

٩، ١١- رسالتان إخوانيتان بلا عنوان، كتب الأولى على لسان السيد عبد الواحد الحريرى شيخ الطريقة العنانية إلى بدوى شعير لما بلغه أنه فصل من وظيفته وفيها يقول (وأما ما تركتها فقد كانت صغيرة ، والأسف على فوتها كبيرة، فحركة إدارتك منها أسنى، والأنس بالأهل أشهر وأهنا)[٢٥] وكتب الأخرى على لسان الشيخ أحمد الإسكندرى إلى محمد فتح الباب لشكره على جميل صنيعه[٢٩].

١٠- دفع العرام بذل الغرام:

رسالة إخوانية كتبها إلى صديقه عبد العزيز حافظ معاتبا وهو يوظف فيها صورة البحرليصف حاله بعد ما سمع من صديقه ما يؤذيه فهو يقول : بينما أنا راكب لجة بحر الفكر، مجد فى طلب فريدة بكر، تارة أغوص ومرة أسبح، وآونة أقف وطورا أصفح، لايقر لى قرار، ولايمكننى الفرار، لايقصرعن طرح

شباكى ذراع، ولا يطوى لسفينتى شراع، كلما أدركنى الأمل، هاجت على رياح الأمل، حتى دخلت فى بحر عجاج، متلاطم الأمواج»[٢٨].

١٢- نجوم الليالى فى عقود اللآلى :

وهى رسالة موجهة فى محمد باشا سيد أحمد وابنه حسين بك حسنى فى نصفها الأول، ووصفية فى نصفها الثانى إذ يصف فيها مالديهما من قصور وبساتين. ويعود فى هذه الرسالة البلغاء من القدماء الذين يعجز المحدثون عن إدراك شأوهم يقول « ألا ترى أنا قطعنا باليأس من عودة فطنة إياس، ولوينا أعنة الجياد عن معرفة ذكاء زياد، وقطع علينا ثعبان طريق فطب سبحان، وهدمنا كل فائدة ، من بلاغة زائدة، وتكدر كل حى ، بموت حاتم طى، ومات منا مدنف، بطلب حلم وعدمنا الحظ ونقله، بذهاب ابن مقله، وفاتنا الإنشاء البليغ المفيد بموت ابن العميد وعبد الحميد، وتفتت فى طلب الأدب الأكباد، فلم تدرك الفتح ولا الصاحب بن عباد وقد حرنا حيرة المديون، في معارضة رسالة ابن زيدون، وأسف كل الملأ على حفظ أبى العلا، وقبضنا فى شرف الأنفس الحمر، طمعا فى هيبة أبى عمرو ، وكم أصبحت الفرسان بعقل ضرب، من الفكر فى شجاعة أبن معد يكرب، عجزنا عن القول المنبى، من حكم وأمثال المتنبى أما بساتين الممدوح فقد «تحلت بأزهار أبهى من الأقمار، وأقمار تنهب الأعمار، وغصون يلاعبها النسيم، فتقبله بثغر بسيم. إن غصب مالت تقبل قدمه، وإن سكن قامت تشابه خدمه، تارة يغنى فتميل طربا، وساعة يهيج فتثور هربا، وأنها البلابل مأمنا فاتخذتها مسكنا»[٢٨]

١٣، ١٥، ١٦ - ثلاث رسائل إخوانية لاتحمل عناوين:

كتب الأولى إلى صديقين عاتباه لانقطاعه عن الكتابة إليهما وفيهايحكى طرفا من سيرة حياته وصفاته فى تلك المرحلة عندما كان فى «بدواى» ثم انتقل إلى المنصورة وفيها يقول« روى الوله بن الولوع، عن الساكن بين الضلوع، أنه

استخدم الناظر والإنسان فى نقد كل إنسان، واستعمل رجليه فى جوب الأوديه، ويديه فى نقل أحاديث الأندية. فهو جواب سائح، قناص لكل سانح. إن دخل مجلسا فبنزاهه، وإن أبدى بدائع فمن بداهة.. يقطف زهركل فن ، ويقتحم لجة كل فن. ثم مال بزورق السباحة ومطية السياحة إلى بندر المنصورة.. إلا أن الدهر انعدار، لم يرض له قرب الدار ، بل سلك به طريق الغربه، ومنعه من يحب وقربه» ثم يذكر قوما عادوه فأشبعهم هجاء منهم «قلوبهم غلف، وألسنتهم قلف، وصورهم أفظع من صورة نعش، وطباعهم أغلظ من طباع وحش»(٢٩).

والرسالة الثانية كتبها إلى صديق ينعى فيها ضياع معنى الصداقة ويصور فيها ما بنفسه من ضيق فى تلك المرحلة من حياته التى افتقد فيها معنى الصديق فهو يقول «فلاترى فلا تقصده، ولا صديقا ترصده، المحبة عداوة، والصداقة غباوة والطة ذبحا، والحسن قبحا.. وهذا بحرشربته الناس، وتناولته بالجفان لا بالكاس»(٣٠).

والرسالة الثالثة قصيرة متعجلة كتب بها إلى صديق فى المنصورة يمدحه يهون عليه سوء حظه فهو يقول له «كلامك كله معان تؤثر، ولكنك كسرٌ لم يشهر، أو كنز لم يفتح بابه، أو طلسم ماتت أربابه، وإلا فلو أنصفت لأخذ المتنبى بركابك، واندرج ابن عباد فى خدمة بابك فحسبك من الحظ ما قام به لسانك، وابتهج برؤية لآلئه إنسانك، أقول ذلك تسلية لقدرك، وجلاء لصدرك»(٣١).

١٤- الساق على الساق فى مكابدة المشاق :

وهى رسالة ذاتية - برغم إرسالها إلى صديق- لأن النديم فيها يكشف عن بعض ما عانى فى الفترة الأولى من حياته من قسوة الدهر ، وضياع أهل الأدب، بعد أن كسدت سوقه وخمدت ريحه يقول: «حتى أدرك الحظوظ وهى سابقة، وكيف أجارى الخطوب وهى لاحقة، وأين السرور فقد أعيانى الطلب،ومن لى بالنصر على الهم وقد فاز بالغلب، تا الله إن الشجاع فى هذا المضمار

جبان، وقل أن يفوز مقتحمه بأمان» .

ويسترسل النديم فى ذم الزمان الذى انقلبت فيه الموازين،(من سارع إلى الخيرات هلك، ومن تدرع بالمضرات ملك، ومن اشتغل بالعرف باد، ومن استعمل العنف ساد، ثم نعى على الآداب ضيعتها فى هذا الزمن الفاسد بأبيات من الشعر يقول: فيها:

أى فضل لحـــرفة الآداب	بعد سلبى لحكمة الألباب
قمت فيكم بكل زور خطيبا	وصلت السيف كاشر الأناب
فاتبتعتم وقادكم من بديعى	حسن قولى يزف بالإرهاب
ليت شعرى إذا شللتم بقول	كيف نلتم مفاتح الأبواب
كل أمر يراد دون سبيل	لارتقاه فذاك عين شباب..الخ(٣٢)

وقد اختار عبد الله النديم مجموعة من رسائله ضمنها كتابه الذى سماه (رياض الرسائل وحياض الوسائل) وهذه المجموعة تختلف عن سابقتها التى اتسمت بأنها مدينية . ولكنها تتفق مع سابقتها فى أسلوبها التقليدى المسجوع الذى يتضح حتى فى عناوينها، كما تتفق فى إقبال النديم علي توظيف فنون البديع وإبراز المعرفة التراثية والإحاطة الواسعة بالقرآن الكريم و بعلوم العربية والمعارف الدينية أما الرسائل الدينية فتضم ما يأتى :

الستر المسدول فى دلالة الإنجيل على الرسول

الحصون المنيعة فى الرد على أهل الطبيعة

الفكرة المطيعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة

الأبكار البديعة فى الرد على المعتزلة والشيعة

وأما الرسائل البلاغية فنجد منها:

السهم السريع فيما تضمنت (وقيل يا أرض) من البديع

إخراج الوديع من الظرف فى أن المعجز النسق لا العرف

وأما الرسائل الاجتماعية فمنها:

تطهير الأذواق فى حميد الصفات والأخلاق

الشنه ورنه فى أولاد مصر الزنة

الشجرة الغشاشة فى أولاد مصر الحشاشة

شد الدبلاق فى أكتاب أهل بولاق

حاورينى يا طيطه فى الطربوش والبرنيطه

محبة السلامه لملابس العمامه

ولم يبق من هذا الكتاب غير مقدمته[٣٣] ورسالتين هما : زند الأذهان، وزبد الإدهان وحوض الخمر وخوض الجمر، والرسالة الأولى تشبه مقامة خمرية، ويمتزج فيها الشعر بالنثر، يقول (ومقله ماهى إلا حظة حتى أدار لحظه، وأخذت الكاس هواس الراس، ولعبت الراح بالأرواح، وبعد نثر وأبيات أسأله فيها عن اسمه آخرها:

يا غافلا إن الذى   فى حبكن راعى الغرام

فقلت قد أبنت الاسم وحقيقة الاسم ، فأين الوطن يا فطن، فأنشد وغرد: وطنى وردد:

قلبى الكمى وصدره   هو سكنى وبه المقام

حتى إذا ما شمته   حل به قوام كرام[٣٤]

وأما الرسالة الثانية فأسلوبها قصصى كذلك، وفيها جانب ذاتى يعرض لنا

فيه حبه للترحال ويدهشنا بمعارفه عن البلاد الخارجية في عصره يقول عن نفسه (فهو كالكركي، تارة شامي ومرة تركي، وآونة مصرى وأخرى بصرى، لايحرم من القفار نيلها ولا من الأهار نيلها. ولايفوته خير سيحون، وفضل قوله تعالى السائحون.. ورأى الطائف وكرومه وغرابة كنيسة روما، وتمتع بالأنيسة والأنيس، من ظباء وغواني باريس. ونظر كل إقليم وبندره، وتحقق حسن صنائع لندره. وسمع الصبا والعراق من أغاني العراق وعلم أن أحسن ما يكون الفرند من صنعة حذاق الهند، فإن شام بر الشام، ورام رياضه ودخل غياضه وتنزه في دوره تمتع ببدوره، اتخذه جنه، وقال هو الجنه، وتارة يطلب النجاز بأرض الحجاز، وفارسا لفارس، مع صناديد فارس ، ويعقد إيمانه ودينه، بزيارة ساكن المدينة.. ويرى ما بأرض الحبش من أفعى وحنش، ونازى ومحريب، وتيزى وعرديب[٣٥].. فإن نظر من الجنوب بريقا وتوجه إلى أمريكا، وتفرج على صنائعها وما يظهر من ودائعها علم أنها الدنيا..[٣٦].

ومن أهم آثاره التى فقدت وكانت من نتاج هذه المرحلة ديوان زجله الأول.

المرحلة الثانية من ١٨٧٩ إلى ١٨٨١م :

وهذه المرحلة يطلق عليها بعض الباحثين اسم مرحلة الإصلاح الاجتماعى والسياسى وبدايتها أى سنة ١٨٧٩ شهدت عودة عبد الله النديم إلى مسقط رأسه الإسكندرية ويقول مؤرخ سيرة حياته (وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو ليستضىء بها الوجود المصرى[٣٧] وقد اتصل بجمعية مصر الفتاة التى كانت سرية فى بدء نشأتها وفكر فى تأسيس جمعية جديدة علنية تسعى لخير الوطن، هى التى عرفت باسم الجمعية الخيرية الإسلامية وكان ذلك فى أواخر عصر الخديوى اسماعيل التى شهدت ذروة الاستبداد والاضطراب. ولم يكن هدف الجمعية سياسيا، بل سعت إلى بث روح المعارف وترقية الأفكار وتهذيب الأخلاق، وأسست مدرستها الأولى التى كان يدرس فيها عبد الله النديم

الإنشاء وعلوم الأدب، وكان يدرب الطلاب على الخطابة والمناظرة، ثم وجد وسيلة أخرى لتدريبهم على الإلقاء عن طريق كتابة تمثيلية حوارية يؤدون فيها أدوار الشخصيات فألف مسرحية (الوطن) و(العرب) ومثلهما تلامذته فى (تياتروزيزينا)(٣٨) ولم يبق من نصوص هاتين المسرحيتين غير شذرة من رواية (الوطن) ثبتة فى الجزء من سلافة النديم(٣٩) وواضح فى المسرحيتين الاتجاه التعليمى، وصدق صاحب السلامة فى قوله عن رواية الأرض «الغرض منها الحث على التعاون لإنشاء المدارس العلمية والصناعية»(٤٠).

وفى تلك الفترة نفسها سجل النديم تأثر الجمعية الخيرية الإسلامية التى أنشأها فى بحث بعنوان آثار الإنسانية فى تاريخ الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد فقد هذا البحث ومن أهم اثار النديم التأليفية فى تلك المرحلة إصداره لصحيفة (التنكيت والتبكيت) بدءا من ٦ يونيو عام ١٨٨١ وقد صدق عبد العظيم رمضان فى وصفه لها بأنها (جريدة نقدية تحمل على الحكام والأجانب وتنقد أوضاع المجتمع المصرى وتدافع عن مصر وشعبها وأمنها ودينها)(٤١). ويصفها النديم نفسه فى افتتاحية العدد الأول بقوله «إنما هى صحيفة أدبية تهذيبية تتلو عليك كلما وأدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات بلغة سهلة لايحتقرها العالم ولايحتاج معها الجاهل إلى تفسير»(٤٢).

وقد قسم عبد المنعم الجميعى مقالات النديم فى هذه الجريدة ثلاثة أقسام رئيسة :

الأولى : فى نقد تصرفات الحكام والأجانب وتذكير المصريين بأمجادهم ودعوتهم للتصدى للعادات والتقاليد الوافدة من أوروبا إلى المجتمعات الشرقية وإيضاح مثالبها ويتضمن هذا القسم مقالات (مجلس طبى على مصاب بالافرنجى) و(الذئاب حول الأسد) و(عربى تفرنج) وفى المقال الأول يصور بأسلوب رمزى الأضرار التى لحقت بمصر من جراء تصرفات الخديو اسماعيل

بما حملها من ديون أوقعتها في براثن الأجانب. فقد صور مصر بشخص صحيح البنية قوى الأعصاب جميل الصورة، لطيف الشكل، تسلل إليه أحد المضللين (ويقصد الأجانب) وأوقعه فى وادى الرذيلة حتى اصفر وجهه وارتخت أعضاؤه وذهبت بهجته واستولى عليه المرض. ثم أكد النديم أن علاج هذا المريض ينبغى أن يكون محليا، فهو يقول على لسان المريض (أعالج نفسى بحشائش تربتى وعقاقير أرضى من يد أطباء بلادى وصيادلة ديارى.(٤٣).

وفى المقال الثانى يصور النديم أمجاد مصر فى العهود القديمة ويقارنها بحاضرها المتدهور فشبهها فى صورة الأسد الذى يكتب تاريخه وهو(كاسف البال باكى العين متغير اللون) لتغلب الوحوش وصغار الحيوان عليه(٤٤).

وفى المقال الثالث يتحدث عن فلاح شاب اسمه (زعيط) أرسلته الحكومة إلى أوروبا لتلقى العلم، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى بلاده متفرنجا متبرما بعادات قومه وأخلاقهم، وقد وصفه النديم بأنه لم يتهذب صغيرا، ولم يعرف حقوق وطنه، ولا حق لغته، ولا قرأ شرف أمته، وأنه لئيم جاهل بحق الوطن.

الثانية: موضوعات حملت على أوضاع المجتمع المصرى الفاسدة وما يتخللها من خرافات وأوهام ومن أهم المقالات فى هذا القسم: (خذ من عبد الله واتكل على الله) و(أماتك من أسلمك للجهالة) و(شيخ زفتى أو جاهلها) و(تخريفة الجنون فنون) و(حديث خرافة) (وهف طلع النهار) وغفلة التقليد).

وفى هذه المقالات تعرض النديم للشعوذة والمشعوذين، وأساليب الاحتيال والكذب، والندب والصراخ خلف الميت وزيارة المقابر والزار وغير ذلك من البدع التى لا تتفق مع أصول الدين ولا مع شعب متحضر ، كما هاجم الإسراف والتبذير والتواكل والجهل والتمسك بالعادات البالية . وقد صاغ معظم مقالاته بأسلوب قصصى قوى الدلالة على ما أراد الوصول إليه من نبذ الجهالات والخرافات: وكانت تجاربه الشخصية مصدرا ثريا لما يحكيه فقد روى أنه بعد

دعوته لإنشاء المدارس فى أثناء تجواله بزفتى وميت غمر خرج رجل يدعى أنه من أهل العلم، فكان يمر فى الطرقات والمجامع ويقول (المدارس من محدثات الأمور، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار)، ثم أخذ يخوف الناس من المدارس قائلا (إنها تزيع العقائد وتفسد الأخلاق ، فتبعه خلق كثيرون من أوباش زفتى ورعاعها يؤيدون قوله وينشرون مفترياته)(٤٥).

الثالثة: موضوعات يدافع فيها عن مصر الوطن وشعبها واللغة العربية والإسلام.

ومن أهم مقالاته فى ذلك (إضاعة اللغة تسليم للذات) و(سيف النصر نحو عدو مصر) و(نبذة من تاريخ الهمام أحمد بك عرابى) و(المحاسن التوفيقية أو تاريخ مصر الفتاة أو زفاف الحرية فى مصر) و(دمية وطنية).

وفى المقال الأول يقف فى وجه الاستعمار واعيا بدوره فى محاولة محاربة اللغة وإشاعة الاستهانة بها، وينتقد أبناء الوطن الذين يتفاخرون باستعمال اللغات الأجنبية وهو يبين لهم ، وينتقد أبناء الوطن الذين يتفاخرون باستعمال اللغات الأجنبية وهو يبين لهم أن اللغة سر الحياة يترجم بها اللسان عن خواطر القلب، والذى يعبر بلغته يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال(٤٦) ولعل لجوءه إلى العامية فى بعض المقالات بأنه يهدف إلى تحويل العامى الجاهل من كراهية الكتب إلى محبتها، ورغبة فى أن يتابع هذا العامى أحوال بلده وفى المقال الثانى يعبر عن انتصار الثورة خلال مظاهرة عابدين وأشاد بقوة الجند المصريين وسعيهم إلى مصلحة الوطن(٤٧).

وأشاد فى المقال الثالث بعرابى قائد الثورة، وأرجع نسب عرابى إلى سيدنا الحسين بن على، وأشار إلى أسباب قيامه بالثورة يرجع إلى أنه أطال النظر فى أعمال الحكام واستبدادهم فأدرك أن الاتجاه من هذا الاستبداد ألا يفتح مجالس الشورى فأجمع مع زملائه على المطالبة بحقوق الأمة(٤٨).

وخصص المقال الرابع للإشادة بالعرابيين الذين ألبسوا الأمة ثوب الحرية(٤٩) وفى المقالة الخامسة فى هذا القسم حذر الشعب من الفرقة وطالبه بالاتحاد وعدم سماع أقوال أهل الأهواء الذين شربوا من دمائنا ولم يرتووا، وأكلوا لحومنا ولم يشبعوا»(٥٠).

وحلل عبد المنعم الجميعى منهج النديم فى مقالاته التى تضمنتها الأعداد الثمانية عشر التى أصدرها من التنكيت والتبكيت(٥١) فقال إن النديم استخدم الأسلوب الرمزى حيث اتخذ من بعض الكائنات غير الإنسانية ستارا لبث أفكاره السياسية والاجتماعية، وأنه صاغ نصائحه فى أسلوب قصصى وفى شكل نوادر جذبت النفوس والعقول لقراءتها، وأنه تناول الموضوعات المتصلة بحياة الإنسان المصرى العادى وكان واقعيا إلى حد كبير فى تناولها مما يدل على شدة ارتباطه بالجمهور ومعرفته الكاملة بآلام الناس وآمالهم(٥٢).

المرحلة الثالثة من ١٨٨١ إلى ١٨٨٢ :

وهى فترة الثورة العرابية التى كان فيها النديم مناضلا وطنيا بخطابته ومقالاته، ويقول الباحثون إن جريدة : (التنكيت والتبكيت) أصبحت لسان حال العرابيين، ولهذا طلب عرابى تغيير اسمها ليصير (لسان حال الأمة)(٥٣). وأن يكون موضوعها سياسيا تهذيبيا للغرب عن حقوق الأمة والمدافعة عنها. وقد أرسل إلى إدارة المطبوعات خطابا لإحداث هذا التغيير قال فيه (لدخولنا فى عصر جديد وفوت زمن التنكيت والتبكيت اقتضى تبديل اسم جريدة التنكيت والتبكيت الأدبية التهذيبية كما استقر الرأى عليه بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله افندى نديم محررها ومدير إدارتها باسم لسان الأمة(٥٤).

ولكن يبدو أن هذا الاسم لم ينل إعجاب النديم فصدرت تحت اسم (الطائف) لتفاؤله بأن هذه الجريدة ستطوف البلدان الإسلامية ، وتيمنا منه ببلدة الطائف فى الحجاز. ويقول النديم عن أسباب تغيير اسم الجريدة (خلصنا من زمن

التنكيت والتبكيت وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق، وهذا الذى قضى علينا بتغيير اسم الجريدة ومشربها فقد صيرناها سياسية سياسة ظاهرة بعد أن كنا ندمجها فى محاورات ودروس تهذيبية، وجعلناها تطالب بحقوق الأمة وتدافع عن حقوق الحكومة(٥٥).

ويرى عبد المنعم الجميعى أن الطائف لا تعد امتدادا للتنكيت والتبكيت لوجود اختلافات بينهما يحصرها فيما يأتى :

١- التنكيت والتبكيت كان يكتب بها مقالات ومحاورات بالعامية بينما لم يحدث ذلك فى الطائف.

٢- التنكيت والتبكيت صدرت أسبوعية بينما الطائف كانت تصدر يومية فى بعض الأوقات.

٣- التنكيت والتبكيت اهتمت بالإصلاح الاجتماعى بينما تفرغت الطائف للحديث عن أمور مصر السياسية والحربية وإن لم تهمل النواحى الاجتماعية(٥٦).

وقد بقى من الطائف عشرون عددا بدار الكتب المصرية غير متتابعة تبدأ من العدد الواحد والأربعين وتنتهى بالعدد الثمانية ، وهى متآكلة فرقها التناول غير صالحة للرجوع إليها وقد صدر العدد الأول منها فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨١ واختفت بهزيمة الثورة العرابية(٥٧).

المرحلة الرابعة من ١٨٨٢ حتى ١٨٩٢ :

وهى مرحلة الاختفاء من عيون السلطات بعد أن صدر الأمر باعتقاله عقب فشل الثورة العرابية. وبرغم عدم استقرار النديم فى مكان بعينه فترة طويلة كانت هذه الفترة خصبة فى إنتاجها التأليفى، فكان النديم نشطا فى إرسال خطابات أدبية إلى بعض الأصدقاء كتلك الرسالة التى كتبها إلى صديق له نزلت

به نازلة فضيقت عليه رزقه وقد بدأها بشعر يقول فيه:

ياصاحبى دع عنك قـول الهـازل	واسمع نصيحة عارف بالحاصل
اجهل تجد صفـو الزمـان فإنـه	من قسمة الندم الغبـى الجاهـل
ودع التعقل بـالتغفـل يسقتـم	أمر المعاش فحظـه للغـافـل
وارض البلادة تغتنم من بابها مالا	وجـاهـا بعـد ذكـر خامـل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضن	بحروب دهر لايميل لفاضل. الخ

ويمضى النديم فى ذم الزمان الذى يلين للجاهل ويقسو على العالم فإذا فرغ من التعبير عن ذلك بالشعر مضى يعبر بالنثر قائلا: «فإن من رزق العقل اكتفى بالفضل»، لا بالمال وضن الحال.. بخ .بخ للأدب، وتعسا تعسا للمال مع سوء المآل . نعم إن مستفعل فعول ليس فيها خل ولا بتول، والفاعل والتمييز غير الذهب الإبريز، والبديع والبيان لا تشترى بها الأطيان.. فلو أتيت الجزار بديوان مهيار، وإشارات الرئيس وموجز ابن نفيس والدر المختار ومفردات ابن البيطار ووسائل الابتهاج ومخترعات ابن الحجاج، ومعاهد التنصيص. والتهذيب والتلخيص ومعجم الميدانى وأجزاء الأغانى، والبحر والغنية والهداية والقضية، وما يتبعها من كتب العلوم والحدود والرسوم وبعته ذلك برأس عجل. أو كارع رجل، لرأى أنه المغبون ، إذ باع اللحم بالفنون(٥٨).

وقد كتب الكثيرون من القراء إلى النديم يطلبون إليه – عند إصداره مجلة الأستاذ– إعادة ما كتبه أيام الاختفاء، فكتب فى ذلك مذكرات قصيرة تحكى بعض نوادر أيام الاختفاء(٥٩) ويقول فى مذكراته التى ضمنها لرسائله (وما اختار الله تعالى للمصائب إلا الرجال، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلى الجبال، والشدة إن صوتت بجلجلها، وحلت بكلكلها، ماذا عسى أن يكون مما تتخيله الظنون، أليس الأمر يرجع إلى موت أو حياة، وهذان لايملكهما إلا الله) ثم يقول

في الرسالة نفسها واصفا ما كان فيه من نشاط الكتابة افتراني فكرى كليمى وقلمى نديمى، استورعه ما فى الصدور، فى حفظه فى السطور ثم يرده علي كتابا لم يجمع إلا صوابا فأعود إليه بالنظر لترويح الفكر، فتارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم به الله المنة وحينا أشتغل بنظم فرائد فى سورة قصائد، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة فى فنون مختلفة وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك، وزمنا أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأضرابه، وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير، فانظر إلى آثار رحمة اللطيف الخبير، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة، أتراني كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم)[٦٠].
وهذه الكتب العشرون التي أشار إليها النديم قد فقدت جميعها ما عدا كتابه (كان ويكون) وهى – كما أشار تفصيلا – فى موضوعات شتى : ففى التصوف والسلوك والدراسات الإسلامية والبلاغة.

نجد له : السانحة فى علوم الفاتحة، الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات – طهارة القلوب والأفواه فى شرح لا إله إلا الله – حلة الأنوار لمادح المختار – سيفالموحد فى نحر الملحد– مأتم البكى فى آل النبى – صرف الوصمة عن حرف العصمة – وفد البديع على باب الشفيع – ترصيع الماس فى خير الناس. وقد أوضح النديم أن الكتاب الأخير إنما هو ديوان شعر فى المديح النبوى) قاله فى أيام الاختفاء وهو يزيد على عشرة آلاف بيت[٦١].

وأورد قصيدة منه بعنوان (شكوى النديم إلى جده العظيم) يقول فيها :

ملك الحسن دولة العشاق   بعد حرق القلوب بالأشواق

أرسل التيه للتصبر جندا   أنزل الدمع من حصون المآقى

صال بالقد والعيون رماة ترسل السهم في كمين العناق

والهوى صارع الفؤاد فلما عزه جره سن الأطواق.. الخ

أما في سير الأخبار والملوك فنجد له السكر والنبات في تربية البنين والبنات – الفرائد نحن وأنتم – إنقاذ البليد من ورطة التقليد.

وفي السيرة الذاتية والوطنية كتب: الاحتفاء في الاختفاء– النحلة في الرحلة – وطنية الشرق. وهذا العنوان الأخير قد يكون هو نفسه قصيدته المسماة بهذا الاسم التي يقول في مطلعها:

بكل حروف الدهر يمتحن الحر وفوق حبال العزم ينهمر الغمر

بل أرجح أن القصيدة هي المقصودة بعنوان (وطنية الشرق) إذ يقول النديم عنها (وهي ثلاثمائة ونيف وستون بيتا أخلصت فيها النصح للشرقيين على اختلاف الجنس والدين)[٦٣].

وإذا كنت قد أثبت أن أحد العناوين العشرين لما ألفه في فترة الاختفاء إنما هو ديوان شعر، وآخر ليس إلا قصيدة، فإني أبدي شكي في أن بعض العناوين الأخرى ليست إلا أشعارا، والذي يجعلني أميل إلى هذا القول ملاحظتي أن النديم في فترة الاختفاء كان كذلك[٦٤] . ونجد له قصيدة في مدح عبد القادر الجيلاني مطلعها:

طاف النديم بكاسه في الحان ومشى يزف البكر بالألحان[٦٥]

وأخرى في مدح آل البيت وخاصة (الجد الأعلى كما يسميه) على بن أبي طالب ومطلعها

أصالة المجد تأصيل لآل على ووصلة الفضل توصيل لكل على[٦٦]

وأما الكتاب العشرون الباقي من تأليف مرحلة الاختفاء فاسمه (كان

ويكون)[٦٨] ويؤكد عبد الفتاح النديم أنه أحد الكتب العشرين ويقول في مقدمة الكتاب ما يفيد وجود ستة كتب في فترة الاختفاء (تحت الاتمام) ولكنه لم يبين لنا طبيعة هذه الكتب ولا عناوينها، ثم يقول (وابتدأنا بكان ويكون لكونه تاريخا أدبيا عاما، وهو جزءان ضخمان) ويقول علي الحديدي إنه ثلاثة أجزاء، طبع من الجزء الأول ٢٠٦ صفحة والباقي ٦٤ صفحة فقدت ، والجزء الثاني فقد والثالث عثر عليه محمد أحمد خلف الله في دار الكتب وطبعه عام ١٩٥٦ تحت عنوان (عبد الله النديم ومذكراته السياسية) ثم نرى الحديدي يجعله مستقلا عن الكتب العشرين وليس هذا بصحيح.

ولو عدنا إلى مقدمة النديم نفسه التي صدر بها كتابه لوجدناه يقول (سميته كان ويكون وقدمته خدمة للأمم الشرقية على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم، وقد ابتدأت الكتابة فيه في الساعة الثامنة من يوم الخميس ٢٨ ربيع الاثني عام ١٣٠٠ هجرية الموافق ٨ مارس عام ١٨٨٣ ميلادية في قاعة ظلماء بعيدا عن العلماء والكتبيات والجرائد، مختفيا متغيبا عن الجواسيس والعيون من الباحثين على . أطلقته بين القراء في صورة فذلكة دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وأدبية وتاريخية. ولا أرى العصمة فيه، بل أقول إنه قابل للبحث مهيأ للانتقاد، وعرض الاعتراض[٦٨] ويقول علي الحديدي إنه له كتابا ألفه في هذه المرحلة ذاتها بعنوان (كتاب التذكرة العامرة بأحوال السامرة) وأنه مفقود. ويقول عبد المنعم الجميعي إن له كتابا في تلك المرحلة عنوانه (تاريخ مصر في هذا العصر)[٦٩] وهو مفقود أيضا وربما اختلطت مادته بكتابة (كان ويكون .

أما رسائل التي كتبها إلى عرابي في منفاه بسيلان فيذكر علي الحديدي أنها مطبوعة ولم يشر إلى مكان الطبع وتاريخه، ولم أعثر عليها، كما أنها غير موجودة في الثبت البيبلوجرافي الذي نشرته الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية .

المرحلة الخامسة : بين عامى ١٨٩٢ و١٨٩٣

انتهت المرحلة السابقة بالقبض على النديم فى نوفمبر ١٨٩١ وإبعاده إلى يافا وبدأت المرحلة الجديدة من حياته بإصدار الخديو عباس الثانى عفوه عنه والسماح له بالعودة إلى مصر، فعاد إلى وطنه فى ٩ مايو ١٨٩٢، وقد وجد الفرصة سانحة للجهاد من جديد ضد الاستعمار والاستبداد والجهل والخرافة، فأصدر مجلة (الأستاذ) الذى ظهر عددها الأول فى ٢٤ أغسطس ١٨٩٢ وكانت أسبوعية وأوضح النديم سياستها فى مقدمة العدد الأول فوضعها بأنها (خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم لاتتقيد بفن ولا تقتصر على موضوع، فتنشر ما يحسن نشره ويلذ سماعه من المعقول والمنقول مما لا يطعن فى دين ولا يمس شرف شخص ولا يقرب من الأهاجى، ولا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة، أى أنها لاتتكلم فى الإدارات والأعمال والعمال سواء فى ذلك الداخلية والخارجية. وأما فن السياسة من حيث هو فإنه يدخل فى موضوعه العلمى، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمى من الفروع السياسية، وهى مستقلة عما يتعلق بالسياسة الإدارية)[٧٠].

وقد قدم عبد المنعم الجميعى دراسة تحليلية عما كتبه النديم فى الأستاذ التى بلغ عدد صفحات ما صدر من أعدادها ١٠٣٢ صفحة[٧١] فرصد دعوته القوية لنشر التعليم وأنه أداة التقدم والوطنية، ودعا إلى مزج التعليم الدينى بالمدنى (حتى يخرج رجال الدين من إنكماشهم)[٧٢] وانتقد الطرق السائدة فى التعليم داعيا إلى تحديثها، والإفادة من طرق التعليم فى المدارس الأوروبية. ونادى بتعليم البنات، وطالب بإدخال العلوم العصرية فى الأزهر حتى يجارى التطور الحضارى. وكان دائم الدفاع عن اللغة العربية ولهذا كان من أول الداعين إلى إنشاء مجمع اللغة العربية.

كذلك كان للنديم دراسات لغوية مهمة، أخص بالذكر منها مقاله (اللغة

والإنشاء) الذي ناقش فيه الأقوال المختلفة حول معركة أن اللغة اصطلاحية أو توفيقية[٧٣] أما المهمة الاجتماعية للنديم فى مقالاته بمجلة (الأستاذ) فتمثل فى سخريته من البدع السائدة فى المجتمع المصرى كالزار والموالد ومحاكاة الأجانب، وفى هجومه على شيوع الخمر والتصريح بالدعارة وفقدان العدالة الاجتماعية بين الطبقات[٧٤].

وأما المهمة السياسية للنديم فى الأستاذ فقد تعددت وجوهها، بدءا من الدعوة للوحدة الوطنية بين أفراد الأمة ونبذ التعصب وانتهاء بالتنديد بالاحتلال وعملائه.

وينسب للنديم فى تلك المرحلة من حياته كتابة بحث عن آداب رمضان، كان ملحقا يوزع مع مجلة (الأستاذ) ثم نشر مطبوعا مع (كان ويكون) وبحث آخر بعنوان (التحفة السنية بالأفراح الرياضية) وأظن أنه مستل من مجلة (الأستاذ) فقد أشار فى الجزء السابع عشر من السنة الأولى تحت عنوان (أفراح جليلة) إلى أفراح الوزير مصطفى رياض بمناسبة زواج نجله محمود رياض الذى كان محافظا لبورسعيد، ثم أفرد لهذا الموضوع مكانا واسعا فى الجزء الثامن عشر من السنة الأولى تحت عنوان الأفراح الرياضية)، وأعاد الكتابة تحت العنوان نفسه فى الجزء التاسع عشر من السنة الأولى واضعا ما دار فى هذا الحفل وراصدا التهانى التى قيلت شعرا ونثرا[٧٥].

المرحلة السادسة : من ١٨٩٣ إلى ١٨٩٦ :

وهى المرحلة الأخيرة من حياة النديم التى شهدت نفيه إلى تركيا ليكون تحت بصر السلطان وسمعه مع جمال الدين الأفغاني وغيرهما من أصحاب الرأى الناعين على الاستبداد والاحتلال، الغاضبين على السياسة العثمانية، ولا شك فى أن النديم كانت له كتابات فى تلك الفترة شعرية ونثرية : وقد وصل إلى علمنا أنه أعد ديوانا ضخما من الشعر احتجزته السلطات التركية عند وفاته،

وربما كانت معه كتابات أخرى نجهلها، أما كتابه المشهور (المسامير) فقد استطاع أن يبعث بالجزء الأول منه إلى مصر لينشر، ولاندرى إن كان قد أتم أجزاء أخرى صودرت مع بقية تراثه، وعلى أية حال فالكتاب (أو الجزء الأول منه كما هو مدون عليه) يقع فى ثلاث وتسعين صفحة ومكتوب أنه برواية الشريف أبى هاشم عن الشيخ مدين أبى القاسم الشهير بالعارف بالله وقدم له النديم بقوله : الحمد لله المنتقم الجبار، القادر القهار، الخافض الرافع الضار، النافع، تعالى عما يفعله الملحدون، وله الحكم وإليه ترجعون ، ثم الصلاة والسلام على صاحب الحجج البالغة والآيات الصادعة الدامغة، المطهر من الأرجاس، المفضل على كافة الناس، وعلى آله الأبرار وأصحابه المصطفين الأخيار.

أما بعد فقد ظهر الفساد فى البر والبحر، وعم الشقاء بلاد الإسلام فى هذا العصر، فحاق بأهليها العذاب، وتقطعت بهم الأسباب ..وقد استعصت العلة وزاد الطين بله، وذلك لظهور مثير الفتن، ومضرم نيران المحن، وجسم الشقاء المشخص، وكتاب الشقاق الملخص الذى خالف الإجماع وتمرد، حتى :

تبرأ منه الإنس والجن كلهم وعيسى وموسى والخليل وأحمد

ألا وهو المسيخ الدجال المكتنى بأبى الضلال، عنوان المقت، وفضيحة الوقت .. فلما أراد الله أن يفضحه، ويبرز مكنون أمره ويوضحه ، أنعم على بمعرفة الشريف الإدريسى.. فأظهرنى من أمر هذا الزنديق مالم أكن أعلم، وما خفى كان أعظم، ثم أطلعنى فى بعض الليالى على بعض ماله من الأمالى. فإذا بينها كتاب سماه (المسامير) وهو فى قوة تأثير، أحد من المناشير(٧٦).

ويضم الكتاب تسعة مسامير تتخذ شكل المقامة ويعتمد على الإقناع فى الهجاء شعرا ونثرا. فالمسمار الأول فى اجتماع العارف بالله بإبليس طريد الله، والثانى فى سرد قصة إبليس إلى العارف الرئيس، والثالث فى والد الملعون ووقوعه على عمشاء أم معطون، والرابع وقوع وادى الخراط على

عمشاء بنت الضراط، والخامس فى حمل المطعون وماقسته بنت مطعون، والسادس فى نزول الملعون موضعه، وما كان منه أيام رضعه، والسابع فى سبب عناية إبليس بابن صياد التعيس، والثامن فى إيراد إبليس البرهان على وحدانية الرحمن، والتاسع تفريق إبليس مجتمع الإسلام بدس الشبه والأوهام .

وواضح أن النديم فى هذا الكتاب يعبر عن كراهية شديدة لأبى الهدى الصيادى الذى استطاع أن يسير على السلطان ويوجد سياسته ويحدد علاقته برجال الدولة واللاجئين السياسيين إلى تركيا . ولو وصل إلينا الجزءان الثانى والثالث من الكتاب لتابعنا سيرة أبى الهدى الصادى ومغامراته السياسية التى كان النديم وغيره من السياسيين يعارضونها ذلك هو التراث الفكرى لعبد الله النديم حاولنا أن نلم بأطرافه على اتساعه وتشعبه، وأن نصفه بقدر ما وصل إلينا من العلم به برغم فقدان أصوله، وإنه لتراث عظيم لمفكر أصيل من القرن التاسع عشر كان قوة دافعة للنهضة العربية والإسلامية المعتمدة على التراث والفكر الجديد .

هوامش البحث

١– أوفى سيرة لعبد الله النديم كتبها تلميذه أحمد سيمر، وقد صدر بها كتاب (سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم) الذى جمعه شقيقه عبد الفتاح نديم، طبع المطبعة الجامعة بمصر ١٣١٤هـ ٠ ١٨٩٥م.

٢– تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر – أحمد تيمور – القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٤٠م:١٧

٣– فى الأدب الحديث – عمر الدسوقى – دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٨ ١: ٢٧٠.

٤– عبد الله النديم بين الفصحى والعامية ٠– الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦: ٢ ولم يكن النديم – كما جاء فى سيرته التى كتبها أحمد سمير ٠ متضع النسب، فهو يقول عن والده (وكان أبوه وسطا فى اليسار، غاية فى مكارم الأخلاق).

٥– سلافة النديم – الجزء الأول

٦– نفسه : ١: ٤

٧– تراجم أعيان القرنالثالث عشر وأوائل الرابع عشر : ١٤٤

٨– سلافة النديم ١: ٤

(٩) مقالات النديم – محمد بن محمد بن منصتر – القاهرة ١٣٢٧ه١/ ١٩٠٩، المقدمة

١٠– سلافة النديم : ١: ٤.

١١– نفسه: ١: ١٧ وقد أضفت إلى ما كتبه أحمد سمير أسباب أخرى.

١٢– نفسه ١: ١٦

١٣– نفسه ١: ٦٨.

١٤– عبد الله النديم خطيب الوطنية – على الحديدى– المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة : ٣٩٤ – ٣٩٨.

١٥– عبد الله النديم بين الفصحى والعامية : ٢٦.

١٦– سلافة النديم ١: ١٨–٢٣

١٧– نفسه ١: ٢٤ – ٢٨.

١٨– نفسه ١: ٢٨–٣٠

١٩– الصحيح لغة أن تكون الباء مع المتروك فيقول (واستبدل بالحلو المر)

٢٠– سلافة النديم ١: ٣٠ – ٣٢

٢١– نفسه ١: ٣٢ – ٣٤

٢٢– نفسه ١: ٣٤ – ٤١

٢٣– نفسه ١ : ٤١– ٤٦

٢٤– نفسه ١: ٤٦ – ٤٩

٢٥– نفسه ١: ٤٩ – ٥٠

٢٦– نفسه ١: ٥١ – ٥٢.

٢٧– نفسه ١ : ٥٠ – ٥١

٢٨– نفسه ١: ٥٣– ٥٧.

٢٩– نفسه ١: ٥٧ – ٦١

٣٠– نفسه ١: ٦٦ – ٦٧

٣١– نفسه ١: ٦٧– ٦٨

٣٢– نفسه ١ : ٦١ – ٦٦

٣٣– نفسه ١: ٦٨ – ٧١

٣٤– نفسه ١ : ٧١ – ٧٣

٣٥– *الغازى* نوع من الأعشاب والمحريب كذلك وما باللغة الحبشية. *أما التيزى فهو الفول السودانى والعرديب التمر هندى بلغة أهل السودان .*

٣٦– سلافة النديم ١: ٧٣ – ٧٦.

٣٧– نفسه ١: ٥

٣٨– نفسه ١: ٧

٣٦– نفسه ٢: من ٣٣ إلى ٦٣

٤٠– نفسه

٤١– مقدمة (التنكيت والتبكيت) إصدار الهيئة العامة للكتاب – ١٩٩٤

٤٢– نفسه: *العدد الأول* ص٣.

٤٣– نفسه : العدد الأول ٤–٦.

٤٤– نفسه : العدد السابع : ١١١ – ١١٢.

٤٥– نفسه العدد الثالث عشر : ٢٠٨

٤٦– نفسه العدد الثانى: ١٩.

٤٧– نفسه العدد الثامن عشر : ٢٩١.

٤٨– نفسه العدد السابع عشر: ٢٨٥

٤٩– نفسه ٢٨١.

٥٠– نفسه العدد الثامن عشر : ٢٩٤

٥١– توقف عن إصدارها بيده الثورة العرابية وغير أسمها إلى (الطائف) وقيل إنه سماها (لسان الأمة) واختلف الباحثون إن كان قد أصدر أعدادا فيها بهذا الاسم فعلى الحديدى يؤكد عدم ظهور أى عدد (انظر كتابه ص١٦٤ وأحمد شفيق يشير إلى عبد الله النديم بقوله (محرر – جريدة (لسان الأمة) (انظر: مذكراتى في نصف قرن م: ٣٥).

٥٢- التنكيت والتبكيت: طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ : المقدمة .

٥٣- دار الوثائق القومية - سجلات الثورة العرابية - سجل رقم ١٠٩ مسلسل عمومى رقم ٤١٢٤ تحت عنوان (كاتبات الداخلية) نقلا عن مقدمة التنكيت والتبكيت لعبد المنعم الجميعى: ص٢٤.

(٥٤) نفسه

٥٥- نفسه: ٢٤، ٢٥.

٥٦- نفسه : ٢٥

٥٧- عبد الله النديم - سيرته مع بيبلوجرافية مختارة - الهيئة العامة لدار الكتب ١٩٩٥: ص٥٥.

٥٨- الاستاذ - العدد الأول ٢٤ اغسطس ١٨٩٢.

٥٩- نفسه الجزء الرابع عشر من السنة الأولى - ٢٢ نوفمبر ١٨٩٢.

٦٠- نفسه

٦١- نفسه الجزء الثالث من السنة الأولى - ٦ سبتبمر ١٨٩٢.

٦٢- نفسه ٨٧ - ٨٨\

٦٣- كان ويكون : ٧

٦٤- الأستاذ - الجزء الثالث من السنة الأولى: ٨٦.

٦٥- نفسه - الجزء الخامس من السنة الأولى: ١٤٠ - ١٤٣

٦٦- نفسه - الجزء الثانى عشر من السنة الأولى : ٢٧٢ - ٢٧٤.

٦٧- طبع الجزء الأول منه بمطبعة المحروسة بمصر عام ١٨٩٢.

٦٨- كان ويكون : المقدمة

٦٩- مقدمة التنكيت والتبكيت : ٥

٧٠- الأستاذ - العدد الأول ٣

٧١- مقدمة الأستاذ من إصدار مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر من ص٥ إلى ص٤٣.

٧٢- الأستاذ - العدد التاسع: ٢٠٢

٧٣- نفسه - الجزء الثامن من السنة الأولى : ١٦٩ - ١٨٤.

٧٤- نفسه العدد الثالث مقال (مطلب الطعام).

٧٥- الجزء الثامن عشر : ٤٢٨ - ٤٣١.

والجزء التاسع عشر ٤٣٤ - ٤٣٨

٧٦- المسامير : المقدمة.

خصائص «عبد الله النديم» الاتصالية
وأثرها على طبيعة الدور الاجتماعى
الذى قام به من خلال صحيفته الأولى
«التنكيت والتبكيت»

د. / نعمات أحمد أحمد عتمان

مدرس مادة البحوث الإعلامية – شعبة الإعلام – جامعة الإسكندرية

ثبت لدى الباحثة أنه منذ أنشأ «اسماعيل» الصحافة غير الرسمية فى مصر لأهداف خاصة «بالقصر»، أخذت كثير من القوى السياسية وغير السياسية تعمل على إصدار صحف مماثلة لدعم مواقفها الخاصة فى مواجهة بعضها البعض، فقد أصدر الأمراء المنافسون لإسماعيل على عرش الخديوية من أمثال الأمير «حليم» صحفا لتأليب الرأى العام ضد «إسماعيل» - كما أصدرت بعض الدول المتنافسة من أجل السيطرة على مصر مثل «انجلترا»، «فرنسا» صحفا للترويج لها فى مصر أو الطعن على منافسيها... وما إلى ذلك، ومن القوى من اكتفت بدعم بعض الصحف القائمة لكسب تأييدها أو على الأقل تحييدها[١].

وقد شهدت هذه الفترة التى نحن بصددها الآن صراعا صحفيا حادا فيما بين جبهة «رياض باشا» صاحب الفكر المحافظ التقليدى فى الحكم، و«شريف باشا» الذى اقترن اسمه بالدستور والحياة النيابية منذ أواخر عهد «إسماعيل»، فكان من يصل منهما إلى رئاسة الوزارة ترتقى صحفه وترسخ قدمها ويصيبها التطور والازدهار، فى الوقت الذى تلقى صحف الجبهة المعارضة كل العنت والقهر.. وهكذا[٢].

كانت كل من صحف «مصر» «التجارة» و«المحروسة» و«العصر الجديد» و«التنكيت والتبكيت» من ألسنة شريف باشا أو جبهته السياسية، فى وقت كان كل من «شريف» وجبهته - الأرستقراطية الوطنية - التى كانت قد بدأت تسهم فى الحكم أواخر عصر «إسماعيل» ساخطة، ممثلة لعنصر من عناصر الثورة[٣] وفى وقت كان المثقفون المصريون قد بدأوا يقودون المجتمع المصرى فيهيئون المناخ للثورة على الأوضاع القائمة آنذاك[٤] وقد تزامن ذلك مع قدوم الأفغانى بآثاره المعروفة، وبنشاط المهاجرين الشاميين الهاربين من مظالم الحكم العثمانى فى بلادهم بما تلقوه من ثقافة الغرب فاجتمع هؤلاء جميعا لتشكيل

جناح المثقفين الرافضين لكثير من الأوضاع التى وصلت إليها مصر آنذاك، ثم كان هناك بداية سخط فى العناصر المصرية داخل الجيش المصرى الذى كان قد بدأ فى الترقى إلى المناصب العليا لولا القيادات الشركسية التى حاولت الوقوف فى وجه هذه الفئة وتحجيمها ومن ثم بدأت حركات الرفض تظهر داخلهم. كانت مظاهرة أول فبراير سنة ١٨٨١ هى بداية خطواتهم المنظمة، وقد انضمت إليهم العناصر غير العسكرية لتكوين ما يسمى بالجبهة الوطنية(٥) أى أن صحيفة «التنكيت والتبكيت» التى نحن بصددها الآن تمثل إحدى ألسنة الجبهة الوطنية المتكاملة قبل انشقاق الأعيان – جبهة شريف – عن العسكريين مع نهاية عهد هذه الصحيفة، وانضمام «النديم» إلى جبهة العسكريين ليصبح لسان الصحف العرابية فى صحيفة سياسية أخرى «الطائف».

ترجع أهمية «التنكيت والتبكيت» إلى أنها تمثل فترة متميزة فى حياة «النديم» الصحفية، فقد كان قبل إصدارها يحرر فى صحف «أديب اسحق» و «سليم النقاش» – ألسنة شريف باشا آنذاك – «مصر» و«التجارة»، «المحروسة» و«العصر الجديد» وهذه هى الصحيفة الأولى التى يصدرها النديم. وقد ظلت تعبر عن الجبهة الوطنية حتى انقسامها – كما سبق وأوضحت – فتوقفت لتفسح الطريق أمام الصحيفة المعبرة عن حركة العرابيين ومرحلة الحرب مع الإنجليز.. الخ.

وترجع أهمية «التنكيت والتبكيت» أيضا إلى أنها أول صحيفة يصدرها صحفى مصرى بالإسكندرية حيث كانت الصحف السكندرية فيما قبلها لصحفيين شاميين، وقد تميزت بروحها المصرية الصرفة ومن ثم كتب لها الرواج عن مثيلاتها من الصحف المعاصرة لها كما سنعرض الآن.

عبد الله النديم وخصائصه الاتصالية: -

لم يتخرج النديم من الأزهر، ولم يرسل في بعثة لأوربا ولكنه خالط كثير من الأوساط التي شكلت عقله على نمط خاص[٦] كما أن اهتماماته المتنوعة قد جعلته لايطور إحداها التطوير الذي يبلغ فيه الغاية المرجوة[٧] لو نال تعليما منظما أو لغة أجنبية ليطلع على نماذج أخرى من الآداب العالمية لو أصبح كالجاحظ تماما حيث يشبهه في كثير من خصائصه[٨].

تعد «الخطابة» هي خصيصة النديم الأولى في مجال الاتصال والإعلام وقد مارسها قبل الصحافة. وقد لمس الأفغاني فيه قدرة خطابية فذة فأراد استثمارها، فأعطاه من وقته الكثير لتدريبه، لثقته في أنه سيكون لسانه المؤثر في عواطف الجماهير المصرية[٩] وكان الأفغاني يعتمد على تلاميذه بالقاهرة والإسكندرية في أن يكون حلقة تالية له في الاتصال بالجماهير أو ألسنة تنشر أفكاره في أبعد مما يصل إليه هو بجهده الفرد، وهو ما يعرفه علماء الاتصال بالاتصال على مرحلتين «Two- Step Communication»، كما ساعد آخرين من تلاميذه على إصدار الصحف، وحرر بها هو وتلاميذه الآخرون[١٠].

كانت الصحافة هي المجال الثاني للنديم وقد بدأ بالتحرير في صحف «مصر» و«التجارة» و«المحروسة» و«العصر الجديد» وهو كصحفي ينتمي للمدرسة الصحفية الثانية التي وجدت أمامها جهود المدرسة الأولى ولم تبدأ من فراغ، ومن ثم نزلت إلى ميادين جديدة مثل الإصلاح الاجتماعي والسياسي واللغوي[١١] وهو من العرابيين المتطرفين[١٢] وكان للنديم كخطيب أثره على كتاباته الصحفية، فهو يوجه الحديث للقارئ بلغة المخاطب وهي من خواص الحديث أو المحاضرة أو الخطبة، كثير النداء في الكلام، يعمد إلى تكرار عبارة بعينها بقصد تثبيتها في ذهن القارئ، وليشعر القارئ بأن هذه العبارة من الحديث هي (بيت القصيد)[١٣].

وكان إصدار «التنكيت والتبكيت» بهدف تنمية لسانه كخطيب، ليصل به إلى أكثر من موقع فى آن واحد، وليجعل لنفسه صفا تاليا من الخطباء كما فعل معه الأفغانى من قبل - وفى عهد وزارة «رياض» المناوئة لجبهته السياسية والصحفية - ويفهم من قوله، قصدت - من إصدارها - أن تكون لسانى ليكون لى فى كل بلد «محافل خطابية»[14] فقد كانت قناعته بالخطابة كبيرة حيث تنتشر الأمية «ولو كانت الأمة قارئة لاستغنت عن هيئة الخطابة بالجرائد...» وقد وضع فى صحيفته نماذج للخطب المنبرية لكى يحتذيها الخطباء فتنتشر أفكاره على مدى القطر[15] بالإضافة إلى أن الأميين كانوا يجلسون ليقرأها لهم من يعرف القراءة[16] وأعتقد أنه كان يعلم ذلك وقد يكون هو الداعى إليه حيث كان يداوم الاتصال الشخصى بالمشتركين فى صحيفته[17].

كان النديم على علم فطرى بأساليب الاتصال والتأثير فى المتلقى، فكان أسبق من «جوبلز» الداعية الألمانى المعروف، يدلنا على ذلك بعض المواقف التى كانت له مع أحمد عرابى ومشورته الصائبة فى أكثر من موقف، من ذلك، فكرة طبع منشور للأهالى وتجميع توقيعات الأهالى لتوكيل عرابى عنهم فى المطالبة بحقوقهم، والتحدث باسمهم وقد قام بتوزيع المنشور بنفسه ودعمه بما يلزم من الاتصال المباشر للتوضيح والإقناع مما كان له أبلغ الأثر فى تقوية العرابيين وجعلهم نوابا رسميين عن الأمة[18] وقد كان رأيه صائبا إزاء مواجهة منشور السلطان بعزل أحمد عرابى - من وجهة نظرى - فقد كان من الأفضل نشر العرابيين أنفسهم المنشور والرد عليه بدلا من نشره لأول مرة فى «الجوائب» العثمانية أو توزيعه سرا من خلال الجبهات المضادة للعرابيين، ولكن عرابى لم يأخذ بنصيحة النديم فى ذلك[19] ومن منطلق هذا الفهم لعوامل التأثير فى المتلقى للرسالة الاتصالية نجد النديم يتخذ من «التنكيت والتبكيت»

منبرا اتصاليا للإصلاح الاجتماعى، واتجه فيها إلى أسلوب رجل الشارع، مفردات ثقافته الاجتماعية، ولغته اليومية . وإذا رجعنا إلى مقولته التالية أدركنا أنه كان مدركا لأهمية ذلك فى وصول التأثير المطلوب من الاتصال، فهو حين يوجه المتعلمين من أبناء الأمة إلى كيفية نصح الفلاح الأمى بما يفيده ويعود عليه وكيفية التأثير فيه يقول: - أنصح الفلاح بأن «علم ولدك» وإن لم يفهم اقرأ عليه أخبار الدول المتقدمة «بلسان يفهمه... وصور له التقدم فى صور لاتبعد عن إدراكه وفهمه»[٢٠] وإذا راجعنا معالجاته الصحفية فى «التنكيت والتبكيت» نجد أنه اتبع نفس الأسلوب تماما للوصول إلى التأثير المطلوب فى قراء صحيفته.

صحيفة «التنكيت والتبكيت» على خريطة الصحافة :

لكى نستطيع الحكم على صحيفة «النديم» الأولى «التنكيت والتبكيت» لابد من النظر إليها من خلال رؤية العصر، ووضعها فى مكانتها بين الصحف المعاصرة لها، فنيا وتحريريا وتوزيعا.. للتوصل إلى مدى تأثيرها الحقيقى فى المجتمع المصرى .

بمجرد النظر إلى غلاف الصحيفة نكتشف أنها بدائية للغاية حتى بالمقارنة بالصحف المعاصرة لها مثل «الأهرام» «المحروسة»، «العصر الجديد»، على الرغم من طباعتها فى مطبعة هاتين الآخرين، أما عن إخراجها من الداخل فهو مايعرف بإخراج الكتاب، فهى مجرد صفحات مشطورة إلى نهرين صفت حروفهما صفا مرسلا لايفصل بين موضوع وآخر سوى العناوين.

وهى من حيث الأسلوب التحريرى، وعلى الرغم من استخدام الرمز إلا أنه عادة ما يعمد إلى النصح المباشر مثلما يقول «لو تعلم هذا فى صغره وتهذب...»[٢١] ويعترف النديم فى افتتاحيتها بأنها غير منمقة... ولا مفتخرة

بفخامة لفظ أو بلاغة عبارة ولا معرية عن غزارة علم وتوقد ذكاء.

وعلى الرغم مما سبق فقد كتب لهذه الصحيفة رواج لم تصل إليه صحيفة معاصرة، فبينما كانت الصحف تلهث وراء المشتركين وتطالبهم بالاشتراكات على صفحاتها، نجد أن صحيفتنا هذه تطبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة من العدد الأول فلا يتبقى فيها سوى خمس نسخ، فى حين طلب الكثيرون إعادة الطبع وطلب الاشتراك[٢٢] وتظل تتلقى الخطابات من خارج مصر وداخلها بطلب الاشتراك وارسال الأعداد الأولى... الخ[٢٣] فيضطر النديم إلى إعادة الطبع. ثم إلى بيعها بالنسخة إلى جانب الاشتراكات[٢٤] ولم يكن ذلك من الأمور الشائعة آنذاك. ثم نلاحظ أن «النديم» يعلن أنه لن يرسل الصحيفة إلا لمن يطلبها مقدما، وهذا أيضا من الأمور غير الشائعة آنذاك.

إذن ما هى أسباب رواج هذه الصحيفة على هذا النحو:

من الواضح أن العوامل التى اعتبرناها نقصا، كانت من أهم عوامل تقبل رجل الشارع للصحيفة، حيث بدت بدائية غير متحذلقة فأصبحت قريبة إلى نفسه وثقافته البسيطة.

ويرى «د. الجميعى» أنها كانت غريبة من حيث الأفكار والجرأة فى التعبير، وجديدة من حيث الأسلوب الرمزى الذى عبر به «النديم»[٢٦].

ومن أهم عوامل الإقبال والإرتياح النفسى لهذه الصحيفة منذ عددها الأول أن «النديم» يظهر تواضعا جما فى نقديمه لنفسه وصحيفته - على غير المألوف فى صحافة العصر - واختتم قوله «إننى قدمت ما استطعت وإن كان هناك قصور ففى إمكان بعضكم مما يرى فى نفسه القدرة فليبادر وقد ينجح فى ميدان يكبو فيه جوادى».

ولسنا بدار الحرب أو أرض فتنة ولكن لنا فى العالمين نظير

وقوله هذا يعنى أنه لم ينزل ميدان الصحافة للمباهاة أو النزال مع غيره ولكنه واحد من كثيرين من أرباب القلم، وهو ،لا شك مما يبعث على التواصل والألفة فيما بينه كقائم بالاتصال وبين قرائه كمتلقين للرسالة.

ويرى البعض أنه أول من أدرك أن لغة الصحافة البحتة ينبغى أن تختلف عن لغة الأدب البحتة[٢٦] وأرى أنه أدرك بفطرته وخبرته الخطابية أن الإسلوب الأقرب إلى الاتصال الشخصى هو أفضل أسلوب للتأثير والإقناع، وشأنها فى هذا شأن وسائل الاتصال المسموعة والمرئية اليوم بجاذبيتها المعروفة لنا الآن.

ويرى البعض أنه كان موفقا فى اختيار العناوين إلى الحد الذى جعل كاتبا مثل «عباس محمود العقاد» يلقبه بملك العناوين[٢٧] وقد استخدم بعض عناوين الأبواب الصحفية الثابتة فى صحف العصر مثل «المحروسة» و«العصر الجديد»، ومن ذلك، باب «التجارة »، «أخبار داخلية» «أخبار آخر ساعة» ولكن بأسلوب هزلى تهكمى يخدم مضمون الصحيفة، كأن يقول تحت عنوان «التجارة» وعن الأسعار «بيرة صندوق الدين»، أو سوق الجنون على حالة وأخبار الحشيش فى تحسين والخمر مطلوب «أو» سوق الكحايل تحسن بورود «أصيلة» فذهبت الناس للتفرج عليها وحسن قوامها»[٢٩] أو تحت باب «أخبار داخلية» « من أخبار بيرة فنك» أنه بسبب الازدحام داخل البيرة وشدة الحر امتلأت الشوارع بكثرة الجالسين حول البيرة»[٣٠].

كان النديم من قاع المجتمع المصرى وأعلم بمفردات الثقافة الاجتماعية للشعب المصرى بأنساقها المعروفة، وأعلم بمفردات اللغة العامية والأمثلة الشعبية الدارجة وتأثيراتها فكانت خير مدخل لمحادثات ودية – إن صح

التعبير- بينه وبين القارئ. ولمعرفته بميول الشعب المصرى وحبه للإسلوب القصصى وعشقه للسير وحكاوى «الراوى» والأديب الشعبى - «الأدباتى»... الخ نجده وقد جعلها مدخلا صحفيا جديدا لم يتوصل إليه أبناء عصره - وأن سبقه «صنوع» إلى استخدام العامية - ويقول «د. الحديدي» إنه فطن إلى شئ جليل وهو التعلم من خلال القصص فكان يسوق النصيحة فى صورة قصة والعبرة فى شكل نكتة ويروى عن العيوب الاجتماعية على لسان أبطال القصص وأفرادها وهو أسلوب أكثر جذبا للناس وأحرى بأن تتقبله العقول، كما وضع على لسان كل شخص اللغة التى تليق به(٣١) وكذلك امتلاءت الصحيفة بالاسماء الشعبية ذات الواقع الخاص مثل «زعيط» و«عنطوظ» أو ما إلى ذلك، ومن ثم جاءت الصحيفة كما يقول صاحبها، مجرد «أحاديث تعودناها، ولغة ألفنا المسامرة بها...» لا تحتاج لمعاون يشرح لك وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى(٣٢) وفى الإسكندرية كان «النديم» الصحفى المصرى الوحيد وسط مجموعة الصحفيين المتصدين للعمل الصحفى بالاسكندرية آنذاك، ومن ثم كان أعلم بمفردات ثقافة السكندريين الفرعية فملأ صحيفته بها، فكانت خير مدخل إلى قلوب السكندريين خاصة، فهو يقول «شوار» العروس، أو مقابر «العمود»، «سوق الميدان»(٣٣) وهكذا.

وإذا كانت هذه هى صفات الرجل وخصائصه الاتصالية وهذا هو حال الصحيفة ومكانتها فى قلوب المصريين فمن المتوقع أن يصل تأثيرها الاجتماعى مداه على الشعب المصرى ولكى نصل إلى نوع التأثير الذى تتركه الصحيفة لا بد من استعراض بعض المعالجات التى لها تأثيراتها الاجتماعية.

من الملاحظ على جميع معالجات النديم فى صحيفة «التنكيت والتبكيت» -

وتلك هى طبيعة صحافة العصر - أن المقال الواحد لم يكن يدور حول فكرة واحدة أو مضمون محدد ولكنها مجموعة من الأفكار المتشعبة المسالك وأن كانت مرتبطة ببعضها البعض فى ذهن النديم وقد أرجعها جميعها تقريبا إلى محور أو سبب واحد هو «الجهل» فالجهل سبب التأخر، وسبب ثراء الأجانب على حساب المصريين أو تسرب الثروة القومية إليهم، وهو سبب انتشار المثالب الاجتماعية جميعا والمعتقدات الفاسدة والخرافات المسيطرة على العقول، وهى سبب سوء التربية وبالتالى استمرار هذه الظواهر.. ولذا كان الحدث على التعليم ومحاربة الجهل والتهكم من الجهلاء هو القاسم المشترك لجميع موضوعات الصحيفه.

نماذج لبعض الموضوعات التى تعرضت للتعليم:

دأب النديم على وصف غير المتعلم - من قراء الصحيفة - بأنه «الجاهل» الذى لا يحتاج إلى تفسير لسهوله عبارتها، بينما يطلق على «المتعلم» دائما لفظه «النبيه»، «أحد النبهاء»(٣٤).

ويضع النديم «العلم» و «العلماء» فى موضع التوقير والإجلال فيروى عن أبناء الخليفة «المأمون» وكيف كانا يتسابقان على تقديم الحذاء لأستاذهما توقيرا للعلم فى شخصه، ويأتى بتعليق «المأمون» على ذلك بقوله إن «أشرف الناس من إذا قام ابتدر أولياء عهد المسلمين نعله وتفاخروا بتقديمه إليه...»(٣٥).

ولم يخل عدد من الصحيفة دون التنبيه إلى أهمية التعليم أو الحث على التعليم وحث المتعلمين على نشر التعليم، ومحو أمية الجهلاء، فعلى المتعلم أن يأخذ بناصر أخيه الأمى «فيعلمه من الضروريات ما يميز به الغث والثمين، حتى يتمكن من حفظ حقوقه والقيام بواجباته..» وليس بكثير على المتعلمين من أبناء الامة إنفاق بعض وقتهم فى بث» روح المعارف فى أجسام ضلت..، وتاهت فى

فياقى الجهالة ليروا أن العامى أطوع لمن يعلمه من الظل الجسم»[٣٦] أو على الأقل أنصحه بتعليم ابنه إذا لم يلحق هو ركب العلم فكلما رأيته قل له «علم ولدك» وأقنعه بأى لسان أو أسلوب قريب إلى فهمه[٣٧] ويحث الأغنياء على افتتاح المدارس أو الكتاتيب للإسهام فى نشر التعليم وتطويره، حتى تصبح البلاد مسكن أدباء ومأوى نبهاء»[٣٨].

هذا فى الوقت الذى لم يخل عدد من أعدادها من تقبيح «الجهل» و «الجهلاء» – والتهكم عليهم ووصف الجهل «بالحالة البهيمية» وعليه فالتعليم من وجهة نظر الصحيفة هو إخراج الكائن «من طور البهيمة إلى عالم الإنسانية..»[٣٩] ويرى أن الاثرياء أو الأعيان غير المتعلمين ليسوا سوى «حمير الأموال»[٤٠] و«أقل من الحيوان»[٤١].

وتفننت الصحيفه فى سرد القصص التى تنفر من الجهل والجهلاء الذين تسيطر عليهم الأوهام مثل قصة الفلاح الجاهل الذى يعتقد فى السحر والشعوذة لجهله، فيستولى بعض اللصوص على حماره بالحيلة فيسير أحداهم خلفه ويقول له إنه آدمى ولكن زوجته سحرته إلى حمار فما كان منه إلا أنه تركه ينصرف قائلا «عتقتك لوجه الله تعالى » وكيف أنه بعد أن يلمح حماره يباع فى السوق يقترب منه قائلا : «سحرتك ثانية يا مسكين..» ويعلق «النديم» على ذلك قائلا «هكذا تكون الغفلة والجهالة فإن هذا البهيم تمكنت منه الخرافات فتصور أن السحر يقلب الحقائق[٤٢].

وكذلك قصة «عنترة»، «عمارة» ودرجة تأثيرها على الجهلاء إلى الحد الذى يجعل «الجاهل» يغضب من ولده المتعلم حين أراد توضيح حقيقة «عنترة» فيضربه حتى تسيل دماؤه ويطرده من المنزل ويخرج «المسكين وهو يسب الجهل وأهله ويعجب من فساد أخلاق والده الذى أحدثه عدم التهذيب حتى ألحقه بالبهائم وسلخ عنه جلد الإنسانية[٤٣].

وفى قصة أخرى يأتى بأحد المزارعين الجهلاء الذى يذهب للاقتراض بالربا فيستغل «المرابى» جهله ويحاسبه حسابا مغلوطا حتى يضطره لبيع جميع ما يملك من حطام الدنيا لسداد الدين وفوائده وعلى الرغم من آن ما أتى به الفلاح يفوق ديونه بكثير فإنه وفقا لحسابات المرابى يخرج مدينا أكثر مما سبق وهو يقول «أكتب وخد الختم أهو» وإمعاناً فى التهكم من جهل الفلاح، تصوره الصحيفة وقد استسلم للمغالطة فى الحساب فى حوالى ٢٥٠ جم ويعترض على نصف جنيه «والنص جبتو منين»؟.. «وتأتى الصحيفة على لسان «المرابى» بأن هذا الفلاح «حمار، وأنا إذا كان مش يعمل كده مش لازم بيجى تاجر بنكير بعد خمسة سنة»[٤٤] ولا يخفى ما فى هذه الكلمات من إيحاء ضمنى بأن المرابى أجنبى، وأنه يستغل جهل الفلاح، وأنه يسعى أساسا للإثراء فى أقرب وقت على حساب المصريين الجهلاء، وهو ما حاولت الصحيفة إثباته على مدى صدورها لتحذير المصريين من غفلتهم وجهلهم الذى يساعد الأجنبى على أغراضه الخاصة.

خص النديم «تعليم المرأة» باهتمام خاص، فربط بين كثير من المثالب والآفات الاجتماعية وجهل النساء، بل جهل الأجيال التالية من الرجال والنساء، فكان أسبق من حافظ إبراهيم فى الابيات التى ألقاها سنة ١٩٠٢ فى حفل افتتاح مدرسة السنية والتى منها:

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعبا طيب الأعراق

حيث ربط النديم بين تعليم الأمهات وما ينتج عنه من تنشئة أجيال صالحة تعود على الوطن ككل «فلو ذاقت الأم لذة المعرفة لشب رضيعها على أحسن صفة[٤٥].

ويربط «النديم بين جهل المرأة وانتشار عادة الأسراف والبذخ والمباهاة بما لا ينفع ودون - مراعاة للإمكانات الحقيقية للأسرة حتى وإن أدى ذلك إلى ضياع تجارة الزوج الذى هو مصدر الدخل الوحيد للأسرة وخراب البيت.. الخ(٤٦) ويأتى بقصة الابنة التى ضاعت واضطرت للعمل كخادمة بعد أن كانت هى وأمها من الأثرياء وأرباب القصور والخدم. وذلك بسبب جهلها هى وأمها مما جعلهما تقعان فريسة وكيل محتال يبدد ثروتهما أو يستولى عليها(٤٧).

ويربط بين جهل النساء وبين تفشى كثير من العادات السيئة مثل ركوب النساء عربات الكارو «مارة من أعظم الشوارع وأنظمها والخلائق يتفرجون عليهن.. فأى ترضى لنفسها بهذه الحطة والخسة...»(٤٨) وعادة السير وراء جنازة الأموات» صارخات متهتكات صابغات وجوههن وأيديهن بالنيلة والطين..» على الرغم من مخالفة ذلك للشرع والدين(٤٩)، وكذلك الاعتقاد فى الخرافات والزار والشياطين والجن وغيرها من المفاسد، وعليه يوصى بتعليم البنات فى أكثر من موقع من الصحيفة وينشئ سلسلة من المقالات بعنوان «تهذيب البنات من الوجبات».

موضوعات تكشف حقيقه دور الأجانب فى المجتمع المصرى:

اتسمت كثير من المعالجات التى تتعلق بالأجانب بازدواج التأثير فالاقراض بالربا ينطبق على حالة «مصر» وبالتالى تدخل فى مجال التأثير السياسى، وهى بالطبع تنطبق على أحوال المصريين كأفراد حيث تعرضوا لكثير من حالات الإفلاس والصياح بسبب العناصر السيئة من الأجانب الذين يعملون إما بالإقراض بالربا، أو بافتتاح محلات اللهو والفسوق لسحب أموال المصريين من جانب أخر، كما كان هناك من ادعى مهنة المحاماة وأخذ يفسد ذات البين بين المصريين لبقائهم فى المحاكم أطول مدة ممكنة فيفيد هو من وكالته عنهم وهكذا.

كما كشف «النديم» عن أن الكثير من المثالب الاجتماعية سببها الأجانب إلى الحد الذى توغلوا فيه حتى فى المناسبات الدينية مثل الاحتفال بالمولد الأحمدى بطنطا، فحولوه من طقوس دينية إلى سكر وعربدة وكأنه «أقيم لغنيمة قهاوى الأروام»(٥٠).

ومن ناحية أخرى حمل على المصريين لتركهم الاجانب يثرون على حساب مصر وصناعها وتجارها، ولتأثر «النديم» بما يحدث فى المجتمع السكندرى، وكان ازدياد النفوذ الاجنبى بالإسكندرية خاصة قد ظهرت آثاره على تجارها وأرباب الحرف بها فأصابهم الكساد وترددوا بين الشوارع والأزقة يطلبون الإحسان. حتى إن إحدى الصحف الأجنبية «ترومبتا» نشرت عن ذلك(٥١) ومن ثم نجد «النديم» يكثر من التنبيه إلى غفلة المصريين عما يحدث وعواقبه كأن يقول أما آن لكم أن تفيقوا من هذا السكرة التى حولت ثروتكم إلى الغريب وألبست تجارتكم ثياب الفقر والذلة». - ويأخذ عليهم تشجيعهم التاجر الأجنبى دون المصرى حيث يقضى المصرى نهاره دون «زبون» واحد بينما الأجنبى يقضى نهاره يزن ويلف ويربط ويقبض والناس حوله فى ازدحام ينادونه «شهلنى يا خواجا»(٥٢) كما يأخذ على الأثرياء أنهم إذا ما احتاجوا إلى عامل إصلاح استخدموا الأجنبى دون المصرى(٥٣) على الرغم من ثبوت قدرة المصرى على التطوير والابتكار(٥٤).

ويستشهد «النديم» «بمحمد على» وكيف كان يفضل مصنوعات بلاده دون غيرها فيلبس من صنع مصر ويفرش قصره من مصنوعاتها وإن كانت بدائية» ولا يرضى بزخرف الإفرنج «خشية أن يقلده الشعب» فتموت صناعة البلاد وصناعها(٥٥) وعليه فهو يهيب بالأثرياء أن - يراعوا ذلك وأن يسهموا فى إقامة جمعيات صناعية وشركات مساهمة، يخصص بعض أموالها لتعليم بعض

المصريين فنون صناعة الأجانب حتى نستغنى عن الأجانب شيئا فشيئا، وأن يلتزم المساهم فى هذه المؤسسات الصناعية بشراء منتوجاتها دون غيرها فيكسب بذلك أرباح الأسهم وإحياء صناعة بلاده، وفتح بيوت الصناع من مواطنيه وزيادة ثروة بلاده(٥٦) وقد لقيت دعوته هذه استجابة فورية فأعلن عن إنشاء «الجمعية الصناعية المصرية»(٥٧).

حمل «النديم» على سلبية المصريين وتشجيعهم للأجانب غير المؤهلين على احتراف المهن الدقيقة كالطب والمحاماة وتركهم يستحضرون بعضهم البعض للعمل فى مصر، والإثراء منها(٥٨) وكيف يأتى الفقراء منهم فى ثياب رثة خلقة ليستغل جهل المصريين وخصوماتهم للعمل بالمحاماة فيثرى ثراء فاحشا على حساب المصريين(٥٩) وهو من ثم يدعو الحكومة للتدخل لتنظيم مهنة المحاماة وقصرها على المؤهلين منهم(٦٠)، وقد استجابت الحكومة لذلك فعملت على تنظيم مهنة المحاماة(٦١).

وهو يلفت النظر إلى أن العناصر الأجنبية فى مصر «لا تحب تقدمنا ولا تميل لبث العدل فينا ولا تهوى انتشار المعارف فى بلادنا لئلا يفوتها كثير من الغنائم...»(٦٢) حيث إنهم قد أصبحوا مع الوقت فى قمة ا السلم الاجتماعى وأضحى أصحاب البلد الحقيقيون أجراء أذلاء «فما رأيت من قصر لطيف فذاك المسيو وما نظرت إلى جفالك وأباعد فهذا للمستر وما بلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا.. وقد صار الاسكافى عندنا مهندسا والمزين طبيبا.. وذليل بلاده عزيزا»(٦٣) – وعبر عن نفس الصورة بالزجل الذى اشتهر به آنذاك:

«أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان.

وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولاّحق الدخان»(٦٤)

وقد سجل البعض تأثر المصريين بمثل هذه المعالجات والنداءات فظهرت شكاوى كثيرين من التجار والحرفيين المصريين تحمل نفس ألفاظ «النديم» عن تسهيل عيش الاجانب فى مصر على حساب أصحاب البلاد(٦٥).

الموضوعات التى تتبعت المثالب الاجتماعية:

وقد ربطها «النديم» دائما بالجهل وبالموروثات الخاطئة، وصورها فى صورة مزرية ينفر منها حتى الذين يعتقدونها، وقد زخرت الصحيفة بألوان من هذه التخاريف أو المعتقدات - الخاطئة(٦٦) مثل عمل الأعمال التى تدرأ الحسد، أو كتابة «قطمير» على المكان المراد حراسته وحفظه من اللصوص(٦٧) والادعاء بمعرفة الغيب والدجل الطبى، كما فى «أماتك من أسلمك للجهالة» وفيها يوضح كيف يترك الناس الأطباء المتخصصين ويلجأون لعلاج الدجالين بالثوم والكلى حتى يتوفى المريض بينما يظل والده يقول «خليها بالبركة شى لله يا سيد، الحكيم رايح يعمل ايه»(٦٨) والتشفع بالأولياء والمشايخ، وادعاء الولاية(٦٩) وإعتقاد الولاية والمشيخة فى كل من به عته أو إعاقة، لضعفنا عن درء ما تأسس فى أفكارنا من الهذيان والتخريف وحب أهل الجهالة وطاعتهم...»(٧٠).

محاربة المخدرات والخمور وغيرها من المفاسد:

شن «النديم» حملة شعواء على المفاسد فلم يخل عدد من «التنكيت والتبكيت» من تناول مثل هذه المفاسد والتهكم عليها بأى أسلوب.

والقول بأن مجلس طبى على مصاب بالإفرنجى «مقال رمزى صور فيه» النديم «حالة مصر فى عصر «إسماعيل» أى أن الهدف الرئيسى هدف سياسى وطنى قولاً لا خلاف عليه ولكن القصة من حيث التأثير لها تأثيراتها السياسية وغير السياسية حيث إننا نخرج منها بعبرة اجتماعية أيضا، وبطريقة مباشرة يصل إليها القارئ العام والخاص أنها توحى للشباب بألا يتركوا أنفسهم لرفاق

السوء يضللونهم أو يقودونهم لحياة الغوانى حيث «الجمال مبذول بلا قيمة والوصال ممنوح بلا مقدمات..»(٧١) ومثلها قصة أحد الشباب الوارثين لثروة طائلة وكيف ترك نفسه لرفاق السوء، وللإسراف فى الملاهى وغيرها حتى ضاعت ثروته عن آخرها فانفض عنه الرفاق(٧٢). وقد عبر «النديم عن نفس الفكرة بالزجل قائلا:

ياما نصحتك يا بنجر وقلت لك اوعا بعجر
فضلت تسكر وتفنجر لما صبح بيتك خربان(٧٣)

ويتهكم «النديم» من خلال «العناوين» أيضا على السكر وتعاطى المكيفات كان يقول «سهرة الأنطاع» أو «عمدة سكران»(٧٤) أو من خلال الإعلانات التهكمية مثلما يدرج أسعار الخمور فيقول:

الكأس للفايق (١جنيه) وللسكران (٨جنيه) والنقطة للفايق (٢جنيه) وللسكران (٢٠ جنيه)(٧٥)

ويعمد النديم إلى تصوير السكارى فى حالة حيوانية بعد ذهاب العقل الذى يدير الجسم ويميز بين الإنسان والحيوان(٧٦) ويصور كيف يكون حال «جماعة مما نخشاهم لحسن ثيابهم وطلاقة وجوههم وحلاوة ألسنتهم..» وكيف أنهم بعد تعاطى الخمر «ارتفع العقل إلى رفرف لا يصلون إليه فيه وهجم عليهم الجهل بجيش الوقاحة والسماجة وفرسان الجنون..» «وتجردوا من الإنسانية ولبسوا جلد البهيمية»(٧٧).

الموضوعات التى تعالج الإسراف على المظاهر والمباهاة والتقليد الأعمى:

ويقال إن هذه المظاهر كانت قد انتشرت بين أثرياء مصر، فكانوا يقترضون بالربا من أجل إقامة الحفلات والولائم وما شابه ذلك(٧٨) ومن ثم ينشط «النديم» فى الهجوم على الظاهرة والتهكم على مثل هؤلاء(٧٩) وغيرهم ممن يقترضون لشراء ما لا يلزمهم من أجل التفاخر والمحاكاة للغير مثلما فعل الشيخ

«دعموم» حين استدان بالربا الباهظ لشراء رافعة مياه ليس فى حاجة إليها ولكن لأن الشيخ عنطوظ «بيتعاجب على... وعاوز أغيظ ابن المنبوش الختوت ده....» ويعلق «النديم» على لسان أحد النبهاء قائلا أيليق بكم وأنتم نبلاء القرى ومشايخها التشبث فيما يعود عليكم بالدمار والخراب وتتركون ما عليكم من واجبات إنسانية من مد يد المساعدة إلى بعضكم..»(80) .

تقليد الأجانب فيما لا يفيد وترك ما يفيد:

وقد تهكم «النديم» على المتفرنج «زعيط» وكيف أنه يدعى المدنية بمجرد انتقاد عادات الشرق دون مراعاة للأبوة أو الوطنية(81) أو عن التمدن الظاهرى بتقليد الأجانب فى ملابسهم وعاداتهم وارتياد الحانات والمراقص وشرب الخمور(82) وترك – هؤلاء الساعين إلى التمدن وتقليد الغرب الكثير من المناقب الأجنبية التى تستحق التقليد مثل العلوم النافعة والجدية فى العمل وما إلى ذلك «فتعسا لقوم لا يقلدون إلا فيما يذهب بالمجد ويميت روح البلاد، وسحقا لأمة لاترى باب النجاح مفتوحا ولا تلجه»(83).

وهكذا كانت مثل هذه المعالجات وغيرها على صفحات «التنكيت والتبكيت» تزخر بالإصلاحات الاجتماعية حتى ولو لم يهدف «النديم» إلى ذلك مباشرة.

ولولا ظهور بوادر الانشقاق فيما بين المدنيين والعسكريين الذين يكونون الجبهة الوطنية التى كان النديم بصحيفته أحد ألسنتها، وتزايد المد الثورى بين العسكرين، وانحياز «النديم» بطبيعته الثورية المتطرفة إليهم وبالتالى تحوله من الصحافة الاجتماعية والإصلاحية إلى الصحافة السياسية الثورية فى «الطائف» لاستمر رواج هذه الصحيفة واستمرت تؤدى – دورها فى الإصلاح الاجتماعى.

هوامش البحث

(١) نعمات أحمد عتمان، الصحافة العربية بالإسكندرية والعوامل المؤثرة في تطويرها رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى قسم الصحافة والنشر، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٥ من المقدمة، ص ٦٩، ٥٧

(٢) نعمات أحمد عتمان،، تاريخ الصحافة السكندرية، ١٨٧٣ - ١٨٩٩، رقم ٧٨ من سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ ص ١٠١ - ص ١٢٦، ص ١٤١ - ص ١٤٥.

(٣) عبد العظيم رمضان، مقدمة كتاب عبد المنعم إبراهيم الجميعي، من تراث النديم، التنكيت والتبكيت، سلسلة مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٤، ص ٠٢، رؤوف عباس، المعارضة الوطنية وارهاصات الثورة، بحث منشور في مصر للمصريين، مائة عام على الثورة العرابية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة سنة ١٩٨١، ص ٦١، ص ٦٢.

(٤) على شلبي، دور القوى الاجتماعية في الثورة، بحث منشور في مصر للمصريين المراجع السابق، ص١٣٤-١٣٦.

(٥) رؤوف عباس، المرجع السابق، ص ٦٧ - ص ٦٩

(٦) لطيفة سالم، القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨١ ص٨١

(٧) عبد اللطيف حمزه، أدب المقالة الصحفية، الجزء الثاني، طبعة ثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٥ ص١٣١.

(٨) المرجع السابق، ص ١٣٣، ص ١٣٤

(٩) على شلبي، مرجع سابق، ص ١٣٩ - ص ١٤٢

(١٠) نعمات أحمد عتمان، تاريخ الصحافة..، مربع سابق، ص ٥٨ وما بعدها.

(١١) عبداللطيف حمزه، المرجع السابق، ص ٥، ص ٠٦

(١٢) عبد المنعم إبراهيم الجميعي، وقائع الثورة العرابية، دراسة وثائقية، بحث منشور في مصر للمصريين، مرجع سابق، ص ٨٨

(١٣) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص ١٩٣ وما بعدها.

(١٤) محمد أحمد خلف الله، عبدالله النديم ومذكراته السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٦ ص٥٥

(١٥) التنكيت والتبكيت، عدد ١٥ في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨١ ص٢٣٥ ومابعدها .

١٦- لطيفة سالم، المرجع السابق ص٣٧٧.

١٧- التنكيت والتبكيت عدد ٨ في ٣١ - يوليو سنة ١٨٨١ ص١٢٢.

عدد / ١٠ في ١٥ أغسطس ١٨٨١ ص ١٥٩

،عدد/ ١١ في ٢١ أغسطس ٨١٨١ ص ١٧٠

، عدد/ ١٢ في ٤ - سبتمبر ١٨٨١ ص ١٨٦

(١٨) على الحديدي، عبد الله النديم خطيب الوطنية، رقم ٩ من سلسلة أعلام العرب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٤١ - ١٤٣

(١٩) عبد المنعم الجميعي، المرجع السابق، ص ١٠٩

(٢٠) التنكيت والتبكيت، عدد/ ١٠ - في ١٥ - اغسطس ١٨٨١، ص ١٥٧

(٢١) المصدر السابق، العدد/ ٤ - في ٤- يونيو ١٨٨١، ص ٥٨

(٢٢) المصدر السابق، العدد/ ٢ - في ١٣- يونيو ١٨٨١، ص ٣٠

(٢٣)المصدر السابق عدد/ ١٢ في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص ١٩٧

(٢٤) المصدر السابق عدد ١٧ في ٩ أكتوبر ١٨٨١، ص ٢٨٨

(٢٥) عبد المنعم الجميعي، من تراث النديم، التنكيت والتبكيت دراسة تحليلية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٤، ص ٧.

(٢٦) لطيفة سالم، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٢٧) عبد المنعم الجميعي، المرجع السابق، ص ١٠.

(٢٨) التنكيت والتبكيت، عدد ٦، في ١٧ يوليو ١٨٨١ ص ١٠٣

(٢٩) المصدر السابق، عدد ٧، في ٢٤ يوليو ١٨٨١ ص ١١٩

(٣٠) المصدر السابق عدد/ ١٠ في ١٥ أغسطس ١٨٨١ ص ١٦٦

(٣١) على الحديدي، مرجع سابق، ص ١١١ وما بعدها.

(٣٢) التنكيت والتبكيت عدد أول، ٦ يونيو ١٨٨١، ص ٣.

(٣٣) على سبيل المثال: - العدد ٩ في ٧ أغسطس ١٨٨١، ص ١٤٥

(٣٤) المصدر السابق، عدد/ ٦ - في ١٧ يوليو ١٩٩١، ص ٩٦

(٣٥) المصدر السابق، عدد/ ١٣، في ١١- سبيتمبر ١٨٨١، ص ٢٠٧

(٣٦) المصدر السابق، عدد/ ١٠، في ١٥ أغسطس ١٨٨١، ص ١٥٥ وما بعدها

، عدد/ ١١، في ٢١أغسطس ١٨٨١، ص ١٧٥ وما بعدها

عدد/ ١٢، في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص ١٩٠ وما بعدها

(٣٧) المصدر السابق، عدد/ ٤ - في ٣ يوليو ١٨٨١، ص ٥٥،

عدد. ١٢، في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص ١٩٠

(٣٩) المصدر السابق، عدد ١٤، في ١٨ سبتمبر ١٨٨١، ص ٢٢٦، ص ٤٤٩

(٤٠) المصدر السابق، عدد أول، في ٦ يونية ١٨٨١و ص ١٣

(٤١) المصدر السابق، عدد/ ٥، في ١٠ يوليو ١٨٨١، ص ٨٣، ص ٨٤

(٤٢) المصدر السابق، عدد/٣ ، في ٢٦ يوليو ١٨٨١، ص ٤٤، ص ٤٥

(٤٣) المصدر السابق، عدد أول، في ٦ يونيو ١٨٨١، ص ١٠، ص ١١

(٤٤) المصدر السابق، عدد أول، في ٦ يونيو ١٨٨١، ص ٨٤

(٤٥) المصدر السابق، عدد/ ٥، في ١٠ يوليو ١٨٨١، ص ٨٤

المصدر السابق، عدد/٩ ، في ٧ أغسطس ١٨٨١، ص ١٤٣

(٤٦) المصدر السابق، عدد/ ٧، في ٢٤ يوليو ٨٨١ ص ١٢٣ وما بعدها

، عدد/٨، في ٣١ يوليو ١٨٨١ ص ١٢٣ وما بعدها

(٤٧) المصدر السابق، عدد/٨، في ٣١ يوليو ١٨٨١ ص ١٢٤، ١٢٥

(٤٨) المصدر السابق، عدد/ ٩، في ٧ أغسطس ١٨٨١ ص ١٤٢، ١٤٣

(٤٩) المصدر السابق، نفس الموضع، ص ١٤٣

(٥٠) المصدر السابق، عدد/ ١٥، في ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ ص ٢٤١

(٥١) لطيفة سالم، مرجع سابق، ص ٣٥٦

(٥٢) التنكيت والتبكيت، عدد ١١، في ٢١ أغسطس ١٨٨١ ص ١٧١

(٥٣) التنكيت والتبكيت، عدد/ ٦، في ١٧ يوليو ١٨٨١ ص ٩٣

(٥٤) التنكيت والتبكيت، عدد/ ١٣، في ١١ سبتمبر ١٨٨١ ص ٢١٠

(٥٥) التنكيت والتبكيت، عدد/ ١٧، في ٩ أكتوبر ١٨٨١ ص ٢٧٤

(٥٦) على سبيل المثال: عدد/ ٢، في ٢٦ يونيو ١٨٨١ ص ٤٠ ما بعدها

عدد/ ١١٤، في ١٨ سبتمبر ١٨٨١ ص.٢٢

(٥٧) «المحروسة» في عدد/ ١٩، فبراير ١٨٨٢

(٥٨) التنكيت والتبكيت، عدد ١١، في٢١ أغسطس ١٨٨١ ص١٧١ وما بعدها

(٥٩) المصدر السابق، عدد / ١٢، في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص١٩٢.

(٦٠) المصدر السابق، عدد/١٢، في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص١٩٩ وما بعدها

(٦١) عل يالحديدي، مرجع سابق، ص ١٨٢

(٦٢) التنكيت والتبكيت، ع/١٨، في ٦ اكتوبر ١٨٨١ ، ص٢٩٧ .

(٦٣) التنكيت والتبكيت، عدد/ ١٧، في ٩ أكتوبر ١٨٨١ ص ٢٧٦

(٦٤) التنكيت والتبكيت، عدد/ ٩، في ٧ أغسطس ١٨٨١ ص ١٤٩ وما بعدها

(٦٥) لطيفة سالم، المرجع السابق، ص ٢٤١ – ص ٢٤٣

(٦٦) لطيفة سالم، عدد٣، في ١٠ يوليو ١٨٨١، ص ٤٤ وما بعدها

لطيفة سالم، عدد ١٢، في ٤ سبتمبر ١٨٨١، ص ١٩٧ وما بعدها

لطيفة سالم، عدد ١٨، في ١٦ أكتوبر ١٨٨١، ص ٣٠١

(٦٧) لطيفة سالم، عدد. ١١ ، فى ٢١ أغسطس ١٨٨١، ص ١٨١ ص ١٨٣

(٦٨) لطيفة سالم، عدد ١١،، فى ٢١ أغسطس ١٨٨١، ص ١٧٣ وما بعدها

لطيفة سالم، عدد ١٢، فى سبتمبر ١٨٨١، ص ١٥٧، ص ١٩٧

(٦٩) لطيفة سالم ، عدد/ ١٠، فى ١٥ أغسطس ١٨٨١، ص ١٥٧، ص ١٦٢

(٧٠) لطيفة سالم ، عدد / ١١، فى ٢١ أغسطس ١٨٨١، ص ١٧٤

(٧١) لطيفة سالم، عدد أول، ٦ يونيو ١٨٨١، ص ٤ .

(٧٢) لطيفة سالم، عدد/ ٢، فى ١٩ يونيو ١٨٨١، ص ٢٢ وما بعدها

(٧٣) لطيفة سالم، عدد/ ٩، فى ٧ أغسطس ١٨٨١، ص ١٤٩، ١٠٣، ٥

(٧٤) المصدر السابق، عدد. أول، فى ٦ يونيو ١٨٨١، ص ٨، عدد. ٥ ، فى ١٠ يونيو ١٨٨١، ص ٧٤

(٧٥) المصدر السابق، عدد/ ٣، فى ٢٦ يوليو ١٨٨١، ص ٤٧

(٧٦) المصدر السابق، عدد/ ٩، فى ٧ أغسطس ١٨٨١، ص ١٤٤

(٧٧) المصدر السابق، عدد. ٨ ،فى ٣١ يوليو ١٨٨١، ص ١٣٠، ١٣١

(٧٨) عبد الرحمن الرافعى، الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى، ط ٤، دار المعارف ج.م.ع، سنة ١٩٨٣، ص ٥٩

(٧٩) التنكيت والتبكيت، عدد/ ٦، فى ١٧ يوليو ١٨٨١، ص ٩٣

(٨٠) التنكيت والتبكيت. نفس العدد الاسبق، ص ٩٦ وما بعدها:

(٨١) التنكيت والتبكيت عدد أول، فى ٦ يونيو ١٨٨١، ص ٧، ٨

(٨٢) التنكيت والتبكيت عدد/ ١٠، فى ١٥ أغسطس ١٨٨١، ص ١٥٥

(٨٣) التنكيت والتبكيت عدد/ ٣، فى ٢٦ يوليو ١٨٨١، ص ٤٢

فن النديم الهجائى

د. نبيل رشاد نوفل

أستاذ النقد الأدبى كلية الآداب ببنها - جامعة الزقازيق

لم يكن الهجاء من موضوعات الأدب وأغراضه الأثيرة لدى عبد الله النديم، فيما تركه من تراث ثرى ومتنوع، ومع ذلك فإذا أردنا أن نبحث عن دوافعه إلى كتابة الهجاء أحيانا، والإفراط فى ذكر مثالب بعض الناس وتضخيم عيوبهم فسوف نجد ذلك ماثلا فى نزعته العامة إلى إصلاح الأحوال فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بإرشاد بنى وطنه وتنبيه عامتهم وخاصتهم إلى ما هم فيه من غفلة سياسية واجتماعية .

ولاشك أن الروح التى بثها «الأفغانى» فى الشعوب الإسلامية، كانت سببا فى يقظة كثيرين من أبناء ذلك العصر، لكنها أحدثت أثرا مضاعفا فى عقل النديم، الذى تعلم من تردده على حلقات كل من «الأفغانى» و«محمد عبده» الثورة على التخلف ورفض المظالم السياسية بكل ألوانها، والجرأة فى الدفاع عن الحق، والشجاعة فى مواجهة أسباب القصور الاجتماعى والفكرى فى مجتمعه، وبخاصة فى مقام مقارنته بينه وبين مجتمعات الغرب.

لكن نزعة النديم إلى الإصلاح ودوافعه إلى نقد المجتمع، ما كانت لتجدى وحدها فى إنتاج فنه الهجائى، ما لم تصحبها ملكة أدبية متوهجة، صقلتها الحياة ومجالس الأدباء التى اختلف إليها فى أوقات كثيرة من حياته، كما صقلتها تجربة اشتغاله بالصحافة، التى كانت - بفضل إيقاعها السريع وطبيعة موضوعاتها - سببا فى تخففه من أسلوب السجع الذى كان أثيرا لديه.

إن وضوح نزعة الإصلاح فى كتابات النديم أمر لايحتاج إلى دليل. وقد ألمح شقيقه «عبد الفتاح نديم» مرتين إلى تلك النزعة فى كتابه «السلافة» فقال إنه «طلب تعلم صناعة التلغراف ليقف بواسطتها على أسرار الأمم فى مخابراتها والممالك فى سياساتها حتى يتيسر له المقابلة بين أحوال بلاده وغيرها من الممالك البعيدة، لعله يقدر على **إصلاح الفاسد وتقويم المعوج**»[1] ثم ذكر مرة ثانية أنه لما بدأت نيران الثورة العرابية تبدو «أصابت منه هوى فى

الفؤاد فتمكنت» لاحبا فى الهيجان، ولا شقا لعصا الطاعة، ولكن لكونه سمع رجالا تنادى بطلب الإصلاح»[٢] .

على أنه من الضرورى ألانعزل نزعة النديم الإصلاحية عن روح العصر كله، فقد كانت مصر تمربمرحلة انتقال من ظلام العصر العثمانى إلى أنوار النهضة الحديثة، التى بدأت إشراقاتها مع الحملة الفرنسية، وامتدت مواكبة لروح التحديث التى أدخلها محمد على باشا إلى الحياة العامة. وقد امتلأت عقول المثقفين ونفوسهم فى تلك الحقبة بأفكار الثورة على كل ما يعرقل مسيزة التقدم المنشود، وما صاحب حركة التحديث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من اختلالات اجتماعية، مصدرها العجلة فى تحقيق التقدم بمجرد تقليد الغربيين.

ولعل الملاحظة الأولى التى تستوقفنا عند مطالعتنا لما بقى من تراث النديم،هى شدته فى نقد المجتمع والناس، وحملته العنيفة على الأحوال التى رآها مظاهر للتأخر والقهر ، وهذه الشدة سوف تجد خير متنفس لها فى كتاباته الهجائية المباشرة، وبخاصة فى كتابه «المسامير» . ولذلك نجد أن الإصلاح المنشود فى نظر النديم لايتحقق إلا بشن حملة على كل مظاهر الفساد. مستخدما فى ذلك أسلوبه الصريح الذى لا مداراة فيه ولا مجاملة.

ولكى نقف بدقة على روح النديم فى النقد اللاذع، وقدرته الخارقة على كشف العيوب والمثالب، نقرأ طرفا مما قاله فى صحيفة «الأستاذ» ، موجهاً كلامه لمن خدعهم الاستعمار الانجليزى بأساليبه الملتوية، ساخرا من حسن ظنهم بالإنجليز سخرية مريرة، وأن مثل الانجليز ومثل هؤلاء المخدوعين «كمثل لص دخل دار قوم، وقال لهم حملونى ما عندكم من أثاث وحلى وآنية، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه مابأيديهم، يقول : هذا لص - كلا بل يقول إنه صاحب الدار، وهؤلاء خدمه»[٣].

كما نستشف الروح نفسها فيما نقرأه في صحيفة «التنكيت والتبكيت» حين تحدث ناعيا على المصريين انتشار الجهل بينهم: «وأنا على يقين من أن الجهل استعبدنا، وطردنا عن التقدم وأبعدنا ، وأكثر فينا الآمال، وأوقعنا في سوء الأعمال، فصرنا أضحوكة بين الأنام، ولعبة بين الطغام، وما أسمع إلا سوف ندرك من تقدم، وننقذ من تندم، وسنعمل عمل المتمدنين، حتى نسبق المتقدمين، ثم ما أرى إلا المزاحمة على الأبهة والظهور، والمسابقة إلى ما يقصم الظهور، وأكل لحوم أنفسنا بالغيبة. ورمى عظمائنا بالشكوك والريبة.. الخ»(٤).

ونرى في أزجاله العامية نقدا شديدا لأحوال المصريين بعامة، ومن ضاعت حياتهم في تعاطى الخمور وتقليد الأوروبيين بوجه خاص، من ذلك قوله:

يا ما نصحتك يابنجر | وقلت لك إوعا بعجر
فضلت تسكر وتفنجر | لما صبح بيتك خربان

شرم برم حالي غلبان

الحق عندك ياخويه | ياللي طليت وشك بويه
ولبست سروال بأويه | ومضيت تقلد لي النسوان

شرم برم حالي غلبان

بعنا العمايم بالطربوش | والعرى بالتوب المنقوش
صبحت بلادنا للمغشوش | مورد وصانعها ظمآن

شرم برم حالي غلبان(٥)

والحق أننا في كل آثار النديم التي أوردنا نماذج منها، أو في مقالاته أو خطبة أو رسائله أو حتى رواياته المسرحية، نجد لسانا واحدا يستخدم شتى فنون القول، تحركه روح الثورة على كل شيء في مصر، سواء في الجانب السياسي أو الجانب الاجتماعي. حتى أننا نستطيع القول بأنه – لشدته – كان

يبدو كالذى يريد الإصلاح عن طريق إشعال النار فى رذائل المجتمع ومثاليه، لكى تحترق كلها مرة واحدة ، ويتطهر من أدرانها، ويعود إلى براءته ونقائه .

وهكذا كان قلم النديم قاسيا فى كل ما كتب، وحين نتحول معه من نقد المجتمع إلى نقد الفرد، نجد أمامناكاتبا مهيئا تماما لممارسة فن الهجاء، ، كما عرفه الأدب العربى القديم وعرفته الآداب الأخرى، أى تعرية إنسان بعينه بغية كشف عيوبه وإظهار نقائصه. ولانبالغ إذا قلنا إن هجاء النديم كان متجاوزا فى شدته، فى كثير من الأحيان، كل ما عرف من قبل.

على أن النديم لم يرسل هجاءه إرسالا، ولم يطلقه ضمن مقالاته أو خطبه على نحو ما كان يفعل بإزاء سائر الموضوعات التى عالجها، بل إنه اختار للهجاء - وكله من النثر المسجوع - شكلين من الأشكال الأدبية التى شاعت فى الأدب العربى القديم، وكتب لهما استمرار الشيوع، أو استعادته، فى العصر الحديث، وهما شكل الرسالة الأدبية وشكل المقامة .

ولايفوتنا أن نذكرأن اختيار قالب شكلى تراثى للهجاء على هذا النحو يدل على أن النديم، برغم انشغاله الشديد بقضايا عصره، لم ينفصل عن التراث القديم، ولم يجعل كتاباته مجرد ثرثرة غاضبة ضد بعض الناس، بل وضعها فى صورة أعمال أدبية حقيقية توافرلها الشكل والمضمون كما يتوافر للأعمال الخالدة. .

أولا: شكل الرسالة

إن الرسالة، والمقصود بها ما عرف فى الأدب العربى باسم الرسالة الإخوانية، خطاب موجه إلى صديق للمرسل فى شأن يخصه، ويخرج عادة إلى قضايا أخرى خاصة أوعامة، كما كان الجاحظ يفعل فى رسائله .

وشكل الرسالة يؤكد معنى الاقتراب من الآخرين، وعرض الأمور فى حضور

الروح الإنسانية المشتركة، ومواجهة الحياة من خلال التواصل الحميم .

وفى الجزء الأول من كتاب «السلافة» رسالة وجهها النديم إلى اثنين من أصدقائه بالمنصورة هما محمد أفندى كمال وأحمد أفندى على رئيس قلم المبيعات بالدائرة السنية، وكانا قد أكثرا من لومه لعدم الكتابة إليهما، وكان النديم ينزل فى تلك الفترة التى كتب فيها الرسالة ببلدة من أعمال الدقهلية اسمها «بدواى»[٦]. واتخذه عمدتها معلما لأولاده. لكن الأمور فسدت بين النديم وبين أهل البلدة جميعا، ووجد أنه لم يعد يرى فيها «إلا بعران اليعملات، ولايسمع إلا سفاسف الخزعبلات، من قوم يحتاجون لترجمة السلام، فضلا عن الكلام، قلوبهم غلف، وألسنتهم قلف، وصورهم أفظع من صورة نعش، وطباعهم أغلظ من طباع وحش، مشائين همازين، غمازين، لمازين، أشد نفاقا من نافقاء اليربوع، وأشأم من أربعاء الأسبوع، وأبكى من عيون ينبوع، وأنكى من وقوع مبتوع، من تميمى رأى مأدبة.. عالمهم أضل من إبليس، وصالحهم بادى التدليس»[٧].

ولماكانت الرسالة فى أصلها اعتذارا لصديقين، فإنه لم ينس أن يذكرهما بكلمات المديح، فقال ذاكرا صديقه أحمد أفندى على : «أحمد الناس حقا، وعلى القدر صدقا»[٨] ثم تحدث عن الصديقين معا فقال : فسهل للنهى مجاراة بحرين، أو للنجم معارضة بدرين، فأقول ما لايبتدع، والحق أحق أن يتبع، إنى مقصر فى الخدمة، ولست ناقصا الذمة، مغترف من الإهمال بذنوبى، مقر لخليلى بذنوبى، ملتمس من كل عفوه»[٩] .

وفى الجزء الأخير من الرسالة يوجه نار هجائه إلى خصمه، الذى تحكم فى البلدة، مع أنه ليس أهلا لفضل أو مزية، بل هو جدير بكل نقيصة ومثلبة. يقول النديم : «اجتمعت عليه مرة، فوجدته فى عيشة مرة، ينهب الكحل من الأجفان، ويخطف الثريد من الجفان، إن جاءته طالق بالثلاث، خلط فى الألفاظ وعاث،

ونص فتواه، الشبيهة، بنجواه، فى مذهب القمام، البراقة كالحرام، والزوج قد قذنب، وصارعليه قرنب، وعشرة تشلاق من الديس، وعقدتين دريس وقفتين تبن، وقرصين جبن، والمرقة بعد الحيض، عليها، مرجونة بيض، وقالب زبدة، وطاقية لبدة، وصارت رادّون ، بعد ما كانت طالقون، والله قعلم»[١٠].

ونلاحظ أن النديم، بهذا الإسلوب، يصل إلى نضج غريمه ليس عن طريق الطعن فى خلقه ومروءته فحسب، بل بوضع ذلك فى صورة تعتمد على روح الفكاهة والتصوير الساخر، مما يجعل الكلام أعمق أثرا وأشد فاعلية. ولعلنا لاحظنا أن هذه الطريقة تمثل الروح الغالبة على كتابات النديم حتى فى موضوعاته السياسية والاجتماعية العامة. غير أن الرسالة فاقتها جميعا بخصائصها الفنية المترابطة.

ثانيا: شكل المقامة

إذا انتقلنا إلى شكل المقامة فى كتابات النديم[١١]، فإننا ننتقل فى الحقيقة إلى أشد أشكال الهجاء الفردى عنفا وأكثرها إمعانا فى السخرية والاستهزاء، وإذا كان من الممكن أن نعد المقامة - فى صورتها التقليدية - شكلا من أشكال القصة، فإنها - وهى تتضمن التراكيب الحكائية فى نسيجها - تعين القارىء على استيعاب المضامين المتنوعة، الأخلاقية والاجتماعية واللغوية والدينية، التى تدور حولها عادة. وهذا ما أدركه القدماء عن حقيقتها، فقال عنها ابن الأثير: «المقامات مدارها جميعا على حكاية تخرج إلى مخلص»[١٢].

وقد أتاح الشكل القصصى للنديم أن يعمق تأثير هجائه فى كتابه الموسوم بـ «المسامير» وهو الكتاب الذى أراد به ذم «أبى الهدى الصيادى» أحد رجال حاشية السلطان عبد الحميد فى الآستانة، وهو رجل استطاع بدهائه أن يسيطر على أفراد الحاشية، وأن يمسك بيده مقاليد الحكم، وتكون له السلطة الحقيقية فى حاضرة الحكم العثمانى. وكان فساد «الصيادى» هذا قد تجاوز

الحدود فى نظر النديم، فهاجمه بأقذع الألفاظ وتناوله بأبشع النعوت، بل إنه استكثر أن يسمى مثل هذا الرجل« أبا الهدى» فكنى عنه باسم «أبى الضلال».

جعل النديم لكتابه «المسامير» الشكل النمطى للمقامات، من حيث وجود راوية يقدم الأحداث، هو «الشريف أبو هاشم»، وبطل هو «الشيخ مدين الشهير بأبى القاسم». كما تأثر بما فعله القدماء، من أمثال الهمذانى والحريرى، فى جعل المقامات سلسلة من المواقف التى يميل بعضها إلى الجد والآخر إلى الهزل، وتحتشد فيها المواعظ والنوادر والأمثال والرسائل. كما تتفاوت بين طريقة سرد الحكايات من جهة، وأسلوب معالجة القضايا العقلية والاجتماعية والدينية، من جهة أخرى. وهذه الطريقة المركبة هى التى جعلت «الشريشى» يصفها بقوله إنها تنتقل «من حكاية فائقة إلى قضية زائفة»، ومن موعظة تبكى إلى ملهية تسلى، وفى ذلك تنشيط وترغيب فى قراءتها، ونفى للملل والكسل عن قارئها»[١٣].

وبرغم أن هذه الخصائص قد تحققت فى كتاب «المسامير»، فإن النديم لم يجعل مقاماته فى صورة مطابقة للصورة التراثية، لأنه حاول أن يصنع عملا متضافر الأجزاء موحد المضمون، تترابط مقدمته مع فصوله ترابطا عضويا يخدم فكرة واحدة هى سيرة حياة «أبى الهدى الصيادى» ، كما رآها النديم تحت مجهر الذم البالغ .

على أنه من الجدير بالملاحظة أن فكرة التضافر والترابط بين الأجزاء ليست تامة الوضوح فى الكتاب، لسبب بسيط هو أن ما بأيدينا ليس الكتاب كله وإنما الجزء الأول منه فحسب، وليست فى التراث المنشور أجزاء أخرى. مع أن السياق فى هذا الجزء الأول يوحى بوجود أجزاء أخرى تكمل سيرة الحياة التى بدأها عن «أبى الهدى الصيادى» وكان الجزء المنشور مجرد بداية يحكى فيها الراوية عن نسب «الصيادى» وأبيه وأمه، وكيفية ميلاده فحسب[١٤].

في المقدمة يقول النديم موضحا موضوع كتابه كله : «يا من خلق الخلق كما شاء، وقرب من أحسن وأعبد من أساء، لك الحمد على نعمة الإيمان، والتوفيق للخير بمحض الإحسان، وأسألك، أن تصلى على ذى المعجزات والخصائص، سيدنا محمد المنزه عن النقائص، وعلى آله المطهرين عن الرجس والأدناس، وأصحابه ومن حذا حذوهم من خير أمة أخرجت للناس، كما أسألك العون على تحرير ما وقفت عليه، وإنجاز ما حققته بالوصول إليه، من أعمال إبليس، وخليفته التعيس[١٥]، تبصرة للأحباب، وعبرة لأولى الألباب، حتى لايقع فى شركهما حى، بعد تبين الرشد من الغى، صائغا ذلك فى مسامير، هى لصياد الضلال[١٦] مطامير،. إذا رآها أهل الغواية أقلعوا عنها إلى الهداية»[١٧].

ثم يبدأ «المسمار» الأول بعنوان : (فى اجتماع العارف بالله بإبليس طريد الله)، والعارف بالله هو بطل مقاماته «الشيخ مدين أبو القاسم الشهير بالعارف بالله» ولاشك فى وجاهة العلاقة التى أقامها النديم بين إبليس من جهة وأبى الهدى الصيادى من جهة أخرى - فإبليس فى هذا الفصل، فى تصوير النديم، يندب حظه وينعى أيام سطوته على بنى البشر، بعد أن فاقه خليفته أبو الهدى، في تضليل الناس وغوايتهم، حتى أحس إبليس أنه كاد يفقد دوره الشيطانى فى الغواية.

ويحكى العارف بالله أبو القاسم بطل المقامات أنه قضى أربعين عاما فى العبادة لم يخطر له فيها وسواس من الجنة والناس، فأخذه العجب مع علمه بأفاعيل إبليس اللعين، فقام يسأل عنه، وطاف مشارق الأرض ومغاربها، إلى أن التقى بشيطان من ولد الجان أرشده إلى مكان إبليس، فإذا هو منزو فى كهف، كيف البال يعانى القهر والضعف، والهوان. وما إن أبصر أبا القاسم حتى بادره بقوله:«أنا إبليس الرجيم، أنا الكئيب الحزين، أنا الضعيف المسكين، أنا اللعين على كل لسان، أنا المظلوم من بنى الإنسان، أنا المصاب بما لو صب على

الجبال لفتتها وألحقها بالرمال، أنا مسئول بالسلطة والسطوة، أنا المتعثر في كل خطوة»(١٨)

ودهش أبو القاسم دهشة بالغة مما سمعه، وسأل إبليس عن سبب ما أصابه قائلا :«ما هذا الخوف والفزع، والفرق والجزع، أين قوة قلبك، أين جرأتك على ر بك، أين ما كنت فيه من العدوان، أين تلاعبك ببنى الإنسان، أين قوتك التى دخلت بها الشرايين، فى كثير من العالمين، أين حيلك الخفية، أين شباكك الوفية، أين تملقك ، أين تسلفك، أين تكبرك، أين تجبرك، أين تعاظمك على آدم، أين قسمك على إضلالك العالم»(١٩).

فرد عليه إبليس متخاذلا..: «بينما أنا فى فرح وسرور، بما أجلبه من المصائب والشرور، بليت بداهية دهياء، ومصيبة عمياء، إذ طرق الوجود ضليل تعيس، من نسل كنعان لا من نسل ولد إبليس، فالتزمته وأوبته، وعلمته التشيطن وهذبته، فعاد إلىَّ وأضلنى عن الرشاد، وأوقعنى مع جندى فى الفساد، ولى معه قصة، أنا منها فى غصة، وهو سبب حزنى وعنائى، وجالب همى وبلائى»(٢٠).

وبعد هذا التشخيص البارع لحالة إبليس وتعطل وظيفته الأزلية بسبب ظهور أبى الضلال ، نجد النديم فى «المسمار الثانى» يمضى إلى لب فكرته وهى تفصيل القول فى حلول «أبى الهدى الصيادى»، محل إبليس فى غواية الناس وتضليلهم، حتى إنه جعل إبليس نفسه من ضحاياه. وبذلك ينقلب حال رئيس الشياطين، بعد أن كان جالب الشرور والآثام للبشر، سعيدا بما يفعله بالناس، منتشيا بسطوته عليهم، إذا بسعادته هذه تنقلب تعاسة بعد أن ظهر من فاقه فى الشر وتجاوزه فى مواهبه الشيطانية .

وكان من الطبيعي بعد هذا التقديم الطريف لخليفة إبليس، الذى فاق سلفه فى الشر، أن يعرض النديم لشخصية «أبى الهدى الصيادى» حتى نتبين خصاله الخبيثة. ولم يجد النديم من يخبر عن نشأته خيرا من إبليس نفسه، فهو

أكثر الخلق علما به وبأبيه وبأمه، فجميعهم من صنائع الشياطين وأتباع الشر والضلال. روى إبليس للشيخ أبى القاسم فى «المسمار الثالث» عن والد «أبى الهدى» : «بينما أنا فى السياحة بين الأنام، مررت «بزعيترة» قرية من قرى الشام، عرفت فيها رجلا من الشطار، وكبار الدعار، يسرق الكحل من العين، ويخطف النار من يد القين، أميا من أجهل الجاهلين، لايفرق بين الدين والطين.»[٢١]

واستطرد يسبغ عليه أشد الصفات بشاعة ووضاعة، بألفاظ تجمع بين السخرية الشديدة والذم الشنيع. وهكذا يجعل النديم من والد «أبى الهدى»، وقد أسماه: «زنطوط بن خرشنه» ، ممثلا لنسب لايجلب سوى المعرة والخزى، وقد قال عنه شعرا:

نسب عليه نجاسة وظلام

بالت عليه لقبحه الأنام

نسب لو أن الكلب ألزمه عوى

وتحركت فى بطنه الآلام

نسب يخاف اللؤم أن يعزى له

ويفر منه أسافل وطغام

ما جاء منه سوى لئيم فاجر

آباؤه دون الأنام لئام[٢٢].

أما أم «أبى الهدى الصيادى»، وقد أسماها النديم «عمشاء أم مطعون» ، فكان قد اختارها زوجا لوالد المهجو صياد أفاع يسمى «الشيخ رجب»، وقد راح هذا الشيخ يزين للمرأة الزواج بزنطوط، قائلا: «بشرى فقد وجدت لك زوجا

عنيدا، شيطانا مريدا، فتاكا قتالا، سراقا ختالا، مجرما عاتيا، مفسدا عاديا، علجا عنيفا، جلفا كثيفا، أسود الوجه والعمل، لا ناقة له ولا جمل، ولا مروءة ولا همة، ولا دين ولا ذمة، ولا عرض ولا شرف، ولا بيت ولا غرف، ولاغيرة ولاحمية، ولا صفة له إلا اللصوصية، فهو كأبيك الهالك فى قطع المسالك، أنفه كالبرج، وبطنه كالخرج..»[٢٢]. واتبع ذلك بحشد من صفات هذه المرأة لاتقل - إن لم تزد- عن الصفات التى ألصقها بالأب، وكلها من باب السباب السوقى البذىء.

وخصص النديم «المسمار الرابع» لوصف هزلى فاحش لعرس هذين الشيطانين. ثم وصف فى «المسمار الخامس» كيف كانت أشهر حمل الأم الملعونة فى «أبى الهدى الصيادى» ، وأنها كلها كانت تنذر شؤم وبلاء على البلاد والعباد وفى «المسمار السادس» يصف ولادته التعيسة ، وكيف أن الشياطين قامت بتوليد أمه عندما غابت القابلة:

ولاشك أن الفصول الستة الأولى من كتاب «المسامير» قد انطوت على صفات وألفاظ فاحشة يعف القلم عن نشرها وكان فى وسع النديم أن يستعين بالسخرية والهزل القبول بديلا عما كتب، وبراعته فى ذلك تشهد عليها كتاباته كلها. ومع ذلك فلم يكن النديم ممن يمضون فى هجاء الناس إلى مالا نهاية، بل إن الهجو لم يكن من شيمه، وربما كان يمثل نزوة عارضة بين الحين والحين. ويؤيد ذلك أنه لما كان فى يافا أول مرة بعث إلى أخيه أن يوافيه بديوان شعره الأول من صديقه «عبد العزيز بك حافظ»، فلم يستطع. ثم بعث يطلب ديوانه الثانى من صديق آخر، فاعتذر بأنه ضاع. فبعث إلى أخيه قائلا إنه ما طلبهما إلا ليحرقهما **لأن فيهما هجوا كثيرا**[٢٣].

يضاف إلى ما سبق أن النديم فى الفصول الثلاثة الأخيرة من كتاب «المسامير» أخذ يصوغ الهجاء بلهجة معتدلة لا أثر فيها للإسراف الذى ساد الفصول الستة السابقة. وقد استطرد النديم فى الفصول الثلاثة المذكورة فى

الحديث عن العقيدة الإسلامية. ويورد الحجج والبراهين المفصلة عن وحدانية الله، وأن إبليس يعمل على تفريق مجتمع الإسلام بدس الشبه والأوهام بين أفراده، وأنه لما عجز عن رد آيات القرآن الكريم أوعز للناس معارضة الوحى بالعقليات لإضعاف اعتقادهم، وقام ببذر بذور الفرقة بينهم فحلت البغضاء بدل المحبة وانقسموا فرقا متخاصمة متحاربة.

وهذا الاستطراد الذى خرج إليه النديم فى الفصول الثلاثة الأخيرة من كتابه لايخدم الفكرة الأساسية لهجاء خصمه،بعكس ما جاء فى الفصول الستة الأولى. وهو يشبه فى ذلك ما درج عليه أصحاب المقامات من تلوين كلامهم بألوان متباينة تنتقل من اللهو إلى الحكمة، ومن الهزل إلى الجد، ومن الفحش إلى التعفف، كما قدمنا فى تعريف الشر يشى لفن المقامات.

ولعل «المسامير » لو اكتملت ، كما وعد ناشر الجزء الأول، لكان الحكم عليها، وعلى فن الهجاء عند النديم قد اختلف عن ذلك.

هوامش البحث

١- عبد الله النديم : «سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله النديم» جمع شقيقه عبد الفتاح نديم. طبع بالمطبعة الجامعة على نفقة شقيقه سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م،ص٤.

٢- المرجع نفسه: ص٨.

٣- صحيفة الأستاذ - القاهرة في ١٧ يناير سنة ١٨٩٣، ص٥١٧.

٤- صحيفة التنكيت والتبكيت - القاهرة في ١٠ يوليو سنة ١٨٨١، ص٨٤.

٥- المرجع نفسه في ٧اغسطس ١٨٨١ ص١٤٩.

٦- سلافة النديم : ص٥٧

٧- سلافة النديم : ص ٥٨، ٥٩.

٨- سلافة النديم : ص٦٠.

٩- سلافة النديم : الصفة نفسها

١٠-سلافة النديم: ص٦١.

١١- لم نقرأ للنديم سوى مجموعة واحدة للمقامات صاغها في كتابه «المسامير» ولما كان شطر كبير من كتابات النديم قد صاغ لظروف متعددة، فإننا لانستطيع أن نقطع بأنه لم يكتب في شكل مقامات سوى كتاب «المسامير» أو على الأقل الجزء الأول المنشور منه.

١٢- ابن الأثير : المثل السائر : تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوى طبانه - نشر دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٧٣ ط٢- ٣٩/١

١٣- الشريشي: شرح مقامات الحريري - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع-القاهرة ١٩٦٩ - ٣٢/١.

١٤- وهذا ماأشار إليه الناشر في تقديمه للكتاب، حيث ذكر أنه سوف يصدر «المسامير» جزءاً جزءاً. كتاب «المسامير» برواية الشريف أبي هاشم عن الشيخ مدين أبي القاسم. الشهير بالعارف بالله - الجزء الأول تاليف فقيد الأدب والتحرير المرحوم السيد عبد الله أفندي النديم الإدريسي الشهير - اعتنى بطبعه الشريف: ن. هـ. م - مصر بدون تاريخ الصفحة : هـ.

١٥- هو أبو الهدى الصيادي كما ذكر النديم بعد ذلك.

١٦- يقصد أبا الهدى الصيادي أيضا.

١٧- المسامير : ص٢

١٨- المسامير : ص٨

١٩- المسامير : ص١١

٢٠- المسامير : ص١٨

٢١- المسامير : ص ٢٠

٢٢- المسامير : ص٢٦، ٢٧

٢٣- السلافة: ص ١٥- ١٦.

فن المقامة النديمى

د. مصطفى الصاوى الجوينى

الأستاذ المتفرغ بكلية الاداب جامعة الإسكندرية

صور عبد الله النديم مضامينه الفكرية في تشكيلات أدبية تنوعت بين الخطبة والرسالة والمقالة والمقاومة والتمثيلية، والشعر والزجل.

وتناول أدبه الفصحى والعامية وأحسب أن النديم كان يشكل فكره في النوع الأدبي، الذي يراه ملائماً له وأصحاب الفكر المبدعين لا يلتزمون دوما تفصيلات النوع الأدبي الذي يصبون فكرهم فيه.

ويقنعون بالمعالم الفنية الرئيسية للأنواع الأدبية لأن همهم الأكبر هو المضمون وعبد الله النديم أحد هؤلاء.وقد اخترت فن المقامة عنده من بين إبداعاته الأدبية للعوامل الآتية :

أ – إن المقامة لم تأخذ حظها من الدرس في أدبنا العربي.

ب – وأن مجرد تحديدها يحتاج إلى مراجعة، قالوا إنها (فن الكدية) والأصح أنها فن التصوير الاجتماعي، هذا في بواكير نشأتها بينما تعددت بعد ذلك وظائفها .

جـ – ولقد قام بناؤها الفني بداية على عناصر: الرواية، والبطل، والسرد والحوار، لغتها موسيقية زخرفية، مرصعة بالقرآن، وموشاة بالشعر. وخضعت المقامة للتحول المستمر الذي يدور مع الزمان والمكان ومع المبدع نفسه.

ولنعرض للمقاومة في شريحة زمنية قصيرة، ومع ثلاث بيئات:

أ – ففي بيئة العراق الأقصى نجد بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري ينضج فن المقامة وفي القرن الخامس يضيف الحريري من خفة ظله، وجميل زخرفته وحلاوة موسيقاه اللفظية ما جعله فارس فن المقامة، وفي القرن الخامس نفسه وفي بيئة بغداد نجد ابن ناقيا يجعل من المقامة

شكلاً أدبياً مضمونه فلسفي. وفي بيئة فارس يغير الزمخشري شيئاً من معالم المقامة فيحيلها إلى سيرة ذاتية هو راويها قاصداً بها الترقيق والوعظ. وفي بيئتي مصر واليمن في القرن السادس الهجري، تتحرف عن المسار الأدني وتصبح فحسب شكلاً يحوي علوم العصر ومعارفه عند علي بن الزبير الأسواني المصري وعند نشوان الحميري.

ولعل في تلك الإشارات ما يكفي لبيان أن المقامة كانت سريعة التحول والتغير في البناء الفني وفي الوظيفة والاتجاه وهذا عين ما نلمحه في مقامات النديم، إذا كانت عنده متغايرة في بنائها الفني، الداخلي وإن تشابهت في مظهرها الخارجي.

١- هناك عناصر أساسية فيما رأيناه من مقامات عند النديم وذلك في كتابه المسامير ونختار منها المسمار الثاني وأحد عناصره المقامية المعنون (في سرد قصة إبليس إلى العارف الرئيس) الراوية (الشريف أبو هاشم)

والعنصر الثاني هو: المملي (العارف بالله أبو القاسم) وهذان العنصران يتكرران في المقامة الثامنة وعنوانها: (في إيراد إبليس البرهان على وحدانية الرحمن) وفي المسمار التاسع الذي جعل عنوانه:

(في تفريق إبليس مجتمع الإسلام بدس الشبه والأوهام) يخلو من الراوية والمملي ويكتفي فيه النديم بالحوار بين إبليس والعارف بالله. وفي مقامة (التنور المسجور في المفاخرة بين السفينة والوابور) نجد الحوار يدور بين السفينة والوابور.

وهكذا نجد أن عنصر السرد والحوار القصصي ثابت الدوران في مقامات النديم بينما الراوية والمملي يبرزان في المقامات حيناً ويختفيان أحياناً.

ولعل عنصر المملى عنصر فنى مضاف فى فن المقامة من ابتداع عبد الله النديم

السرد: أما عنصر السرد فهو العنصر الغالب الذى يسود مقامات النديم ويلونها بلون القص والحكاية ولنمضى مع النديم فى مسماره الثانى يسرد

أ- لما أصبح الصباح بكى إبليس وناح - ثم كفكف دموعه عندما هدأت روعه) .

ب - نموذج ثان هو سرد إبليس حواره مع الله (بينما كنت ألا طف بين الملائكة وأنادم قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم وعمم الأمر فى أهل الرحاب وأدخلنى ضمن. الخطاب فعصيته فى حضرته وأنا أعلم باهز قدرته وجادلته جدال العنيد وأنا أعلم أنى من جملة العبيد ومن غير يجادل مولاه...

يقول (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى. وأنا كاره لا ستعلاء آدم على. فقلت قول الشياطين. أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) وطال الجدال. إلى أن قال: اخرج منها مذموما مدحوراً.

ثم يأخذ النديم ما تناثر من حوار بين الله وإبليس فى سور متفرقات.

ج- ثم يسرد إبليس قصة تلميذه الذى تأبلس عليه (وبينما أنا فى فرح وسرور بما أجلبه من المصائب والشرور. بليت بداهية دهياء. ومصيبة عمياء. إذا طرق الوجود ضليل تعيس. من نسل كنعان لامن نسل ولد إبليس. فالتزمته و أدبته وعلمته التشيطن وهذبته فعاد إلىّ وأضلنى عن الرشاد وأوقعنى مع جندى فى الفساد. ولى معه قصة. أنا منها فى غصة. وهو سبب حزنى وعنائى. وهو جالب همى وبلائى .

وقد برز الحوار فى هذا الجزء من المقامة الثانية مرة واحدة والذى جرى على النحو التالى- قال العارف بالله :

اشف مني الغليل بسرد قصتك مع هذا الضليل.

- فقال قصتي طريلة عريضة. وبنيتي لم تزل مريضة. فانظرني ثلاثة أيام. حتى تخف بمؤانستك الآلام. وبعدها أخبرك خبر هذا التعيس. لتعلم أنه أحق باللعن من إبليس.

وينهي النديم مقامته بدعاء إلى الله أن يجعل تلميذه المتأبلس فدى له في النار يقول شعرا، والشعر عنصر من عناصر المقامة وهو تقليد أدبي من تقاليدها:

أصبحت أرجو رحمة الغفار	*	بوجود هذا الفاجر الكفار
قد عطّل الملعون كل وظائفي	*	من وقفة الديوث للخمار
لو كنت أعلم أن ذلك كائن	*	لسجدت طوع الأمر للقهار
إذ لا لزوم لنا وذلك حاضر	*	فهو الخبيث خلاصة الأشرار
يارب أنت العدل فاحكم بيننا	*	أأنا أم الملعون أهل النار

وإذا كان مامر بنا في المقامة السابقة السرد عنصر غالب فيها فإن الحوار في هذه المقامة الثامنة (في إيراد إبليس البرهان على وحدانية الرحمن) هو العنصر السائد ويبنيه إبليس على أساس عبارة أقول ويعني بها تلبيساته وشبهه وحوار القرآن ويسبقه (فيقول) :

ومثاله :

- أقول: لكل إنسان أن يسمى أي شئ إلها بلا نكير ولا لوم.

- فيقول: الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

- أقول: هو الله وله شركاء من كل حي.

- فيقول: الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يعقل ذلكم من شئ.

- أقول: هو الخالق ولكنه ترك للطبيعة التطويل والإنشاء.

- فيقول: الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء.

- أقول: ترك للأرحام التطويل عند اعتدال المزاج للحفظ والإنماء.

- فيقول هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء.

والملاحظ هنا على عبد الله النديم أنه قد يسوق الآيات خارجاً بذلك عن بنائه الفنى لأوزان العبارات.

وإذا كان عنصر الحوار فيه أخذ وعطاء بأسلوب البرهان والمنطق أو المغالطة فقد جرى أسلوب النديم على نحو تقريرى سرعان ما تدب فى العبارة بعد ذلك حيوية الفن حين يعرض النديم تقديم أساليب الحيلة والتشكيك عند إبليس الذى أزعجه أن يرى العباد يقرون بالوحدانية وللإله بالعبودية.

يقول إبليس شارداً:

«فأى صبر أراه لى مطاعا، وأنا أرى الناس يدخلون فى الإسلام سراعا، حتى صار ربع العالم من ذوى الألباب، متعبداً بما جاء به هذا الكتاب وإذا اقتربت من عابد استغفر، وأن وسوست لغوى استنفر، وتاب عن ذنبه وأقلع، وتركنى أنزع تزعى وأقلع، وطالما حاولت صرف أولى الألباب، أو تغيير حرف من هذا الكتاب، فتقطعت أسباب حيلتى وفكرى، وحادت عن الغرض سهام فكرى».

ثم يبث حزنه الدفين فى شعر ينطقه على لسانه نختار منه أبياتا وأن كان يغلب على هذا الشعر سمة النظم يقول إبليس:

وحى كنور الصبح فى صحو السما

ما أنكرته سوى قلوب ذوى العمى

ما كان للأمى أن يأتى به

من عنده فأخو القراءة أفحما

قهر الجميع محمد بكتابه

لما أحال على العقول وحكما

ما قادنى فى شل آدم غيره

لولاه ما كان الوجود تقدما

ثم انطوت أيامه وكتابه

يتلى ويخصم جاحدا متجرما

حفظوه فى لوح القلوب تعبدا

فعجزت عن تغييره لمن انتمى

وفى المقامة نجد المحاور طول الوقت هو إبليس ماضيا فى سرد شبهه يقول العارف بالله :

ماذا أحدثت من التدليس، بعد مجئ القرآن، بهذا البرهان.

فيقول إبليس:

«فإنى لما عجزت عن رد هذه الأيات فتحت للناس معرضة الوحى بالعقليات لأضعف اتقادهم فى الوحى المبين بالحدس والتخمين».

ويأخذ إبليس في سرد تساؤلات تعد تدخلا في حكمة الله وولوجا لحرم لا ينبغي الاقتراب منه فالإيمان والمقدور على العباد ليس محل سؤال يقول إبليس في أسئلته «ثم إنه لعنني وأخرجني من الجنة، وجعلني مطروداً مع الجنة، وأنا ما أتيت بقبيح من الأفعال أو الأقوال وإنما قلت لا أسجد لغير ذي الجلال وحيث إنه أشقاني وما أسعدني وطردني من رحمته وأبعدني فلما سهل لي الوصول إلى الجنة، حتى وسوست لادم وحرمته من تلك المنة، وما الحكمة في تسهيل هذا الدخول، ولو منعني لبقي آدم خالداً فيها تعذر الوصول، سلطني على أولاده من بعده، وجعل وسوستي ملهية لهم عن وعيده ووعده، وما الحكمة في ذلك ولو تركهم على الفطرة لحفظوا من المهالك وإن سلمت أن هذا كله لحكمة، ولم أبد في المعارضة كلمة، فلم انظرني إلى يوم يبعثون، ويسرد إبليس قصة إضلاله للعباد في الدين، والمعتقد بدأ مع البشرية بعبادة المحسوس وانتهى بعد الإسلام بشبه العقول يقول ساردا دوره في صناعته لأديان أهل الضلال ومعتقداتهم:

«حيث علّمت الناس مقابلة الأمر الرباني، ينظر العقل الإنساني، وطلب العلة في الكون والفساد، والبحث في حكمة الإعدام والإيجاد والوقوف بالمعقولات، عند ظواهر المحسوسات وإرجاع معجزات الأنبياء إلى الشعوذة والسيمياء ترجع إلى قولي أكثر الناس وأوقعوا غيرهم في الشك والالتباس، حتى امتلأت الأرض بالأديان المتعددة، والمذاهب المتجددة، وخفي الحق إلا على القليل فمن عرفوا الله بالبرهان والدليل فما جاء دين الإسلام دخلت بالعقليات فتشعبت الأفكار وظهر الطعن والإنكار وانقسم الفريق الواحد إلى فرقاء، وتخاذل الإخوان والأصدقاء).

ثم يصور إبليس كيف تشققت هذه الأصول العقلية إلى فروع عارضاً لتاريخ أمهات الفرق الإسلامية يقول سارداً ومؤرخاً :

«وكل فرقة صارت أصلا لفروع. خالف فيها التابع المتبوع. فقد انقسمت المعتزلة والقدرية إلى جهمية وغيلانية. وواصلية وعبيدية وهذيلية ونظامية وأسوارية وإسكافية وحائطية وحدثية وبشرية ومعمز ية وثمامية ومزوارية.

ويعلن حقيقة انقسام الفرق الإسلامية إلى نحو مائة وثلاثين فريقا كل يفكر الآخر يقول السارد المؤرخ أبليس:

«ومن هذا ترى أن الأمة انقسمت فى أصولها إلى مائة وثلاثين، وقد تفرع من كل أصل فروع للمبتدعين وكل فرقة تدعى الحقية، وتكفر البقية. وبعضها يضلل ويفسق. ويبعد الغير ويفرق. وما التزمه أهل المذاهب من التفريق وهو عين الذى التزمه أهل الطريق.

فامتلأت القلوب بالعداوة والبغضاء. ووقف كل لصاحبه على الرمضاء. هذا يفسق ويكفر . وذا يفرق وينفر. وآخر يسب ويلعن. وغيره يعارض ويطعن، وأنا واقف أتفرج على من خالفوا القرآن. واستغلوا بالوهم والهذيان. وتركوا سنة نبيهم ظهريا. وعدوا اجتماع شملهم شيئا مزيا والكل يلعننى بلسانه وينفضنى بحنانه وهو لا يعلم أنى عاجز عن فعله. برئ من مبتدع قوله.

وبعد أن شرح إبليس المقام سارداً ومؤرخاً للدين والعقيدة منذ فجر البشرية إلى اليوم هنا يقوم العارف بالله ليطلب من إبليس أن يعرفه بالفرق والأفكار المبتدعة وهو صانعها ومخترعها ليواجهه بحقيقة أنه سنى يهتدى بنورين هما القرآن والسنة. قال العارف بالله لا تحرمنى من هذه الفوائد وأخبرنى بما لهم من العقائد فإنى سنى لا أدين بغير القرآن. وما جاء به سيد ولد عدنان. وكل عقيدة خالفت هذين الأصلين. فهى عندى لا أثر ولاعين وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا».

أما المقامة الرابعة فتعثر عليها بين حشد من إبداعات النديم فى «سلافة النديم» وهى وإن كانت معنونة لمفاخرة بين السفينة والوابور.

وتحتوى على العناصر الأساسية التى ينهض عليها بناء المقامة من حيث الحوار الذى يأخذ نهج المحاورة ومن حيث السرد، من حيث التطعيم بالأسلوب القرآنى.

- ويبدأ النديم مقامته مفتخراً بأدبه بعبارات رشيقة تخطر فيها تخطر من يملك البيان ويقتدر على التصوير بالكلمة حديقة معانى. ونادى مغانى. وبستان أفكار. به قصور أبكار وجياد تجرى بفوارس الألباب. وعروس تجلى وكانت دونها أبواب

تسحر اللب أن تأمل فيها	بمعان تمر خلف معانى
رافعات على البديع بنودا	ساحبات على البيان يمانى
مثل جيش أجابه النصر يوماً	فتوالى كأنه الملوان

- والنديم شأنه شأن كل أديب أصيل يبحث عن الجديد والطريف ففى باب المحاورة أو المفاخرة لم يجد فى تراثنا الأدبى القديم وهو المتمكن فى فهمه وذوقه - أي إبداع يعرض للمفاخرة بين السفينة والوابور. والوابور من مخترعات العصر الحديث (أرسلت فكرى فى ميدان المفاخرات. ودخلت به حومة المحاورات. فرأيت كل ضد زاحم ضدا - وكل لبيب نظم منهما فوائد وعقدا. إلا السفينة والوابور فإنهما لم يتفاخرا فى منقول ولا مأثور وليس لهما ذكر مسطور).

- تبدأ البداية الفعلية للمقامة بأن شخص النديم السفينة فيقول: (فشمرت السفينة عن الذراع. وسحبت طرفها ونشرت الشراع. واعتدلت ومالت. وابتدأت

وقالت حمدا لمن اسبغ على عباده جزيل الإنعام، وسخرلهم من فضله السفن والأنعام. وجعلهما مطيتين لحمل الأرزاق والأثقال، وحافظين للذخائر عند السفر والانتقال. وامتن بهما على عباده وهو عليم بما يصنعون. فقال تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون).

ثم تفتخر بذكرها فى القرآن صريحاً، وصناعة النبى لها بأمر من الله (وكان البحر قبلى ظلمة ماطلع لها فجر. ولا انشرح لها صدر. بل غرضا ما أصابه سهم. ومعنى ما ترقى له وهم. حتى آمر الله نبيه نوحاً بصنعي. وعلمه تركيب ضلوعى عند جمعي.

فبذل فى جهده، وباشر عملى وحده. وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فقال تعالى واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون. فاستمر حتى أتم عمله. وحقق رجاءه وأمله..)

ويمضى النديم فيخص السفينة ويجعلها تتمدح بأصلها ونسبها كما يتمدح بنو الإنسان على مدى الأزمان (فمن له أب كأبى، ومن قبلى صنعه نبى فمجدى شامخ ومجد غيرى متهدم. والفضل كل الفضل للمتقدم).

وانتقلت المحاورة إلى «الوابور» وشخصه النديم منفعلاً ثائراً حين سمع السفينة تزهو بنسبها (.. فالتهبت أحشاء الوابور بفحم الحجر. وصعدت أنفاسه مشبوبة بشرر. وزمجر وكفر. وصاح وصفر. وجرى حتى خرج عن الشريط. وقال السكوت على هذه من التفريط. ثم كر بعجله وجال).

– الوابور يفخر بذكره فى القرآن وهو لم يزل فى عالم الغيب ثم يتحث أن مادته من الحديد، ثم يذكر وظيفة الحديد فى الدفاع عن الدين. وهنا نجد أن السفينة والوابور ينطلق فخرهما من القرآن (.. الحمد لله خالق كل موجود.

الاذى شرفنى بالذكر قبل الوجود. حيث امتن على عباده بخلق عليها يحملون. ثم قال ويخلق مالا تعلمون. ويستأنس لى بقوله وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. ولا يغفل عن ذكرى إلا الجاهلون. والصلاة والسلام على من تكلم بالمغيبات من غير شك ولا التباس. المنزل عليه وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس. وأصحابه الذين اتخذوا من معدنى دروعاً وتيجاناً. وقاتلوا بها حتى أظهروا ديناً وأرضوا دياناً).

ثم ينتقل إسلوب الحوار من المفاخرة إلى الذم، فيذم الوابور السفينة ويذكر شرورها (إياك أعنى فاسمعى ياجاره. فإنك ،إن كنت أول عمل الخلق. وصناعة نبى بوحى الحق. إلا أنك حمالة الحطب . وقريبة العطب. إن هبت عليك نسمات هلك من فيك ومات. وإن كتبت لك السلامة . فلا حباً ولا كرامة. وإن كسر ضلعك فار. علا فيك الماء وفار. بم تفخرين وأنت مكتفة بالحبال).

ويمزج الوابور الفخر بالذم متبعاً أسلوب المقابلة فيقول:

(فإن كنت ذكرت الكتاب صراحة فقد ذكرت ضمنا، وإن ظهرت قبلى لفظاً فقد كنت معنى. ما تأخر لتاجر عندى سبب. ولا حرم من صاحبنى بلوغ أرب. طريقك معوج وطريقى مستقيم لا يملنى صحيح ولا يسأمنى سقيم).

وتأخذ السفينة دورها فى مزج فخرها بذم «الوابور» سالمة سبيل المقابلة (..ولكن مهلاً يا أبالهب. فقد خرجت من الأدب. ولا بد ما (أرسى) على برك. وأحرقك بلهيب جمرك. حصرت بين (عجل وقضيب). ووقعت فى (حميم ولهيب).

– وتنهى السفينة حوارها حيث المضمون ذماً وفخراً، ومن حيث الإسلوب فهو بالعربية الفصيحة التى تتمثل فى ذكر الأمثال واللغة المصرية المستخدمة فى الحياة اليومية تقول:

(ادخل نفسك فى (مخزن الوفر). (وفضك من النفخ والصفر). وتفتخر على أغصان الطعوم وأنت (حديد يامشوم). ولئن سرت على (عجل). فقلوب أهلك فى وجل. أما علمت إن العجلة من الشيطان. وأن الباغى جزاؤه النيران. شغلت بالأكل والتمنى. ففاتك الرفق والتأنى. وبالجملة فإنى سابقة هذا الميدان ولا ينتطح فيها عنزان).

وهنا ينفعل «الوابور» ولقد يبدو من عبارات «الوابور» وهو يمزج ذمه بالسفينة بفخره بنفسه أن النديم قد جعل السفينة رمزاً للمرأة وأن «الوابور» رمز للرجل، وتبدو فى عبارات النديم هنا العامية المصرية.

(فتحرك الوابور تحرك ناقد. وتنهد تنهد حاقد. وقطع (قطره) وأبى (شحنا). وقال أسمع جعجعة ولا أرى طحنا - أبعوض تطن فى أذن فيل. وصورة تعد فى التماثيل. ولكنى قد أبيت مخاطبتك وعفت. وكرهت وجهك المدهون (بالزفت) فإن حالك حال الحيران. وصباحك صباح (القطران). وكيف أفاخر امرأة عقلها فى (مؤخرها). وهلاكها فى تمزيق مئزرها.

تقاد بحبل طويل. وتنقاد لأدنى (عويل). يديرها (شاغول). وفكوها مشغول. تتبع هواها فى السير. ولها جناح كالطير. أمية وفيها (قارية). ويد عاجزة لها (بارية). ثالثة العبرين فى ذل (الوتد). حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد).

وهكذا ينهى النديم مقامته بفخر «الوابور» على السفينة أى انتصار الرجل على المرأة وهو فى هذا يبدو شرقياً ولكنه ينطق العامية المصرية.

التعبير الدرامى الشعبى

د. أبوالحسن سلام

عرف عبد الله النديم زجالا أو شاعرا شعبيا بارعا وأديبا تتسم كتاباته بالنقد الاجتماعى المغرق فى التهكم ، كما عرف صحفيا لوذعيا ، ولكنه لم يعرف كاتبا مسرحيا .

على أنه إذا وجد للنديم نصان مسرحيان ، فإن ذلك لا يكون غريبا بأى حال ، ذلك أن المسرح كان قد ظهر فى العالم العربى قبله ، وكان يمارس كتابة وتمثيلا وعرضا على أيامه ، كما أن دار الاوبرا المصرية ، كانت قد أنشئت فى عهد إسماعيل ، وكانت تستقبل الفرق المسرحية والأوبرالية ، وحفلات الموسيقى السيمفونية التى تقدمها الاوركسترا العالمية .. ومن قبل ذلك كانت الفرق المسرحية الفرنسية التى زارت مصر في فترة الحملة الفرنسية للترويح عن الجنود الفرنسيين إلى جانب فرقة هواة المسرح التى أنشأها الجندى الفرنسى دار جيڤال Dargeva فى أكتوبر ١٧٩٨ بإذن خاص من القائد العام للحملة .

ولقد كانت كتابات يعقوب صنوع المسرحية (١٨٣٩ - ١٩١٢م) قد رسخت أسلوب الكتابة المسرحية فى مصر وألحقت فى قالبها الأوروبى التقليدى أسلوب الكتابة التقليدية للمسرح رافدا على فنون الكتابة الأدبية العربية فى لهجة عاميه مصرية توشحت فى بعض المواقف الدرامية بقصائد شعرية فى لغة فصيحة سائرا على درب رفيقيه فى لبنان «مارون النقاش» (١٨١٧ - ١٨٥٥) و«سليم النقاش» (توفى فى الإسكندرية فى ١٨٨٤)[1] ومن بعدهما «أحمد أبو خليل القبانى» (١٨٦٥م - ١٢٨٢هـ) الأديب ، الممثل والمغنى السورى

لقد شكلت هذه الكتابات المسرحية نوعا من الخبرة الدرامية قد مكنت لاشك أديبانابها وشاعرا شعبها ورجل إعلام عربى هو عبدالله النديم من الولوج من باب المسرح كاتبا ، هذا بالإضافة إلى طبيعة التفكير الدرامى التى ظهرت

بوادرها عنده فى اصداراته الصحفيه الساخرة فى (التنكيت والتبكيت)[٢]

قراءة فى مسرحية «الوطن»[٣] : إن كثيرا من الأدب الوطنى * مفتعل تحس بافتعاله فتمجه ، لا يدخل إلى قلبك لأن ليس خارجا من القلب. وقد أطلق على هذا النوع من الأدب «أدب المناسبات» والمناسبة الوطنية بذاتها موحية إن وجدت موضعا للايحاء فإن قيل فيها بصدق جاء الأدب صادقا يدخل إلى القلب دون استئذان . أما الافتعال فيأتى ممن لايشعر فى أعماقه بصدق مايقول»[٤] ترى إلى أى مدى تمثلت مسرحية (الوطن) لعبد الله النديم ذلك الصدق الفنى الذى تكاد تخلو منه أكثر الأعمال الأدبية التى تتناول إحدى القضايا الوطنية ولا سبيل أمامنا إلابدراسة تحليلية لنص تلك المسرحية

أولا : المادة الدرامية للنص :

النص لايتأسس على حدث مسرحى بالمعنى التقليدى * وربما كان ذلك بسبب يتعلق بالهدف الدعائى الذى استهدفه المؤلف منذ البداية حيث كان (الغرض منها الحث على التعاون لانشاء المدارس العلمية والصناعية» [٥]

ثانيا : درامية الشكل :

(أ) الحوار أول مايلفت الباحث المسرحى إلى هذا النص هو اللغة ، وأبرز مظاهر الانجذاب إليها قراءة أو سماعا تمثل فى أسلوب المحاورات القائم على عادات اجتماعية شعبية مثل التشاتم وهو لون من الحوار تستخدمه شخصيتان فى موقف ظاهره الخصومه وباطنه الموده ، وكذلك أسلوب التشاكى وهو مظهر من مظاهر التنفيس بالقول المتبادل والمصرح به بين شخصيتين فى موقف شعور بوطأة ظلم أو تعسف وقع على كليهما ، هو أعلان موحد عن رفض كل منهما لذلك الظلم ، ولا يشترك وجود صداقة تربط بين المتشاكيين اللذين جمع الموقف الدرامى بينهما وإنما توحدهما ربما يتم من خلال العسف

الذى يستشعران وطأته عليهما . وأسلوب التباكى وهو تمثيل في إظهار الحزن والأسف المتبادل على شئ ما أوقيمة ما أونفع ما قد حرم منه كلتا الشخصيتين اللتين جمع بينهما الموقف الدرامى .

التعليق النقدى :

★ **إيجابيات استخدامه لأسلوب المحاورة فى (*التشائم والتشاكى والتباكى*):**

تصور طبيعة الشخصية الشعبية تصويرا يعكس سلوكها اليومى ولغتها اليومية ، يعكس صدق معاناتها وأسلوب تنفيسها عن هذه المعاناه ، وبلاغتها فى التعبير ببساطه عما يعتمل فى صدرها دون خوف .

★ **سلبية استخدام أسلوب *المحاورة* بديلا عن *الحوار* :**

١- يعمل الحوار كما هو معلوم على نمو الشخصيات كما يعمل على نمو الحدث وتطوره ، بحيث يؤدى كل فعل إلى رد فعل ما يلبث أن يصبح فعلا ينتج رد فعل جديد يتحول إلى فعل وهكذا وصولا إلى ذروة الصراع فى الحدث الذى ينتهى إلى انفراج وكشف ومن تنوير للمتلقى . ولكى يحقق الحوار ذلك فإنه يعبر عن جوهر ماتريده الشخصية فى تعارضها أو صراعها مع إرادة الشخصية الأخرى . ولكن الذى نراه هنا ليس صراع إرادات بشرية يعرف كل مايريد ، ليس هذا فقط ، ولكن كل منها تصر على تحقيق إرادتها وتستميت فى صراعها مع الآخر من أجل تحقيقها لإرادتها ، أن المحاورة تعتمد على فكرة يتجاذبها طرفان أو شخصيتان تحاول كل منها إثبات تفوقها على غيرها فى إبداء الرأى حول تلك الفكرة بل إظهار تفوقها على الآخر : ويؤدى ذلك إلى إهمال كل شخصية منهما التعبير عن جوهر ماتريد وتكتفى بالدوران لاقتناص فرصة للفوز على الآخر وبذلك تقف كل شخصية منهما في موقفها دون أن تتغير أو تتطور، ويقف الحدث فى محوره دون أن ينطلق فى خط درامى متطور.

والمحاورة تجزئ الموقف الدرامي إلى عدة مواقف بحيث يبدو كل موقف درامي منفصلا عن الموقف السابق عليه والموقف اللاحق له وبذلك يصبح البناء الدرامي قائما على أسلوب (القطع) التليفزنوني وهو مايشبه أسلوب الكتابة في الصراع الساكن ، ذلك الذى شهر به مسرح تشيخوف حيث يصور الصراع بشكل فرعي ، يتكون من فروعه الشكل الكلى للصراع فى نهاية العمل الدرامى غير أن مثل هذا الأسلوب يبدو ظاهريا كما لو كان غير محبوك لا تربطه وحدة عضوية

٢- ازدواج مستويات اللغة مابين اللهجة العامية المصرية واللهجة شبه الشامية واللكنة ما بين العامية المصرية والأجنبية - عند بعض الشخصيات- تضع بين المتلقى وبين الشخصيات مسافة نفسية ، وتفصل (أولا) الشخصيات عن بعضها البعض فى الموقف الدرامى الواحد حتى أن الشخصيات تبدو فى تعبيرها اللفظى منفصلة عن تعبيرها الحركى ومن ثم تعبيرها الانفعالى الكلى ، كما أنها تفصل (ثانيا) الموقف الدرامى نفسه بشخصياته بوصفه رسالة أو خطاب تعبيرى عن المتلقى إذ تبدو الصورة التعبيرية كلها كما لو كانت مفتعلة (مصنوعة) وغير تلقائية وبذلك يبتعد التعبير الكلى عن الصدق درجات حتى مع صدق التعبير الجزئى عند بعض الشخصيات ويبدو اللاصدق فى لغة الشخصية النمطية التى أطلق عليها النديم اسم الوطن حيث تظهر دائما لتصرح بالحلول وترسم الخطط ، وليس ذلك سبيل الأدب ولا هو سبيل الفن «إن الأدب إذا صرح بالحلول ورسم الحطط قضى على فنيته وأبطل مفعوله ، فإن وظيفة الفن الاصلاحية هى «الإيحاء» وإلا انقلب الأمر إلى وعظ مباشر يرفضه المتلقى» [٦] ذلك أن المتلقى «يؤثر فى أعماق نفسه أن يكون حرا فيما يراه من حلول ، ولا يحب أن يفرض عليه شئ من خارج نفسه .

وهذامن خصائص الأدب التى ينفرد بها عن مجرد الكلام.» (٧)

ب) الأساليب الفنية :

١- استخدامه لأسلوب التضمين : حيث يضمن الحوار ببعض الأمثلة الشعبية على ألسنة بعض الشخصيات الشعبية

«أبو رجب : على جد زتيك خايل له» (٨)

«الحاج رزيقه : الفنجرة فى الطنجرة» (٩)

«مظهر : متى أخذنا فى الأسباب تجتمع فيه أهله» (١٠)

«مظهر : تبات نار تصبح رماد» (١١)

«عزت : السماء لاتمطر ذهبا ولافضه»(١٢)

«عزت : الناس على دين ملوكهم» (١٣)

«الحاج حسين : بعد ما شاب ودوه الكتاب» (١٤)

واللافت للنظر أيضا أن من الأمثال التى رصع بها النديم حوار شخصياته الشعبية قد كانت أمثلة شعبية ، فى حين أن الأمثال التى تستخدمها الشخصيات المتفريخة من أمثال (عزت) الذى يعمل رئيسا للتراجمة فى قنصلية فرنسا فى مصر بعد أن تعلم وتثقف فى أوروبا وتأثر بطباع أهلها ، تلك التى ظهرت فى تناوله للأمور بشكل مغاير لطرائق أهل البلد

غير أنه يمكننا القول إن الأمثال التى جاءت فى لهجة عامية أكثر ملاءمة من تلك التى وضعت بالفصحى على ألسنة بعض الشخصيات فى الموقف الدرامى الواحد . وتلك – على كل حال – خاصية تميزت بها الأمثال التى جاءت فى العامية «فما نظنها وقفت عند عصر بعينه بل سايرت الأزمان المختلفة وتكاد

تخالها على لسان كل عصر ، بل منها ما يكاد يولد إلى اليوم»[١٥] والعلة – عند البقلى– في تجدد المثل الشعبى وبقائه حيادون المثل الفصيح ، إنما هى فيما يظن تكمن فى أن المثل الشعبى ولا سيما فى تلك العصور التى انزوت فيها الفصحى وأصبحت فيها اللغة الرسمية لها وجود على ألسنة الكثرة ، فهو فى أدبهم الذى لا أدب لهم غيره ، فما هم برواة شعر ولا برواة نثر . ولكنهم على الأمثال يحيون أولا إذ فيها نوادرهم وطرائفهم [١٦]

٢– استخدام اللغة الفصحى وقصرها على حوار الشخصيات المتعلمة أو المثقفة والمتفرنجة وقصر اللهجة العامية بما يناسب كل شخصية شعبية لتعبر فى تلقائية وانسيابية عن فكرها أو هدفها فى حالتها السلبية وكذلك فى حالتها الإيجابية

٣– استخدام إسلوب التصمين بمقاطع شعرية على لسان شاعرها القديم مثلما كان مع شخصية (النابغة الذبيانى)

٤– رسم الشخصيات بأسلوب النمطية ، حيث لم يعن برسم الأبعاد الجسمية والنفسية لكل شخصية بحيث يبدو فعلها له أسبابه المقنعة فيبدو لسلوكها السلبى إزاء قضية ما واجهته تبريرا مقنعا وتكون حماستها إذا تحمست لشئ مامبررا ومقنعا للمتلقى ولنفسى قبل ذلك .

ومن المعلوم أن هناك «خاصية أخرى تذكر للتصوير الأدبى هى أنه وسيلة للاقتناع ، فإن مايقال بقصد النوعية والتعليم والتوجيه يذهب غالبا فى الهواء ، ويسبح مع الهباء ، فإذا جسد فى تجربة أدبية مصورة شعر المتلقى أن التجربة تجربته وأن عبرتها آتية من عند نفسه لأنها مستمدة من حياة مثل حياته يأخذها أخذ المقتنع لأنها تسربت إلى وجدانه ومشاعره ولم يأخذها عن فكر مجرد لا ينفع وحده»[١٧]

٦- غياب الدور النسائي : يخلو النص من الأدوار النسائية وذلك مرجعه قطعا إلى طبيعة العصر الذي كتب فيه هذا النص وهو عصر (توفيق باشا) عصر الاحتلال الانجليزي لمصر أوربما قبله بعدة سنوات .

ومن الملاحظ الهامة أن الأدوار النسائية كانت ماثلة فيما كتب محمد بن دانيال الموصلي من مسرحيات عرائسية مع أنها عرضت في شوارع القاهرة وساحاتها في عهد السلطان المملوكي (الظاهر بيبرس) وكذلك مثلت الأدوار النسائية في مسرح صنوع مثولا دراميا فاعلا في الحدث مثلما كانت شخصية (أم رشيد) في مسرحية (طيف الخيال) لابن دانيال ومع أننا نجد تشابها واضحا في أسلوب مزج العامية بالفصحى عند ابن دانيال وصنوع وعبدالله النديم ربما لأن الموضوعات التي يختارونها شعبيته وأننا نجد الواقع الشعبي ماثلا مثولا حقيقيا في أدبهم من حيث القيم السائدة والسلوك وأنماط المعيشة وأنماط التعبير وكان للعامية دور رئيسي في انجاحهم وهو ما دعا ابراهيم حمادة في استعراضه لطبيعة الأسلوب في مسرحيات ابن دانيا العرائسية/ إلى أن يقول «خرجت اللغة العامية الناشئه إلى المجال إلا نشائي تبحث عما فيها من قيم يمكن أن تكمل بها النقص الذي ترفعت الفصحى عن سداده»[1]

فإذا كان هذا هو المجال الرئيسي الذي شغلته اللهجة العامية لتكمل ما ترفعت عنه الفصحى في فن ابن دانيال الدرامي فإن اللهجه العامية فن يعقوب صنوع الدرامي ومن بعده الكتابات العامية في محاولات عبد الله النديم في مجال الدراما تؤدي الدور نفسه الذي ترفعت عن أدائه اللغة الفصحى . وهذا ما وجدناه عند هؤلاء الأدباء الثلاثة غير أن الإشكالية تبرز من خلال محاولة التوقف عند الخطاب الدرامي الذي ترفعت الفصحى عنه وتخلت طواعية للعامية عن مسؤولية الاتصال التعبيري الدرامي لنرى ما هو وجه النقص في القيمة

الموضوعية وما هو مبررر الترفع الذى تتخذه الفصحى عند الحاجة إلى التعبير عن قيم اجتماعية بعينها وإذا انطلقنا من قالة : «الموضوع يستدعى الشكل» فإننا لاشك سنوفق فى الحصول على اجابة ذلك التساؤل الذى انبنت عليه إشكالية تأفف الفصحى وتخليها للعامية فى بعض المواقف التعبيرية ذات الطابع الشعبى .. على ذلك نلمح أن طبيعة الموضوع شعبية ،ومن ثم فإن الحدث يدور فى بيئة شعبية وبذلك فإن الثقافة شعبية والسلوك شعبى بدوره حيث خرجت الشخصيات من رحم البيئة الشعبية ، ولهذا فمن الطبيعى أن تكون أطر تفكيرها أطراً شعبية ، وقيمها قيما شعبية فى موضوعها وفى أشكال التعبير عنها .

إن التشاتم قيمة تعبر عن الحب والمودة وقوة الارتباط الاجتماعى وربما الأسرى أيضا فى المجتمعات الشعبية فى حين أن التشاتم ليس قيمة بأى حال فى المجتمعات غير الشعبية

كما أن التباكى فى البيئة الشعبية يعد قيمة استيعاضية إذ تنفس بها الشخصية الشعبية عن كتب كابدته أو قهر وقع عليها ، لذلك فهى نوع من الإسقاط النفسى ، غير أن التباكى يعد قيمة سلبية عند المجتمعات غير الشعبية لأن التباكى وإن كان قيمة استيعاضية تنفسية فإنها تعبر عن حالة ضعف ولا تعبر عن حالة قوة التباكى يبرز حين لا تكون هناك وسيلة أخرى تعوض عن الفقد . والاستيعاض غير التعويض .

والتشاكى قيمة شعبية يراد بها إسقاط ما فى النفس من كراهية هى محاولة للتطهر من الكراهية دأبت عليها الشخصية الشعبية تتشاكى الشخصيات الشعبية لتتطهر من كراهية مستغليها وظالميها

ولأن عبد الله النديم يكتب عن البيئة الشعبية ويعقوب صنوع يكتب عن البيئة

الشعبية مثلما كان محمد ابن دانيال يكتب عن البيئة الشعبية لذلك وجدنا أعمالهم الدرامية تتخذ المحاورة أكثر مما تستخدم الحوار وسيلة للتعبير عن البيئة الشعبية فنرى فى أعمالهم الدرامية محاورات التشائم والتباكى والتشاكى

محاورة التشاتم فى التعبير الدرامى الشعبى :

الشتم غير التشاتم، فالشتم وسيلة هجوم ، كما أنها وسيلة دفاع تكثر فى المجتمعات الشعبية وخاصة فى الحياة الزوجية وفى أثناء المشاجرات بين الجيران مع بعضهم البعض ، والتشاتم وسيلة تبارى بين عاجزين عن الفعل المادى الجسمانى ، كما أنه وسيلة التعبير عن مدى الترابط والمودة أو الحميمية.. ومثاله عند النديم فى مسرحية (الوطن)[٢]

«أبو دعموم : إيه أمال عوار يتلق عنيك . له أمال احنا حميريم ؟

ابو الزلفى : خابط يتول دماغك معبوط وا-»

«أبو دعموم : يادم يلهفك . ياخى يبقى ماترميش للكلب منهم بريزية وتحلص

أبو الزلفى : عوار يحول عينك . هى كام بريزيه داللى بيطلبوه الصبح مابيطلبهشى المغرب .

الوطن : أين أهلى أين أولادى . أين رجالى . أصبحت حائرا فى أمرى لا أدرى ما يفعل بى من يرانى هكذا ويقول هذه مصر المعشوقة لكل انسان.

أبو دعوم : أى غور ياخى يعشقوك على أيه ؟» [٣]

«الوطن : عجيبة بقى كل أهلى مختلفين ؟

أبو الزلفى : أهلك إيه ياغاير ؟ له الولد بيحب أبوه» [٤]

«أبو الزلفى : لا وفتنا الداهية التقيله اللى هو الصريف ...»[٥]

«الوطن : أين رجال الفتوة أين رجال النجدة

السيد ابراهيم : جالو داهية فى لتك وعجنك .

السيد على : ودى إيه كمان ياسيد ابراهيم

السيد ابراهيم : دا ياسيدى راجل كل ساعة يلت ويعجن فى الكلام الفارغ

السيد على : بقى حضرتك تعرفه من زمان

السيد ابراهيم : اعرفه جاته داهية

السيد على : واسمه أيه

السيد ابراهيم : بيجولوا عليه اسمه الوطا والا هو الوطن

السيد على : وايه قضيتة يا سيدى ؟

السيد ابراهيم : قضيته إنه تملى يقول أهلى . أولادى ويدور على الأقدمين

السيد على : واحنا مالنا ومال الأقدمين احنا فى ايه ولا فى ايه

السيد ابراهيم : بالله متكدرش ذهنك فيه أحسن كلامه زى الحبل الصوف كل ما تشده يتمط .» (٢٤)

«الوطن : وابلوتاه . واحسرتاه . ضاعت الانسانية . وصارت الناس بهائم ....» (٢٥)

«الوطن : ياولدى المعارف فى المدارس والورش وإذا كنتم تبتدؤا يتبعوكم الاغنيا فإنهم عمى عن طريق التقدم إلا بمرشد والفقراء هم أصل كل شئ» (٢٦)

أبو العلا : ياخى لا لادا قال إحنا زهلة وبيعيط علينا النطع »(٢٧)

«أبو الزلفى : مالك ياسخام الطين» (٢٨) .

ومثاله عند ابن دانيال : يخلط ابن دانيال بين أسلوب التباكى وأسلوب التشاكى ويجعل أسلوب البداءة متخللا لهذين الأسلوبين

أسلوب التباكى :

«غريب :

أين زمانى الذى تقضى	وأين جاهى وأين مـالـى
وأيـن خفـى وطليانـى	وأيـن قيـلى وأيـن قالـى
وأين عيش وأيـن طيش	وأين حسنى وحسن حالـى
ونحن فـى فـنية كـرام	فخارهم فى الفخار عالـى

أسلوب الشتم البذئ

(«بعد ذلك أبيات فاحشة خليعة ، تتعرض للواط والدعارة الشاذة فى ألفاظ صريحة سوقية ، جارحة للذوق والحس الخلقى ، ولا يمكن اثبات بعضها أو التلميح إليها أو الابدال فى حروفها ، مهما كانت دوافع الموضوعية العلمية وروحها .. وهذه هى أنظف الابيات . ؟[٢٩]

وفى طيف الخيال

لم يبق عندى مايبـاع ويشترى	إلا حصـيرا قد تساوى بالثرى
نطع يـريـق دمـى عليـه بقـة	حتى تراه وهو أسود أحمـرا
فى منزل كالقبر كم قد شاهدت	فـيه نكـيرا مقلـتاى ومنكـرا
لو لم يكن قبرا لما امسيت نسيا	فيـه حـتى أننـى لـم أذكـرا
والقبر أهنأ مسـكنا إذ لـم يكن	مع ضيق سكناه أطالب بالكرا

لافرق بين ذوى القبور وبين من لارزق يرزقة سوى العيش الحزا

أف لعمر صار فى ريعانه مثلى يود بأن يموت ويقبرا

ولرب قائلة أما من حيلة تمسى وقد أصبحت يوما موسرا

شرف العلال كما يرى فى سيره والماء أعذب ما يكون إذا جرى

إن المداين وهى أوسع بقعة ضاقت على فكيف أرحل القرى»[٣٠]

على أن ابن دانيال فى تصويره لظاهرة الشتم والتباكى والتشاكى لا يستخدم المحاورة وسيلة فنية للتصوير الدرامى ، ولكنه يلجأ إلى «المونولوج» حيث نجد الشخصية تحادث نفسها ، وبذلك تتخذ المحاورة شكلا فرديا من حيث صورتها الخارجية ولكنها فى حقيقة الأمر تتحقق فى شكل ثنائى الصوت إذ يحاور تطبع الشخصية طبعها فطيف الخيال فى محاورة مع صوت هجومه اللفظى ضد الآخرين (بالشتم) .

«(يعود إلى أبيات الفحشى والاختلال الخلقى ويمكن أن نستأذن فى حذف الأبيات المتعفنة وأن نورد بعض المقطوعة التى بدأت بغير ما انتهت إليه من تناقض وتضاد ، ولابأس من تسجيل بعض الأبيات الأقل تلقا أخلاقيا) *

فإنى أنحس الثقلين طرا فكل النحس ينقل عن مثالى

ولما صرت بين الناس ألحى تعلمت الفجور مع المحال

أدور على بيوت القحب ليلا وأنهق كالحمير وكالبغال»[٣١]

ولكننا مع ذلك نجد بعض صور التشاتم ولكنه تشاتم على البعد إذ يشتم الحاضر الغائب فى صورة وصف ذاتى لهيئة ذلك الغائب المشتوم بما يحقرها ويقبحها :

«الصبى حبيزى : له صورة يستحن القرد عندها

على أن وجه القرد أحسن منظرا

إذا ما ابتدانى بالحديث حسبته

تسوك من فرط النتونة بالخرا»[٣٢]

وإذا كان إبراهيم حمادة يعتبر «التمثيليات الدانيالية التى وصلتنا تعبيرا صريحا مفننا عن الواقع المصرى فى أحد جوانبه ، وترجمة طبيعية لبعض الصور الأجتماعية التى كانت أحداثها تعايش المجتمع دهر ذاك»[٣٣] فإننى أرى فى هذا النص الدرامى لمسرحية (الوطن) التى كتبها النديم تعبيرا صريحا مفننا عن الواقع المصرى فى أحد جوانبه أيضا وكذلك أرى فى نصوص يعقوب . صنوع المسرحية إذ عالجت الواقع الشعبى المصرى على عهد الخديوى إسماعيل قد رما وسعه فنه وثقافته. حيث «سمح لممثلى الطبقة الشعبية فى مسرحيته بشئ من التعبير عن وجهة نظرهم فى الناس وفى الأشياء»[٣٤]

«حسانين : (يدخل بسرعة ويقول لمريم) : خواجه طويل عريض

بدقن كبيرة (فى نفسه) كأنها مقشة جامع»[٣٥]

يستخدم صنوع أسلوب التشاتم أيضا على هيئة اغتياب الحاضر الشاتم للغائب المشتوم . وهو أسلوب ابن دانيال السابق الإشارة إليه . كما يستخدم أسلوب التبكيت ويستخدم كذلك أسلوب التباكى :

«ابراهيم : (يجلس على كرس يتنهد ويقول) :

ياما الإنسان يتأسف لما يتفكر فى أحوال الدنيا أهو أنا كنت رجل على قد حالى تاجر صغير ألحسن سنى وأبات مهنى * آه ياسوء نجتى ربنا يلطف ..

وأماعيشتى أنا مثل الزفت وأحسن» (٣٦)

خلاصة : نخلص مما تقدم إلى أن طبيعة الخطاب الشعبى في الدراما تفرض على الكاتب توظيف عناصر تراثية تتفاوت مظاهرها من كاتب إلى آخر ويتوحد أثرها فى النهاية عند هؤلاء الكتاب تبعا لتقارب القيم الاجتماعية فى المجتمعات الشعبية ومايصاحبها أو يناسب تصويرها تصويرا أدبيا من أساليب المواجهة وكشف الدوافع الاجتماعية والعلاقات بين طوائف الطبقة الشعبية فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى مضمون مسرح كل من ابن دانيا ويعقوب صنوع والنديم .

- المكوس والضرائب وأساليب الجباية : (الطوافة - مشايخ البلد - حكام الخطوط - المدراء)

- الجور الاجتماعى وانعدام الضبط بين طبقات الشعب ومستوياتها .

- الرشوة وأساليب الحصول عليها

- التفكك الأسرى والاجتماعى

- عنف الحكام وتعديهم على العلماء بالضرب . وعلى كل فئات الشعب مع سطوة نظار الأقسام (المأمير) والعسكر والصيارف

ويضاف إلى ذلك عند النديم ظهور دور الغزو الثقافى المتمثل فى المصريين المستعجمين نتيجة لثقافتهم الأوربية وما يعانيه البسطاء فى مصر من الاحتلال سواء التركى أو البريطانى .

غير أن الخطاب الوطنى دائما يحتاج فى معالجته أدبيا أو فنيا إلى (هندسة) فى استخدام الأسلوب إذا جاز لى أن اقتبس هذا المفهوم - وذلك أضعف الإيمان - حالة القدرة على نفى الإنفعال الوطنى أو القومى والتفكير السياسى

المتسلط على الكاتب ليحل محله الانفعال الفنى .

وهنا تحضرنى قصة قارئ القرآن فى مجلس (الخصيب) والى «هارون الرشيدى» على مصر حين سمعه واحد فى مجلس ذلك الوالى يتلو آى الذكر حتى جاء إلى آية فتلاها هكذا :

«فخر عليكم السقف من تحتهم» فصاح به الرجل قائلا :

«ياهذا إذا لم تكن تحفظ .. فهندس» .

ولقد هندس النديم فيما كتب مثلما هندس صنوع وهندس ابن دانيال لأنهم لم يحفظوا درس كتابة المسرحية .

هوامش البحث

(١) شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢/ ١٣٤

(٢) وهو ما يتماس مع أسلوب الاتجاه الدرامي المعروف بالتراچيكوميدى - من حيث الأثر التطهيرى - وهو النوع الدرامى الذى حطم شكسبير ومن قبله مارلو عن طريقه (نظرية الفصل بين الأنواع)

(٣) عبدالله النديم ، سلافة النديم ، جـ٢ - القاهرة ، مطبعة هندية ١٩٠١م - ١٣١٩هـ

* الذى يتعرض للقضايا الوطنية : حرية المواطن السياسية - حرية تراب الوطن وأسواقه - الحرية الاقتصادية للوطن والمواطن

(٤) عباس خضر ، الأدب والوطن ، سلسلة كتابك ١١٦ (القاهرة ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧) ص٦٢

* وهذا ليس جديدا فى مجال الكتابة المسرحية إذ كانت أول المسرحيات الاغريقية التى كتبها اسيخيلوس أبو التراچيديا اليونانية وهى مسرحية (الفرس) قد تأسست على صياغة خالية من الحدث الدرامى وكذلك خلت بعض النصوص فى الاتجاهات المسرحية الطليعية من الحدث .

(٥) عبدالله النديم . م . ن، ص ٣٣

(٦) عباس خضر ، م . س ، ص ص ٥٧ - ٥٨

(٧) م . ن ، ص ص ٥٧ - ٥٨

(٨) عبدالله النديم ، م. س. ن . ، ص٤٥

(٩) م . ن ، ص ٤٥

(١٠) م . ن ، ص ٥١

(١١) م . ن ، ص ٥١

(١٢) م . ن ، ص ٥١

(١٣) م . ن ، ص ٥١

(١٤) م . ن ، ص ٥٣

(١٥) محمد قنديل البقلى ، الأمثال الشعبية ، سلسلة كتابك، العدد ٤٤ (القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨) ص ٢٦

(١٦) م . ن ، ص٢٦

(١٧) عباس خضر ، م. س ، ص ص ٥٧ - ٥٨

* ١٨٨٢ م

(١٨) راجع ابراهيم حمادة ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، (القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، اكتوبر ١٩٦٣)

(١٩) م . ن ، ص١٢٠

(٢٠) عبدالله النديم ، تمثيلية :الوطن (سلافة النديم) جـ٢ القاهرة . مطبعة هندية ١٩٠١ م -١٣١٩هـ ، ص ٢٣

(٢١) م . ن ، ص ٣٥

(٢٢) م . ن ، ص ٣٥

(٢٣) م . ن ، ص ٣٧

(٢٤) م . ن ، ص٤١

(٢٥) م . ن ، ص ٤٤

(٢٦) م . ن ، ص٤٥

(٢٧) م . ن ، ص٣٩

(٢٨) م . ن ، ص٥٤

(٢٩) ابن دانيال ، مسرحية عجيب وغريب ، تحقيق ابراهيم حمادة ، م ، س ، ص١٨٩

(٣٠) ابن دانيال ، طيف الخيال ، م . ن ، ص ص ١٧١ - ١٧٢

* ويمثل النص المحذوف بمعرفة المحقق مثالا لطرف التطبع الهجومي عند طيف الخيال في مقابل صوت التباكي الذي يليه في النص غير المحذوف - هنا - في النص المحقق

(٣١) ابن دانيال ، م . ن ، ص١٩٣

(٣٢)ابن دانيال ، م . ن ، ص١٧٥

(٣٣) ابراهيم حماده ، م . س . ن ، ص ١٣٠

(٣٤) نجوى عانوس ، مسرح يعقوب صنوع (القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٨٤) ص١٦١

(٣٥) يعقوب صنوع ، مسرحية الأميرة الاسكندرانية

* استخدامه للمثل الشعبي في الحوار .

(٣٦) الأميرة الاسكندرانية ، ص١٤٣ .

عبد الله النديم شاعرا

د. عبد الله سزور

استاذ مساعد الأدب العربى الحديث كلية التربية جامعة الاسكندرية

حياته

هو عبد الله بن مصباح ابراهيم، ولد بحى المنشية بالإسكندرية عام ١٢٦١هـ- ١٨٤٣م فى أسرة بسيطة. تعلم فى كتاب الحى وأتم حفظ القرآن قبل أن يبلغ التاسعة من عمره، ثم التحق بالجامع الأنور الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا فى الاسكندرية ليحدث به ثورة فكرية وتعليمية كبرى فى المدينة. وكان يتولى التدريس فيه هو وأبناؤه مستعينا بعدد من الشيوخ المتنورين مما كان له أبعد الأثر فى شخص النديم وحياته، أمثال الشيخ محمد جاد شيخ الشافعية بالإسكندرية، والشيخ إبراهيم السرسي، والشيخ محمد العشرى الذى كان يصحب تلامذته إلى مجالس الأدباء فى الحوانيت والمقاهى فجذبت الشاب اليافع تلك الحياة وشغفته حبا.

وبعد خمس سنوات قضاها النديم فى تلقى العلم انقطع عن الجامع الأنور لتستغرقه مجالس الأدب بجوها الساحر وأضوائها الباهرة، سواء فى المجالس القاخرة فى بيوت الأثرياء ومجالس الاتجار، أو فى مجالسها الشعبية فى المقاهى والمتنزهات. وتوزعت حياة النديم بين الشعر والزجل ونوادر الظرفاء وقصائد الرواة. ورويدا رويدا راح النديم يبنى لنفسه مكانا بين زمرة الأدباء.

ولم يرض والده أن يدع الابن التعليم ليلتحق بمجالس الظرفاء والشعراء، فأخرجه من رعايته. فكان على النديم أن يعول نفسه فاتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية، والتحق بعمل فى مكتب البرق ببنها، ثم انتقل إلى مكتب القصر العالى بالقاهرة، فانخرط من جديد فى مجالس الأدباء والشعراء، حتى فصل من عمله فطوف فى البلاد سعيا وراء الرزق حتى عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية عام ١٨٧٩م.

وأنشأ صحيفة «التنكيت والتبكيت» الأسبوعية فى شهر يونيو ١٨٨١م واشترك فى الثورة العرابية وبعدها ظل هاربا عشر سنوات حتى اعتقل عام

١٨٩١م، وعفا عنه الخديو وأمر بإبعاده إلى يافا حسب رغبته، وعاش بها إلى أن عفا عنه الخديو عباس عام ١٨٩٢م فعاد إلى مصر وأصدر «الأستاذ» وبعد عام نفاه الخديو إلى يافا فلبث أربعة أشهر ثم طرد منها فعاد إلى مصر، ثم سافر إلى القسطنطينية وعين مفتشا للمطبوعات بالباب العالى حتى توفى فى ليلة الأحد فى العاشر من شهر أكتوبر ١٨٩٦م.

بيئته وعصره :

كانت البيئة السكندرية صاحبة الفضل الأكبر فى بناء عبد الله النديم وتكوينه، وفى وسم شخصية بعديد من الخصائص المميزة التى صارت ملامح بارزة فى حركته وأفكاره ولغته وموضوعاته.

لقد ولد النديم ونشأ فى مدينة الاسكندرية، وفيها تلقى تعليمه وتفتح وعيه وخالط العلماء والأدباء – نشأ فى بيئة شعبية فعايش الناس وعرف –عن قرب– أفكارهم وهمومهم وأفراحهم وآمالهم، ولا عجب فى ذلك فهو أحدهم. وفتحت له الحياة الأدب أبواب الوجهاء والتجار فتعرف عليهم ودنا منهم، فاكتملت معرفته بالحياة المصرية فى ذلك الزمان.

لقد ولد النديم وعاش ومات فى القرن التاسع عشر، هذا القرن الذى شهد تحولات اقتصادية عنيفة كان لها أثرها البعيد فى شتى مناحى الحياة، فلقد شهد هذا القرن شلال الاندفاع الأوروبى تجاه مصر، ودارت عجلة الزمن فى سرعة عجيبة لتهز كيان هذا المجتمع هزا عنيفا وسريعا. واندفع محمد على فى مشروعاته الإصلاحية اندفاع الشهاب اللامع لبناء قاعة اقتصادية قوية تكون خير عون له فى تحقيق أحلامه. واندفع الأوربيون بدعوى أنهم القادرون على تقديم رؤوس الأموال والمهارة القادرة على تطبيق منجزات العصر وإنشاءات الحضارة الغربية .

واهتم محمد على بالإسكندرية ، فهى منفذه الوحيد إلى العالم، «وكان أول

أعماله الشروع فى توسيع وإصلاح ميناء الإسكندرية لقلة عمقها وعدم كفايتها للسفن التى تضطر أن ترسو بعيدة عن الشاطىء مما يجعل شحن البضائع منها يتكلف مصاريف كثيرة، فأحضر الكراكات من أوروبا»،[1] وتم تنظيم إدارة الميناء تحت نظارة مصطفى جاويش أول رئيس لميناء الاسكندرية.

وأنشأ محمد على المدرسة البحرية عام ١٨٢٥م وجعلها تحت نظارة حسن بك القبرسلى، وفى عام ١٨٢٦ شرع فى إنشاء دار صناعة السفن بالثغر (الترسانة البحرية) وتم العلم بها عام ١٨٢٩ لتضم ١٤ ورشة كبيرة عدا مخازن الذخائر والمهمات ومزلقانات صناعة السفن[2].

وأدخل محمد على زراعة القطن إلى مصر عام ١٨٢٠ وبعد ثلاث سنوات من زراعته ارتفع الإنتاج من ٦٥٠ رطلا إلى أكثر من ١٨ مليون رطل، فانتبه الأوروبيون إلى مغزى الأمر جيدا، وبعد أن كان فى الإسكندرية بيت إنجليزى واحد لتجارة القطن عام ١٨٢١ وجدناعدد هذه البيوت يصل إلى أكثر من تسعة بيوت عام ١٨٣٧.

ووضعت شركة الهند الشرقية عام ١٨٣٠ طريقا للبواخر بين الهند والسويس ليتصل عند الإسكندرية بالمراكب الآتية من إنجلترا، وصار الثغر يضم عام ١٨٣٧ أكثرمن سبعين شركة تجارية أجنبية أغلبها من اليونان وفرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا. وفى عام ١٨٤١ بدأت أول مركب بخارية رحلتها فى المحمودية بين الإسكندرية والقاهرة فصار طريق البحر المتوسط كله من لندن إلى بومباى يستغرق أربعين يوما بدلا من أربعة أشهر حول طريق رأس الرجاء الصالح.

وفى عام ١٨٥٠ ارتفعت مصر إلى دولة ذات أهمية تجارية كبيرة. وكانت الإسكندرية ميناءها الكبير. وفى عام ١٨٥٤ حل التلغراف الكهربائى محل السيمافور على الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة. وتأسست الشركة

المجيدية للملاحة عام ١٨٥٦ . وفى عام ١٨٥٧ أسس كورديه الفرنسى شركة لمد خطوط أنابيب المياه النقية بالإسكندرية . وفى عام ١٨٦٠ أنشأت شركة إنجليزية خطوط الترام لتربط الإسكندرية بحى الرمل الجديد. وفى عام ١٨٦٢ تحقق من الإسكندرية من الاتصال البرقى بين إفريقيا وأوروبا . وتم أيضا استكمال خط السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة .

وعمل سعيد باشا على تحسين شوارع الاسكندرية وتجميلها، واهتم بترعة المحمودية لكونها أبرز وسائل النقل المائى المتصلة بالميناء البحرى فعمقها وطهرها ليسهل ربط ميناء الاسكندرية بالنيل. وارتفعت مكانة مصر الاقتصادية، وبعد أن كانت تشغل عام ١٨٥٤ المركز الخامس عشر فى قائمة مصادر وارات بريطانيا، وجدناها تشغل المركز السادس عام ١٨٦١، ثم احتلت المركز الثالث عام ١٨٦٤.

ولم يكن مثل الثغر ميدانا تتجسد فيه الأحلام «إن الاسكندرية لم تكن بالمكان الذى يجذب الزائر الحساس القادم من دولة أكثر تحضرا، ولكن الاسكندرية هى البلد الذى فيه المال.. وقليلون هم الذين كانوا يرغبون فى التضحية بجيوبهم»[٣].

وهكذا اندفع الأفاقون والمغامرون من شتى بلاد العالم لتكوين الشركات والبنوك فى مصر «وباستثناءات قليلة كان القادمون جميعا - مجموعة انتهازية شديدة المراس خرجت لتبحث عن الثروة بصرف النظر عن كيفية جمعها»[٤] ويضاف إلى هؤلاء جمهرة كبيرة من المهاجرين كانوا من حثالة البحر الأبيض المتوسط «وكل هؤلاء اندفعوا إلى الاسكندرية حيث كانو يشرفون على أعمال الخدم المحليين ويلبون احتياجات الزواج وملذاته وشهواته . يديرون المحلات والحانات فى الحوارى، والمطاعم والمحالج وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة»[٥].

وأسهم كل ذلك فى أن تحسنت أحوال الأجانب بشكل كبير، وظهر عجز الحكم عن السيطرة عليهم، فازداد عددهم وارتفع شأنهم. وتعاظم الأمر بفضل تعزيز العلاقات التجارية بين بريطانيا وتركيا عام ١٨٣٨، ثم بفضل التخفيض الإجبارى لجيش محمد على سنة ١٨٤١، فانطلق البريطانيون يبيعون ويشترون فى كل مكان بهدف تدمير الصناعات الوطنية والتهام السوق المحلية(٦) .

وبعد أن كان مجموع الأجانب المقيمين فى مصر إبان الحملة الفرنسية لايتعدى المائة، وجدنا عام ١٨٤٣ (ميلاد النديم) أن عدد الانجليز -فقط- الذين يقيمون فى الاسكندرية وحدها أكثر من مائة مواطن انجليزى. وفى عام ١٨٣٦ كان عدد الأوروبيين المقيمين فى مصر ٣٠٠٠، وفى الفترة ما بين أعوام ١٨٥٧- ١٨٦١ دخل البلاد حوالى ٣٠٠٠٠ أجنبى كل عام. وفى عام ١٨٦٢ دخل مصر ٣٢٠٠٠ أجنبى، ثم ٣٤٠٠٠ فى عام ١٨٦٣، ثم ٥٦٥٠٠ عام ١٨٦٤ واستمر ذلك حتى انهارت أسعار القطن عام ١٨٦٦ فهبطت أعداد الوافدين إلى ٥٠٠٠٠، أما فى عام ١٨٧٨ فقد بلغ عددهم ٦٨٠٠٠ منهم ١٤٠٠٠ فرنسى، و١٥٠٠٠ إيطالى، و٣٠٠٠٠ يونانى.

وازداد النهم الاقتصادى الأوروبى بمصر، فما زال هناك مال يمكن كسبه، وظهرت مصارف أوربية عديدة وجديدة مثل كريدى فونسيه، والشركة العامة، وروز تشايلد، والبنك الانجليزى المصرى، الشركة التجارية المصرية، والبنك النمسوى المصرى، والبنك الفرنسى المصرى، وغيرها. وازداد النفوذ الأجنبى فى مصر بصورة كبيرة، بفضل قانون الامتيازات الذى أعفى الأجانب من الضرائب، وبفضل تعاطف سعيد وإسماعيل معهم.

لقد استطاعت الرأسمالية الاستعمارية أن تضرب بجذورها فى أعماق الاقتصاد المصرى وبالتالى فى الحياة المصرية، ودليلنا على ذلك الاسكندرية العاصمة الاقتصادية لمصر، واستطاعت أن تؤثر فى مختلف مناحى الحياة بعد

أن تضخم رأس المال الأجنبى الذى نما سريعا ليسيطر على البلاد تجاريا وماليا. وتضخم حجم الديون المصرية حتى أنشىء صندوق الدين عام ١٨٦٧ وأقيمت الرقابة الثنائية. وفى الوقت نفسه أعلن تدويل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية. وتأسست المحاكم المختلطة التى عدها المؤرخون استثمارا أوروبيا كبيرا فى مصر، حيث أطلقت النفوذ الأوروبى فى بلادنا. وفى شهر أغسطس ١٨٧٨ وضعت الدائرة السنية فى أيدى الأوروبيين. ووافق إسماعيل على تشكيل وزارة تضم عضوين أوروبيين لهما حق الاعتراض.

وكان لهذه الأحداث كبير الأثر فى تطور الحركة القومية، فقد كانت الوزارة أجنبية، أقصت الموظفين المصريين عن النفوذ والسلطة، وعزلت بعضهم بحجة الاقتصاد وعينت الأجانب فى الوظائف المهمة. واستهلت الوزارة حكمها بعقد قرض جديد بشروط مجحفة، وأغلقت المدارس، وتم تسريح عدد كبير من الجنود، فسخط الناس على هذا الحكم العاجز الظالم وتذمر الجنود والأهالى، فسقطت وزارة نوبار باشا رئيس الوزراء(٧) .

وبعد فترة تشكلت وزارة وطنية بلا أجانب. وكان هذا يعنى إنهاء التدخل الأجنبى الذى فرضته الوصاية الدولية على مصر، فتأجج الشعور القومى وتوهجت جذوة الوطنية فى النفوس، وفى ٤ مايو ١٨٧٩ أخبر الخديو إسماعيل الإنجليز وفرنسا أن الرأى العام المصرى لن يسمح بدخول الأجانب فى الوزارة. وفى ١٧ مايو قدم محمد شريف باشا إلى مجلس شورى النواب لائحته الأساسية التى خولت المجلس حق إقرار القوانين، وإقرار الميزانية، ومسئولية الوزارة أمامه وكانت لائحة عظيمة بحق ترضى رغبات المصريين، ولكن قبل أن يفرغ أعضاء المجلس من مناقشتها طلبت بريطانيا وفرنسا من السلطان العثمانى عزل إسماعيل. وفى ١٨٧٩/٦/٢٥ أرسل الصدر الأعظم إلى الخديو إسماعيل برقيته الشهيرة المرسلة إلى الخديو السابق، فترك

العرش لابنه توفيق وأبحر إلى إيطاليا ، وقد اشتعلت صدور المصريين نارا .

وكان إسماعيل قد أطلق عنان الصحافة ومنحها حريتها - خاصة فى أواخر حكمه - فكانت عاملا مساعدا له فى تعبئة الرأى العام ضد أى تدخل أجنبى، وكانت فرصة رائعة للمصريين كى يمارسوا علنا جوانب حياتهم السياسية كتابة وخطابة. وكان لعبد الله النديم فى ذلك شأن أى شأن. ولكن نسى إسماعيل - من بين مانسى - أن الموقف الطبيعى لهذه الصحافة أن تتحول بعد ذلك لنقد حكمه وتصرفاته الشخصية.

لقد تحطمت الحواجز والسدود وأمام التفكير السياسى المصرى، وصارت الصحف تهاجم فرنسا وإنجلترا والتدخل الأوروبى بلهجة عنيفة[٨]. وصار المصريون يشعرون بقوتهم، وانتبه الرأى العام إلى قدرته على التصدى للظلم والمطالبة بالحقوق. «وهذا الشعور إذا وجد فى أمة كان لابد لها من قادة يشعرون شعور الناس، ويصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شعور من شعر، وينبهون بها من لم يشعر، فكان ذلك فى جمال الدين ومدرسته»[٩] ومنهم عبد الله النديم .

وهكذا احتلت الصحافة المصرية مكانا غاية فى الخطورة، فقد «تشوق الأهالى إلى معرفة ما سيكون. وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار، وأكثروا من شرائها. واضطر من لايعرف القراءة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها، فكنت تراهم فى الشوارع جماعات وبينهم الرجل أو الصبى يقرأ عليهم. أو يقف صبى فى حانوت وبيده صحيفة وأمام الحانوت خلق محدقون بالصبى وهو يقرأ»[١٠].

وتولى الخديو محمد توفيق حكم مصر (١٨٧٩) حتى عام (١٨٩٢) فأعاد السيطرة الأجنبية والمراقبة الثنائية وقانون التصفية لتسوية الديون، فرفض الناس ذلك منه، واتهموه بالاستسلام للأجانب. ورد رياض باشا رئيس الحكومة

بأن كمم الصحافة وقصف الأقلام، وصادر الصحف الوطنية، ومنع بعض الجرائد مثل (أبو نضارة) من دخول مصر، وبذلك صار السبيل ممهدا لقيام ثورة وحدوث نضال حاد ذى ثلاث شعب: «بين روح القومية الصاعدة والسلطة الخديوية المتهاوية، والأجانب بنفوذهم القوى فى البلاد»[١١]

واشتد تأجج الشعور القومى وذاعت الأفكار الإصلاحية والآراء التحررية، ونشطت حركة فكرية وأدبية كان لها أثرها المحمود فى اللغة والأدب وظهرت الجمعيات الثقافية المتعددة التى وسعت كثيرا من رقعة الثقافة حيث كانت مجالا طيبا لنشر الأفكار وبث الوعى مثل الجمعية الخيرية الإسلامية التى أنشئت بالإسكندرية عام ١٨٧٨ وكان من أعلامها عبد الله النديم.

هذا الشعور القومى أو الوعى العام اتخذ مظهرين أولهما فكرى ظهر لنا فى اللغة والأدب والصحافة والتعليم والجمعيات الثقافية المختلفة وهذه جميعا ضرب فيها النديم بسهم :

وثانيهما: سياسى ظهرلنا فى الثورة العرابية ، وقد مثل النديم، جهازها الإعلامى الكبير، ولئن كانت الثورة قد انتهت إلى الفشل إلا أن الشعور القومى والوعى العام بقيا لنا إلى اليوم. وتمثلا فيما حدث بعد ذلك من ثورات ، وبرز لنا فى تفدق حياتنا الثقافية والفكرية إلى اليوم.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك طبيعة الشخصية السكندرية في عشقها للآداب والفنون، والجموح، والرغبة فى التحدى، والميل إلى التأمل والنظر الفلسفى، ورفض الاستكانة والخنوع، وحب الطبيعة والرغبة فى التحرر،، والهجاء الاجتماعى والسخرية من النقائص والعيوب، لاستطعنا أن ندرك فى سهولة عنصرين أساسيين فى شعر النديم هما موضوعاته وأفكاره فى لغته وأسلوبه مثل الميل إلى المزج بين الألفاظ الفصيحة والمولدة.

ونستطيع أن نقطع أن موضوعات النديم وأفكاره فى جانب منها كانت تعبيرا

عن بيئته وعصره اللذين عجا بأحداث جسام وتفاعلات حادة لم يكن يستطيع إخراج نفسه منها. إلا أن لغته وأدواته الفنية فى صناعة الشعر لم تكن مسايرة لهذا التطور الاجتماعى الهائل ولم تتسرب إليها أفكار العصر وانفعالاته. وظل إبداع النديم الفنى امتدادا لزمن ولى وعصر انقضى ضمن زمرة عاشوا العصر بأجسادهم فقط وبقيت هممهم وأرواحهم وخيالاتهم تحلق فى الزمن البعيد..

فلم يظهر فى شعر النديم تعبير عن النهضة العامة التى شملت جوانب الحياة فى عصره، وظل شعره غارقا فى التهانى والمدائح والمطارحات والألاعيب اللفظية والاستخدام البلاغى العقيم. وهو ما سيبين لنا فى الدراسة الفنية لشعره.

شعره :

عبد الله النديم شاعر ليس له ديوان مخطوط أو مطبوع، فلقد ورد فى ترجمة حياته أنه فقد ديوانين يضمان نحو سبعة آلاف بيت من الشعر، وأنه نظم فى فترة اختفائه ديوانا ثالثا يضم نحو عشرة آلاف بيت لم تصل إليه أيدى الباحثين بعد وفاته[١٢].

ولكن حفظ لنا مابقى من أعمال النديم المنثورة كثيرا من النماذج الشعرية التى تدل على شاعرية الرجل وغزارة إنتاجه. فقد كان الشعر واضحا فى كل آثاره مثل الرسائل والخطب والمقالات والمقامات والمذكرات وغيرها، ومن كل ذلك علينا أن نتلمس جوانب شاعريته.

لقد عاش عبد الله النديم حياة ممتدة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كانت مصر تشهد نهضة عامة فى مختلف الفنون والشئون وتعيش نضالا عظيما ضد التدخل الأجنبى والحكم المستبد. إلا أن الشعر العربى فى منتصف القرن الماضى لم يكن مواكبا لهذه النهضة ولا لتلك الأحداث. بل كان

الشعر ما يزال يعيش على تراث فترة مضت وامتدادا لما كان سائدا فى العصرين المملوكى والعثماني حين غلبت عليه الزينة اللفظية، والمحسنات البديعية وشيوع نظم الشعر كأداة للتظرف فما أكثر ما نجد من النظامين الذين يتلهون بالشعر في المناسبات المختلفة ولكن ما أندر الشعر الذى يستحق أن يسمى شعرا.

وظلت الصناعة اللفظية هى الغالبة على أساليب الشعراء الذين لم ينفكوا عن الولع بالتأريخ الشعرى والشعر التعليمى، والشغف بالتقريظات الشعرية والمحسنات البديعية والاهتمام بالموضوعات التافهة مثل التهانى والمدائح، وصنع المقطعات الشعرية التى دعت إليها البطالة والفراغ والضعف الفكرى مثل الألغاز والأحاجى والتضمين والاقتباس والتشيطر وتسجيل المعلومات شعرا بحيث تبدو القصيدة خالية من الصورة الشعرية أوالتعبير الشعرى الرقيق، والاستخدام البلاغى السامى والتعبير عن الأحاسيس الوجدانية. وفى النهاية فإن ما يربطها بالشعر هما الوزن والقافية .

وحين نقلب الطرف فى شعر النديم تلوح لنا عناصره وخصائصه الفنية التى تتصل اتصالا وثيقا بشعر مرحلة الجمود. ومن أبرز ملامح شعره الآتى :

أولا: التأريخ الشعرى :

انشغل الشعراء كثيرا بالتأريخ للحدث الذى هو موضوع القصيدة. ولماكان الموضوع زيارة عظيم أو زفاف صديق أو ختان غلام أو ما أشبه ذلك فقد كان على الشاعر أن يسجل بقصيدته تاريخ ذلك الحدث، بأن يأتى ببيت أو شطرة يكون مجموع حروف كلماتها مساويا فى حاصل جمعه لرقم العام الذى يريد
يكون مجموع حروف كلماتها مساويا فى حاصل جمعه لرقم العام الذى يريد
الشاعر أن يثبت رقمه. وهذه عملية عقلية تدل على العسر والافتعال، وعلى انقطاع الصلة الشعورية بين الشاعر وما يبدع، وتدل على أن الشعر قد تحول

إلى غير ما ينبغي أن يكون عليه من سمو وتحليق.

ولقد كتب النديم في ذلك شأن أكثر شعراء عصره، وضرب بسهم في التأريخ الشعري، فقد كان الشعراء يظنون الأمر مظهرا للمهارة الفائقة . ومما نظمه النديم في ذلك تأريخه وفاة الخديو توفيق قائلا ضمن قصيدة طويلة:

فلملائك الجنات قالت أرخوا　　　توفيق في عز النعيم السرمدي(١٣)

ويبدأ الحساب دائمابعد كلمة التاريخ أو أرخ أو أي لفظة فيها حروف التاريخ وفي البيت السابق نجد التاريخ في الشطرة الثانية كاملة، وحسابها كالآتي:

ت و ف ي ق	ف ي	ع ز	ال ن ع ي م	ال س ر م د ي
١٠٠+١٠+٨٠+٦+٤٠٠	١٠+٨٠	٧+٧٠	٤٠+١٠+٧٠+٥٠+٣٠+١	١٠+٤+٤٠+٢٠٠+٦٠+٣٠+١
٥٩٦ =	٩٠ =	٧٧ =	٢٠١ =	٢٤٥ =

والمجموع الكلى = ١٣٠٩ .

وهذا الكلف الشديد يمثل عملية التأريخ الشعرى يدلنا على ما كانت عليه حال الشعراء الوجدانية والعقلية، وما أن على عقولهم وشمل حياتهم. وفي النهاية كان الشعر العربي مفقودا في ساحة الأدب، فحين يهتم الشاعر بتجميع حروف بعينها يكون حاصل جمعها رقما بعينه يريد الشاعر إثباته، ففي ذلك افتعال أي افتعال، ويكون طبيعيا ألا يهتم الشاعر باللفظ الرقيق أو الشريف، وألا يهتم بموسيقية العبارة وتناسقها، وألا يهتم بالتعبير الشعرى المحلق. ناهيك عن انعدام الخيال وموات الوجدان ، فيكون إبداعه آخر الأمر شيئا فقد روح الشعر وماءه، وضاع فيه نبض الوجود، واختفت دفقات النفس.

ثانيا : الافتعال والتكلف

نظم النديم – شأن شعراء عصره – عددا من المحاولات المتكلفة العسيرة لإثبات مقدرته الشعرية. وهى أعمال تشبه المسائل الرياضية، وتلوح فيها سيطرة العقل على عملية الإبداع الشعرى، ويبين فيها العمد، والقصد المبيت من قبل إبداع القصيدة. وفى ذلك عدم صدق، وغل لانطلاقة النفس، وتأكيد لموت العاطفة، ودليل على انعدام الخيال.

- لقد نظم النديم قصيدة طويلة أسماها «ألف بالمطارحة الألبا» لم تصل إلينا ويقال إنها كانت كتابا لم يتمه وإن عرف به. ولقد أورد النديم نماذج من كتابه هذا فى صحيفة الأستاذ، وقال فى تقدمته :

«رتبته على حروف أ ب ت ث الخ ملتزما بدء كل بيت بحرف بابه، آتيا بالقافية على بقية الحروف، غيرملتزم بحرا من أبحر الشعر لما فى ذلك من السآمة والملل. سالكا بالنظم مسلك الأمثال فى غالبه،، وقد آتى فى بعضه بمدح أو غزل أو هزل ترويجا للنفس.. وبإتمام نظمه يكون مجموع ما فيه ١٠٤١ بيتا، وهى كفاية لمجالس متعددة خصوصا إذا ضم إليه ما يحفظه المطارح من غيرها»(١٤) ثم أورد قصيدتين الأولى على حرف الألف والثانية على حرف الباء، نورد بعض أبيات من الأولى :

الحمــــد لـلـــه البديـــــع الأول	من أنشـــأ الأكوان طرا كيـف شـا
أوحى إلـى خـير الـورى قـرآنه	يهـدى بـه الأفكــار والألبـابــا
أنواره كالشمس تهـدى مؤمـنـا	كى لا يـرى فــى زمــرة الأموات
آياتــه الحــق المبـين المرتضى	من هديـه تنأى العقول عن العبث
اضـرب به شكــا وظـنا واتبـع	للحــق أمــرا ترتقى أعـلـى درج
أحسن إلى الأعداء تجذب قلبهم	واصفح عن الزلات تعرف بالسماح

إن رمت أنت درى الوجود وما به   جبـــه بحســـن قـــراءة التاريـــخ

أيام سعدك فرصة فاجعل لهـــا   شـكـــر الإلـــه وسيلـــة تتجـــدد

وهكذا إلى آخر حروف الأبجدية العربية.

ومثل هذا النموذج يفرض علينا عددا من الحقائق :

١- كتب النديم قصيدته على حرف الألف أى أن جميع أبياتها تبدأ بحرف الألف، فى حين تنتهى الأبيات بحروف الأبجدية العربية فى تتابعها من الألف إلى الياء. ومن ثم فإن الشاعر لم يلتزم بالقافية حتى يورد حروف الأبجدية فى تتاليها .

٢- إن الإصرار المسبق من الشاعر على أن يبدأ كل بيت بحرف معين لايتغير وينتهى بحرف آخر مقصود لذاته، لهو دليل أكيد على الافتعال والتكلف وسيطرة العقل، كما أنه جهل بحقائق الشعر وماهية الإبداع .

٣- ذكر النديم فى تقدمته أنه «غير ملتزم بحرا من أبحر الشعر لما فى ذلك من السآمة والملل». وهذا زعم باطل لانصدقه فيه، ودليلنا على ذلك أن الرجل لم تعرف له أدنى محاولة للتجديد فى الوزن الشعرى، كما أنه لم يتل كتابه هذا بأعمال أخرى تؤكد إيمانه بالفكرة وإلحاحه عليها.

وأغلب ظنى أن هذه العبارة التى ذكر فيها (السمة والملل) ليست مقصودة لذاتها وليست صادرة عن نفس ممتلئة بفكرة رتابة الوزن العربى. وقد تكون بعضا مما علق بذهنه فى تردده على مجالس الأدباء تردده هكذا، ضمن حقائق العصر المؤكدة أن الشاعر عبد اللطيف الصيرفى (١٨٤١ - ١٩٠٥) كان أحد شعراء الاسكندرية اللامعين، وكان معاصرا للنديم وأرسخ منه قدما فى الشعر،و قد طرح هذه الفكرة وعالجها فى ديوانه المطبوع عام ١٩٠٨[١٥].

٤- كتب النديم قصيدته بهدف أن يستخدمها المطارحون فى مجالسهم، ولذا شملت أغرضا شتى مثل المدح والغزل والهزل وغيرها . وذلك أمر بعيد عن الشعر.

٥- إن القصيدة تصرخ فى وجوهنا بالتصنع والافتعال، وتنهض مثالا جيدا لشعر الصنعة والجمود.

ثالثا: التضمين والاقتباس :

لجأ النديم إلى تضمين شعره أبياتا وأشطرا من شعر غيره من الشعراء العرب المشاهير وأولهم المتنبى، كما لجأ إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم ، مثل قوله :

صدق النبى أتـــى به وحــى تنـــزل م الســـمـا

فــالله قــال لقومـــــه ما ضل صاحبكم وما غـوى[١٦]

فالأبيات تقريرية ومباشرة وبعيدة عن الإبداع الشعرى لكنها قد تدخل فى الشعر التعليمى

رابعا: المبالغات

شارك النديم شعراء عصره فى الاهتمام بالمبالغات المتكلفة العسيرة ومن شأن مثل هذه المبالغات المفرطة أن تقلب المعنى إلى ضده أو تذهب به إلى حافة الهزل والسخرية. انظر معى إلى رثاء النديم للخديو توفيق :

ما للكواكب لاترى فــى المرصـد والكون أصبح فى لباس أسـود

عم الكسوف الكل أم فقد الضيا أم كلنـا يرنـــو بمقلـــة أرمــــد

لقد تمزقت الكواكب وتناثرت حزنا على وفاة الخديو فلا سبيل إلى رؤيتها ثانية ولو استخدمنا فى ذلك المراصد التى تكشف البعيد والدقيق، أما الكون

فقد غابت شمسه وقمره ونجومه واشتد ظلامه واكتسى بالسواد. ومثل هذه المبالغات فيها إفراط وتزيد ، وخروج - مكروه - عن المنطقى والمألوف . وكأن الخديو ليس بشرا تجرى عليه سنن الله فى مخلوقاته

خامسا : الألاعيب اللفظية :

مال عبد الله النديم إلى استخدام ألوان البديع المختلفة التى افتتن بها شعراء العصر، وظنوها دليلا على المهارة ومقياس للجودة الفنية، فسطروا لنا أبياتا مثقلة بالزخارف البديعية من تورية وجناس وطباق وتطريز وتضمين، إلى غير ذلك من ألوان الرياضة الذهنية التى صرفوا إليها همتهم فأطاحت بهم بعيدا عن مفهوم الشعر ورسالته السامية.

إقرأ معى استخدام النديم للجناس فى أبياته قائلا :-

لَسْتُ الملول على التدليل والنـــــوى   إن لم يكن روحى على هجرى نوى

ما دام يرضى مُنيتى فقد استـــوى   عندى الإقامة فى شبين أو نـــوى

أطعـــــــمته أثمـــار ودى كلــهـــا   وغُذيت مــن ثمر المحبة بالنوى(١٧)

ومثل هذه الأبيات تنهض دليلا على التفكه وخفة الروح، لكنها ليست تعبيرا شعريا رقيقا، وهى خالية من الاستخدام البلاغى السامى، وخالية من شتى الأحاسيس الوجدانية. إنها خالية من كل ما يمكن أن يربطها بسبب إلى الشعر عدا الوزن والقافية.

سادسا : الغزل

كتب النديم، الغزل ومن شأن الغزل أن يكون تعبيرا عن دفقة الشعور وثورة العواطف، واشتعال الفكر. إلا أننا فى غزليات النديم لانجد شيئا من هذا، بل نجد صناعة فنية يسيطر العقل على كل جوانبها . فلا حرارة ولا جدة ولا نفاذ، ولا نجد خيالا جامحا أو محلقا ولا صورة مبتكرة. خذ مثلا إليك:

سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه	وكُفّوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره	وولوا إذا دَبّت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده	فلو أتلفَ الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه	ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدني الحبيب لصبه	سوى زفرة تثني الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه	ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
ولو أن دمعي أرسل الطرف مرة	سفيرا لقلبي ما توالت كتائبه(١٨)

فنجد صناعة هندسية ودقيقة توازن بين الشطرة الأولى والثانية في كل بيت وذلك دليل قاطع على سيطرة العقل على عملية الإبداع الشعرى وهو أمر بعيد كل البعد عن الغزل.

لكننا نلمح أيضا خفة روح النديم في تعبيراته وهذه خصيصة غير منكرة في شعره.

سابعا : المعارضات

كتب النديم كثيرا من القصائد يعارض بها عددا من قصائد الشعراء الأقدمين مثل المتبني وابن زيدون والطغرائي وغيرهم. ولم ترد إلينا أيضا معارضاته كاملة بل هي مقطوعات مبثوثة في أخبار الرجل. إلا أن معارضة وحيدة وصلتنا تامة هي معارضة لقصيدة ابن زيدون التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقانا تجافينا

وقد بلغتنا هذه المعارضة كاملة لأن النديم ضمنها روايته «الوطن وطالع التوفيق». وقال في مطلعها

أنوار عدلك تهدى حي نادينا	وحسن سيرك للعليا ينادينا

وقد ندد النديم فى القصيدة بحال أبناء الوطن المتأخرة واستحثهم على النهوض .

هذى معالمنا تبــكى وتــنشــرنا قول ابن زيدون إذ قامت تعزينـا

بنتم وبنا فما ابــتلت جوانــحـنا شــوقا إليكم ولا جفت مآقينـا

لو أننا مثل أهل الأرض فى هـمـم مـا قـام يندبنا أحيـا مغنيـنا

قل للنفوس التى ماتت بلا أجــل أين القلـوب التـى كانت تجارينـا

أين الشيوخ الأولى ساروا وسيرتهم مـسـك ذكى يباهى مسك دارينـا

أين العلوم التـى كانــت توصـلنـا باب السعود فصارت من أعادينا

أين الصنائع أين العارفون بـهـا أيـن الديـار التـى كانـت لأهلينا

كانت وكانوا وصار الكل فـى عـدم واستـعبدتنا بمـا تـهـوى أماتـينا

وكما رأينا الأبيات فإن التعبير الشعرى تعبير تقريرى مباشر لسيطرة الهدف العقلى المسبق على عملية الإبداع فالمبانى قريبة والألفاظ مباشرة والصور بسيطة وكأن خصائص الخطابة سيطرت على الأدوات الشعرية.

وهكذا فإن القيمة العليا فى الأداء الشعرى عند عبد الله النديم هى لأفكاره الإصلاحية ونشرها وتوصيلها إلى الجماهير. ولذا فقد أفاد النديم من هذه القصة التمثيلية ليوجه حديثه مباشره إلى الخديو توفيق قائلا :

فاجمع من القوم من ترضى خلائقه واجعل لكل من الأعضا قوانينـا

وشدد الأمر حتى لايضـيع سـدى واجعل زمامك فيه العدل واللينـا

وطهر القطـر ممـن طبعـه شــره وخائن يحرق المـأوى ويشوينـا

وكن لأهــل الوفـا حصـنا وملتجـأ وكن لأهل الهوى سيفا وسكينا

وليس من شك فى أن معارضات النديم قد أسهمت مع معارضات الرائد الكبير محمود سامى البارودى فى لفت أنظار الناس ناحية التراث العربى الزاهر. إلا أننا يجب أن نقول – أيضا – إن النديم فى معارضاته قد سار على الشكل التقليدى القديم للقصيدة الأولى وإن سعى كى يملأها بالتعبير عن عصره.

الخلاصة

من كل ما مضى نستطيع أن نستخلص عدداً من الحقائق الأساسية فى شعرعبد الله النديم":

أولا: إن عبد الله النديم حافظ على الشكل التقليدى للقصيدة العربية من حيث الوزن والقافية، فقد كانت القصيدة عنده تبنى على وزن واحد وتمتد على قافية موحدة لاتتغير.

ثانيا : إن لغة النديم فى قصائده كانت لغة فصحى وإن خالطها كثير من الألفاظ المولدة أوالأعجمية .

ثالثا: إن قيم الشعرعند النديم هى قيم الشعر الغالبة فى زمانه، وهى قيم جامدة تعبر عن تأخر الشعراء وتعطل القيم الفنية، ومحاولة إثبات مهارة حرفية بعيدة عن الإلهام والنبوغ.

رابعا: إن عبد الله النديم قد استغرقت أفكاره الإصلاحية همكته، لكنه كتب الشعر شأن كثير من الشعراء الذين كانوا يرون كتابة الشعر موجبا من موجبات التعلم، فهو صناعة ومهارة، وليس صدورا عن طبع سمح وموهبة خلاقة. وأيضا كان الشعر أداة أساسا من أدوات دعوته الإصلاحية.

خامسا: لا نكاد نعثر فى قصائد النديم وأبياته على أثر لعناصر الصناعة الشعرية فلا نجد حرارة العاطفة ولا نجد جموح الخيال وتحليقه فى الآفاق وربطه للعناصر المتباعدة ولكنه التصاق بالأرض وتقريرية ومباشرة أو استخدام بسيط للبلاغة العربية .

سادسا : إن خصائص البيئة السكندرية تبدو واضحة فى شعر النديم مثل ميله إلى المرح والفكاهة ومثل السخرية والهجاء الاجتماعى .

هوامش البحث

١- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار، ج٢ ص٢٤١.

٢- عمر طوسون : الجيش المصرى فى عهد محمد على، ص١٧ الاسكندرية ١٩٣٥.

٣- دافيد لاندز : بنوك وباشوات. ترجمة عبد العظيم أنيس ص ٨١.

٤-٥ المصدر المصدر السابق ص٨٢.

٦- J. Heyuorth. Dunne: An Introduction to the history of Modern Eduction in Egypt - p 343- London 1938.

٧- عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل، ج٢، ص١٨٥- ١٩٣، ط٣ دار المعارف، ١٩٨٢.

٨- إبراهيم عبده : تطور الصحافة ط١ الآداب ١٩٥١.، ص٩٧ .

٩- أحمد أمين : زعماء الإصلاح لجنة التاليف والنشر ١٩٤٨، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

١٠- ميخائيل شاروبيم :الكافى فى تاريخ، مصر ج٤، ط١ بولاق ١٩٠٠ ،ص ٢٥٨

١١- أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسالة المصريةالقاهرة ١٩٢٦، ص ١٢٣ - ١٢٩ .

١٢- سلافة النديم ص ١٥ مطبعة الجامعة بمصر ١٨٩٧.

١٣- صحيفة الأستاذ - العدد الأول (١٨٩٢/٨/٢٣) ص٥.

١٤- صحيفة الاستاذ - العدد ٤١ (١٨٩٣/٦/٦) ص ٩٩٨ - ١٠٠١.

١٥- د. عبد الله سرور : اتجاهات الشعر السكندرى

١٦- سلافة النديم، ج٢ ص ١٢٩.

١٧- سلافة النديم، ج١ ص ٤٧.

١٨- أحمد تيمور: تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ص٥.

مؤتمر عبد الله النديم: بأسيوط

مفهوم (الغرب) عند عبد الله النديم

د. مصطفى عبد الغنى

المحرر الأدبى بجريدة الأهرام

بين عامىْ ١٨٤٣ - ١٨٩٦) ولد وعاش عبد الله النديم وفى هذه الفترة شهد التاريخ المصرى اكثر فترات الصراع الوطنى بين مصر والغرب، وهو صراع اتخذ فيه عبد الله النديم - احد رواد عصر النهضة الثانى فى نهاية القرن التاسع عشر) - موقفا محددا من الغرب.

كان المثقفون فى النصف الاول من القرن التاسع عشر يقفون - فى الغالب - موقف الانبهار بالغرب والاعجاب به، حتى إذا ما كشف الدول الاوروبية عن اعراضها الحقيقية فى استعمار الشرق والسيطرة عليه، حتى كان مثقفو هذه الفترة - وفى مقدمتهم النديم - قد اضاف إلى الاعجاب بالغرب تخوفا منه، فقد مضى منتصف القرن بتنبيه رفاعه الطهطاوى إلى ان الغرب لايعنى خطرا سياسيا وإنما هو خطر خلقى فقط، حتى إذا ما جاء الجيل التالي حتى اضاف إلى الخطر السياسى وتاكيده له الخطر الفكرى، فإذا بعبد الله النديم تلميذ جمال الدين الافغانى ومريد محمد عبده وصديق محمود سامى البارودى.. قد ادرك خطورة الغرب مما عمق لديه هذا الاحساس بالثنائية بين اطماع الغرب وحضارته.

كان الغرب قد خلع مسوح الحضارة، وارتدى زى المستعمر، وتحدد السنوات بين عامى ١٨٧٥ - ١٨٨٢ فى مصر تاكيد هذا الفعل، اذا سعت الدول الغربية للسيطرة على املاك الامبراطورية العثمانية، بل لن تعد هذه الامبراطورية قادرة على حماية ولاياتها، وكان ابرز الدلالات على ذلك احتلالا فرنسا لتونس عام ١٨٩١، واختلالا انجلترا لمصر بعد فصول طويلة حزينة من السيطرة على الحاكم ووطاة الديون وتهديد الثغور، وعلى ذلك، ادرك المسلمون ان الحضارة الأوروبية الان تخطت درجة المدنية والتحضر إلى التهديد والاستيلاء، وهو ما يعهد المجتمع كله، فقد كانوا يعتقدون - كما لاحظ البرت محوارنى - ان احدى خائص الامة كونها مجتمعا سياسيا يعبر عن نفسه فى

جميع مظاهر الحياة السياسية، وأن هذا المجتمع إنما يزول بفقدان السلطة والسيادة. لذلك شغلت قضية الانحطاط عقولهم دوما. أما الان، فقد اقترنت بها قضية جديدة هى قضية البقاء (الفكر العربى فى عصر النهضة، ص ١٣٢).

كان الغرب يسعى - على النقيض من الشرق الاسلامى - للسيطرة على هذه المساحات الشاسعة التى يقطنتها الشعوب الشرقية، وعرف النديم فى ذلك الوقت - بتعبير دقيق - المصير الذى يمكن تنتهى به بلد كمصر على اثر الاحتكاك بهذا الغرب دخول مصر السوق الرأسمالية العلمية، واكتساب القطن لا سواقه خاصة خلال الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥)، فتح قناة السويس عام ١٨٦٩، وما استتبع ذلك من احتدام الصراع الانجليزى الفرنسى على ارض مصر، وهو الصراع الذى كان قد بدا رسميا مع نزول نابليون على الاراضى المصرية فى يوليو عام ١٧٩٨. «ندوة النديم، المجلس الاعلى للثقافة مايو٩٥).

رمن ثم، عرفت بداية السبعينات من القرن الماضى بدايات التدخل فى الشئون الداخلية المصرية - المالية بوجه خاص - مما خلق أزمات، وتفاقم احداث انتهت اخيرا بخلع الخديو اسماعيل عام ١٨٧٩..

وقد تبع ذلك ارتفاع المد الوطنى إلى اقصاه، حيث شارك فى هذا عدد كبير من المثقفين بدأ بجمال الدين الأفغانى الذى اشعل فترة السبعينات من القرن الماضى مروراً بكل تلامذته ومريديه كمحمد عبده وعبد السلام المويلحى وقاسن امين وعبدالله النديم وصولا إلى سعد زغلول الذى لعب دورا رائدا ضد الاستعمار الانجليزى فيما بعد..

ففى هذه السنوات الماضية عرفت مصر استكمال مؤسسات مدنية كثيرة، ومؤسسات ثقافية ومظاهر اوروبية للحضارة والسياسة، وصحف متنوعة، واجتماعات متوالية للمثقفين والسياسيين من النخبة الفاعلة.

غير ان هذه الفترة كانت قد تركت فى الوجدان المصرى اثارا عميقة اهتز لها الكيان المصرى كله، اذا كانت جملة المتغيرات التى بدات منذ منتصف هذا القرن وقبلها بكثير - مع عشرينات القرن الماضى مع حركة البعثات وانشاء المدارس العليا.. الخ - قد بدات تتحول إلى ردود افعال وطنية تبلورت فى قيام الثورة العرابية أو عبرت عن نفسها فى طرح الكثير من التساؤلات التى كانت اجاباتها تتنوع وتتلون حسب كل موقف..

وقد زاد من خصوصية من هذه التسؤلات والاجابات التى تولت الاحداث التعبير بها هذا المناخ الذى عاش فيه النديم منذ خرج من الاسكندرية وهى تموج بالاجانب إلى القاهرة وهى تموج بالنخب الجديدة، وتجمعت كلها حول الواقع الجديد.

وعلى ذلك، لم تكن من المصادفة ان تتحدد الاسئلة التى طرحت فى هذا الوقت حول سؤال البقاء:

كيف يمكن للدول الاسلامية مقاومة الخطر الخارجى الجديد؟

لقد تحولت اوربا الان من نموذج حضارى إلى نموذج خطر على الاسس الشرقية نفسها، وتصدى الكثير من الغربيين لتاكيد هذا الواقع الجديد بالتقليل من الاسلام، والرهاص بان الحضارة تختلف عن الاسلام، ومن ثم حول الغرب حينئذ ان يدخل فى الروع مسئولية الاسلام عن التخلف الذى يعيش فيه المسلمين، ومن هنا، نشطت هذه المناظرات التى ارادت ان تقول بغير ذلك، ان جمال الدين الفغانى فى مناظرته مع رينان كان يسعى إلى تاكيد الدور الايجابى للاسلام إذا ما احسن المسلمون العودة إلى نبعه الأول، فى حين أن محمد عبده فى مناظرته مع هانوتو كان يسعى إلى تاكيد الدور الايجابى للاسلام إذا ما احسن فهم ان المدنية الغربية مطابقة للاسلام، كذلك فان قاسم شغل بمعركة مع اخرين مثل هذه عن (المصريين)، كذلك لانفقد جهدا لدى عبد الله

النديم لتأكيد جوهر الاسلام واشراق مع صديق فرنسى لم يذكر اسمه فى كتابه (كان.. ويكون) الذى كتبه فى منفاه على اثر هزيمة الثورة العرابية وهروبه قرابة عشر سنوات متخفيا فى البلاد.

بيد ان النديم فى تاكيده للوجه الاسلامى الايجابى لم يقع فى خطا ان الحضارة الغربية لها وجه واحد متجانس، ان ان الحضارة الغربية تسعى إلى الاستعمار والسيطرة فقط، أو ان فلسفتها تقوم على التدمير والعنف دون ان يلتفت إلى ما فى هذه الحضارة من قيم إيجابية لا يمكن اغفالها، فى وقت لا يمكن فيه اغفال الهوية العربية للوصول إلى فهم واضح لما يحدث حوله.

ومن هنا، يمكن تلخيص فلسفة عبد الله النديم من الغرب على هذا النحو: -

أ - للغرب وجه مظلم/ مستعمر

ب - للغرب وجه مضئ/ متحضر

وكان مع هذا لايتردد من تاكيد أننا فى فهم هذه الفلسفة لابد من ان نتنبه لتكوين (هوية) عربية يمكن ان يسلبها منا الغرب المستعمر، كما يمكن اثراء هذه الهوية انسانيا إذا تنبهنا إلى التجربة الايجابية المتحضرة للغرب

وهو ما اختلط فى وعى النديم خلال كفاحه اليومى ضد الغرب، وتجربته الايجابية التى كان قد استخلصها من فضاء هذا التغير الضخم حوله وهو ما نتمهل عنده أكثر.

(٢)

ربما كان الافغانى اكثر رجال عصره تأثر فى النديم، إذا ان مراجعة حياة النديم المتقلبة وافكاره المتغيرة ترينا ان فكر الافغانى اكثر توائما مع فكر تلميذه النديم، فقد علمه للتنبه إلى «خطر التدخل الأوروبى والحاجة إلى الوحدة الوطنية لمقاومته، والسعى إلى وحدة اوسع للشعوب الاسلامية، والمطالبة

بدستور يحد من سلطة الحاكم. كذلك التشجيع على الكتابة واصدار الصحف وتكوين راى عام (حورانى، ص ١٣٨)..

غير انه من المؤكد ان النديم، رغم تجاربه التى بدت محدودة بالنسبة لتجارب الأفغانى وخبرته الطويلة، كان اكثر من استاذه وعيا للجماهير العريضة، ومن ثم فقد اضيف إلى فهمه لدروس الاستاذ وعيا بقدرة (العامة) أو قوتهم فى تغيير الاحداث..

وقد اقترن بذلك فهما اكثر بالشعب المصرى . ربما لكونه مصريا، ولأنه ابن بيئة شعبية، لم يكن قد تعدى الثلاثين حين كان قد عمل فى كثير من الاعمال الشعبية مع ابيه الفقير، ولم يلبث ان عمل فى بنها عمالا للتلغراف انتقل بعدها للعمل باحد القصور بالقاهرة فى نفس المهنة، ووجد فى مجتمع الافغانى وعبده وزغلول وغيرهم متنفسا له، وساح كثيرا فى الاقاليم والقرى بعد ان غضب عليه صاحب القصر فطرد.

ويلاحظ اكثر من كاتب عن حياة النديم ان خروجه من مخبر ابيه بالاسكندرية إلى مكتب تلغراف فى القاهرة رمزا إلى «الخروج من العالم التقليد إلى عالم ثورة الاتصالات بمنطوق العصر وهى ثورة أثرت فى حياته فيما بعد حين مارس مظاهر الحياة الحديثة فى رحاب الثورة العرابية وفى انشاء الصحف والقاء الخطب والقاء نفسه فى اتون الثورة العرابية قبل ان يشهد اكثر من منفى واكثر من عودة يمارس فيها حياة التشرد، لكنه لا يتوقف عن ممارسة حياة التمرد على كل ما من شانه ان يعمل على احكام سيطرة الغرب على البلاد..

وربما كان اظهر مثال على هذا عمله فى الصحف.

تشير الوثائق إلى أنه فى الوقت الذى انتمى فيه عبد الله النديم إلى المحفل الماسونى الانجليزى (كوكب الشرق) مع استاذه الأفغانى كان يكتب فى صحيفتى المحفل (مصر) و(التجارة) المقالات التى كان لا ينى يردد فيها من

ان لاخر اثار الخطر البريطانى على الامة الاسلامية (انظر محفظة جمال الدين الافغانى)..

كما تؤكد المصادر إلى ان صحيفة (مرأة الشرق) كانت قد صودرت بناء على ايعاز من الحاكم الانجليزى الذى لاحظ فيها هجوما على السياسة المصرية التى تتمشى مع السياسة الانجليزية، وهو ما تكرر مع عدد من الصحف الاخرى التابعة للمحفل الماسونى أو خارجه.

الأمر الذى دفع القنصل الانجليزى إلى طلب من الخديوى للتخلص من جمال الدين الافغانى وهو ما حدث بالفعل باخراج الافغانى من مصر عام ١٨٧٩.

وفى هذه الفترة استطاع انشاء جريدة اخرى (التنكيت والتكبيت) عام ١٨٨١ متعرضا فيها للانجليز، وهو مافعله مع جريدة (الطائف) حتى إذا ما احتل الانجليز مصر حتى اصبح مطاردا منذ عام الاحتلال ١٨٨٢ وطيلة تسع سنوات (١٨٨٢ - ١٨٩١) حتى قبض عليه ونفى.

وحين عاد النديم من منفا حتى وجد نفسه أمام الانجليز وهم يسيطرون الان على كل المرافق فى البلاد، وكرومر يحكم بامره فى الصغير والكبير، ويأتمر الوزراء بامرته، فلم يلبث ان سعى إلى انشاء جريدة (الاستاذ) عام ١٩٩٣ وفى هذه الجريدة - كما سنرى - حارب النديم فى جبهات كثيرة، لكنه كان يجمع بينها موقفه المحدد من الغرب

ومن يتابع مواقف النديم وكتاباته الكثيرة كالدعوة إلى الحرية والكرامة والوطنية ورفض التعصب والمناداة بالدستور، غير ان اكثر ما تميز به موقفه من الاستعمار الغربى.

ومن يتابع رصد مواقفه من القضايا السياسية والاجتماعية (التى زادت

لديه خاصة فى الفترة الاخيرة) يجد أنها مرتبطة ارتباطا كبيرا بموقفه من الاحتلال الانجليزى وسيطرته على البلاد ودعوته إلى عدم اهلية المسلمين للدخول إلى ابواب الحضارة الغربية..

وقد بلغ للوصول إلى هذا السبيل درجة لمن التحايل التى لم وربما يكن معروفه عنه من الميل للتمرد والعنف فى التصدى للانجليز

وربما كانت صحيفة (الاستاذ) اكثر الصحف التى عبر فيها عن هذا كله، وأن لم يستطع ان يركب الرمز فترة طويلة أو يتخفى فى ثوب المهادن لكرومر أو صحفى المحتل فى صحيفة (المقطم)

وهو ما نتمهل عنده اكثر

(٣)

ان مراجعة اعداد (الاستاذ) خاصة اعدادها الاولى يؤكد ان النديم حاول التحكم فى اسلوبه العنيف، وان لم يستطع ان يستمر فى ذلك طويلا.

فمنذ البداية بدا ان أسلوبه اللين مع الخديو عباس الثانى هو معا داة للانجليز، وهو ما يفسر تاييد النديم له، وخاصة فى أزمة وزارية دارت بينه وبين الانجليز.

كان الانجليز فى استحوذاهم - حتى - على تعيين الوزراء تؤكد سيطرتها على البلاد، كما كانت تسوغ احتلال مصر «بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هى تحرمه. أى الخديوى - من سلطته فى اختيار وزرائه، وهو ما يفسر كيف وقف النديم بجانب الخديو الذى هو - بالتبعية ، يقف ضد المحتل

ويلاحظ أيضا ان موقف النديم من الاحتلال يتخذ اشكالا عدة غير المواجهة المباشرة..

ففى صورة غير مباشرة، نجده يركز طيلة اعدادا «الاستاذ» - على عديد

من الاسباب التي تعمل لتوعية الجماهير ضد الاحتلال كالحث على التعليم والمعارف، ،كذلك الدعوة إلى اصلاح الزهر (يمكن رصد دعوات الازهر منذ دعوة النديم، وهى دعوى تحققت بعد ذلك)، كذلك كان يدعو إلى أحياء الوطنية، والحث على الصناعة الوطنية، ورفض الكثير من العادات المستهجة، ومن هده العادات خص سعى الاغتياء إلى (تقليد) الغربيين سواء فى المأكل أو المشرب أو طرق العيش وشراء المنتجات الاجنبية، بل راح ينقد الكثير من المصريين لايثارهم الحياة الفاسدة والمترفة التى لا تنبع من بيئتنا وخاصة الخمر والميسر، وهو بهذا يشير إلى ضرورة تحرير الشخصية ما من شانه يحول بينها وبين التحرير من ريقه الاستعار القائم.

كذلك كان يدعو كثيرا إلى الاقبال على الطب والعلوم واللغات والإدارة (الاستانص ٢٧)، ولم يكن ليتردد فى القول بعض رفض الخمور بالتصريح إلى أن الغرب يجلب لنا الرذائل، فيصبح التقليد هنا اشارة إلى ضرورة الانصياع له وما يقدمه لنا (الاستاذ ج ١ص(٤٦).وفى كثير من السخرية يشير إلى ردود الدول الغربية على هذه الدعوات بأنه من المعروف أن ذلك (ضار بمصالح الدول الأجنبية) فهذا يسىء إلى الاقتصاد الغربى كثيرا(ص١٦٥).

ويتحول من النصح إلى الهجوم على أهل مصر الذين (اضاعتهم اللهو واللعب والتفريح ..) (١٩٤، بل أنه يسعى إلى تاكيد أن سبب تخلفنا عن الغرب ليس لغير تخلفنا عن لشف ذواتنا، والتنبه بما يجرى فى هذا العصر، ويصل هى هذا إلى اقصاه فى مقالته (بم تقدموا وتاخرنا والطلق واحد) (ص٣٣٧).

وكان النديم لا يتوقف عن القوة للقيم المتقدمة مرة بعد مرة ولا يياس ابدا، فهو يعود إلى ضرورة الاهتمام بتخلفنا عن اوربا، فيشير إلى عدم التنبه للغة العربية، كما يشير إلى أن من اسباب التقدم هو تخاشى الفتن، وايثار الهدوء والسكينه والفاظ- كما كان يردد ضدنا- على حقوق الغباء ..

كذلك دعا النديم انشاء مدرسة للبنين ومدرسة للبنات للاهتمام فى هذه أو تلك بمناهج العلوم العصرية. ورفض تردد الخلاف بين طوائف الامة الواحدة لئلا يستفيد المستعمر من التفرقة بين ابناء الوطن (ص ٤٠٩) .. وما إلى ذلك

ونلاحظ أنه كلما كانت تنشب ازمة بين الخديو والانجليز سرعان ما كان ياخذ جانب الخديوى، كتعبير عن الموقف المضاد للمتحل ففى مقالته (الحقوق المقدسة) فى ٢٤ يناير ١٨٩٣ راح يبذل الطاعة للمقام الخديوى والاعتراف بسيادته وسلطته، رافضا - فى الخلاف بين الخديوى والإنجليز - ان يعتمد «سيده وامير البلاد الشرعى على مشورة اجنبى «ج ٢/ ٥٤٢)، وقد وضع انجلترا فى عرض السؤال بعد أن تدخلت لفرض رئيس النظار، قال:

(والان تنتظر الازمة ما يحدث من انكلترة بعد ذلك فان تركت الوزارة المصرية تدير اعمالها بحسب مقتضيات الاحوال المصرية وما يناسب اخلاق الامة وعوائدها ومساعدتها على ذلك تحقق الكل صدق دعواها انها دخلت مصر للاصلاح لا للاغتصاب والتغلب ..) (٥٤٣)

ولا يتردد النديم فى الهجوم بعنف شديد على معاون بوليس انجلترا احتال حتى قتل احد الوطنيين، ثم راح يمثل بجثته رغم غضب اهله الشديد، خاتما موضوعه بكلمات (.. فى العدل الاتكليز واحكامهم) (٥٧٦)

كذلك يلتفت إلى سوء وضع الادارة فى يد الانجليز دون المصريين، غاضبا أن الامر جاوز المسئول الانجليزى إلى اجناس شتى مما يحدث اضطرابا كبيرا فى البلاد (اذ لا يلزم من اتساع علم الاجنبى فى الحساب او الترجمة أن يكون ذا خبرة بادارة احكام وامور البلاد يجهل كل ما فيها ..) (٥٨٠)

ولا يكتفى النديم بمهاجمة الانجليز فقط، وانما نراه يهاجم صنائعهم سواء تمثل هؤلاء فى بعض الوزارة أو بعض المديرين، او حتى فى بعض (الصحف) مثل (المقطم)، التى تهاجمه بعنف وتحرض عليه ..

ولا يتردد في الهجوم العنيف على (المقطم) وغيرها من الصحف التي تكون صنيعة الانجليز، و يصل هجومة على الانجليز وصنائعهم إلى اقصاه، الى الدرجة التي تجعل صحيفة المقطم تهاجمه بعنف ولفترات متوالية، بل تتهمه صحف كالتايمز باثارة النعرة الدينية ضد اوربا، ويضاف إلى المقطم والتايمز الديلى تلجراف والمورتنج جوست .. فلا يتراجع ابدا

ويجب لن تسارع هنا لتأكيد ما سبق وان اشرنا اليه، من أن النديم رغم هجومه النستمر على الاوروبيين واذنابهم، فانه لم يعتقد- ابدا- أن بلاده يمكن أن تظل مكتفية بحضارتها الراهنة للوصول إلى الرقى التي بلغته الدول الاوروبية اذ كانت اوربا- كما يقول حوراني- هي «العدو السياسي، لكنها كانت مع ذلك» المعلم ايضا .. » السابق ص ٢٣٩)

العدو والمعلم

الاستعمار والحضارة

وقد راح يصيغ هذا المعنى في عنوانات مقالاته:

- لماذا يتقدمون ونحن على تأخر

- مستقبل مصر

- حالنا امس واليوم

ومراجعة هذه العنوانات وغيرها يتاكد لنا انه يريد أن يؤكد الراى الذى يقول أن مصر ليست متأخرة بسبب المناخ إوالدين. بل لانها لا تملك مصادر القوة الاوربية بعد، مع أن باستطاعتها امتلاكها جميعا، وهي اللغة والدين، والوقوف في وجه العالم الخارجي والنشاط الاقتصادى ونظام التعليم الشامل، والحكم الدستورى، وحرية التعبير» (حورانى ص ٢٣٩)

ولما يزيد الهجوم على الاستاذ بايعاز من الانجليز، فانه لا يهتم بذلك،

ويهاجم الانجليز صراحة التى كانت تدفع (المقطم) لارهاب اصحاب (الاستاذ) فى مقاله (حرب الاقلام بجيوش الاوهام) مؤكدا أن القوة لن تخيف المصريين حتى اذا ما جاء الايقاف أو الانذار الاخير لمصادر المجلة، فانها تصادر بالفعل، بعد أن يكتب مقالته الاخيرة (تحية وسلام) الذى عرض فيها كثيرا مما لاقاه، مختتما مقالته الأخيرة تلك ببيتين من الشعر يلمح فيه إلى السبب الذى اضطره إلى ذلك، يقول :

اودعكم والله يعلم اننى ... احب لقاكم والخلود اليكم

وما عن قلبى كان الرحيل وانما ... دراع تبدت فالسلام عليكم

ويهذا يكون النديم قد اكد أن الخطر من الغرب لا يأتى من الخارج دائما، وانما قد يأتى من الداخل ايضا، والخطر الداخلى يكون – غالبا – اشد وطأة من الخطر الخارجى ..

مصادر ومراجع مختاره

- دار الوثائق بالقلعة، محفظة (جمال الدين الافغانى)

(ملف خاص عن علاقة الافغانى بالمحافل الماسونية)

- ارشيف بادارة الوثائق الفرنسية : hentiob de gemel el din dans les arclives du quai d' orsay.

- عبد الله النديم

(١) كان ويكون، من تراث عبد الله النديم دراسة وتحليل د. عبد المنعم الجميعى وتقديم د. عبد العظيم رمضان، الهيئة العامة لدار الوثائق- دار الكتب، القاهرة ١٩٩٥

(ب) الاعداد الكاملة لمجلة الاستاذ بجزءان، دار كتبخانه، ط١ ، القاهرة ١٩٨٥

(ج) التنكيت والتبكيت، اعداد بدءا من ٦ /٦ /١٩٨١

- عبد المنعم الجميعى، عبد الله النديم ودورة فى الحركة السياسية والاجتماعية، بدون، ط ١، ١٩٨٠

- محمد خلف الله، عبد الله النديم ومذكراته السياسية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة بدون

- البرت حورانى، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨/ ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، (د.ت).

- ندوة : عبد الله النديم، ندوة لجنه الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الاعلى للثقافة ٢٧ / ٣٠٥/٥ /١٩٩٥، دار الكتب، القاهرة ١٩٩٥

- احمد أمين، من زعماء الاصلاح، القاهرة ١٩٤٨

- مصطفى عبد الغنى، المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

التحول الأسلوبى عند النديم

ا.د. عبده الراجحى

أستاذ العلوم اللغوية – كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

درج الباحثون فى العقود الثلاثة الأخيرة على دراسة لغة فن ما، أو لغة شخص ما، تحت ما يعرف «بعلم الأسلوب» stylisics. ومع ما أصاب معظم البحوث أخذ المجال نتيجة استغراقها فى الأرقام ونسب الشيوع تحت ضغط المنهج «الكمى» فإنها فتحت المجال - لا شك لدراسة اللغة الإنسانية فى استعمالها الحقيقى وفى تنوعها الحى

ولسنا هنا بصدد دراسة لغة «النديم» لأن ذلك يحتاج إلى جهد حقيقى متخصص، ولأن المجال هنا لايسمح بذلك لكننا لانريد أن تفلت هذه الفرصة دون أن ننبه إلى أن لغة النديم جديرة بدرس علمى متعمق بل لا أبالغ حين أذكر أن مثل هذا العمل سوف يكون حافلا بالمتعة والحيوية، لأن شخصية النديم ذاتها تمثل نمطا من الحيوية الإنسانية، ولأن الفترة الزمنية التى عاشها النديم والتى يمثلها أصدق تمثيل تعد مفتاحا لفهم الحياة المصرية العربية المعاصرة إذ إنها فترة «التخلق» التى أنتجت فيما بعد نمط هذه الحياة.

سوف نقتصر إذن على ظاهرة واحدة من ظواهر لغة النديم وهى التى وجدناها فى عنوان هذا الحديث.

ومنذ زمن استقرت القولة الشهيرة «الأسلوب هو الرجل»، وهى قوله تتفاوت درجات انطباقها وفقا للموضوع أو للرجل لكنها قد تكون صادقة صدقها من تنطبق على رجل مثل النديم، إذ إن أسلوبه يكاد يكون صورة بارزة لمكوناته النفسية ولأنماط حركته فى الحياة.

وقد يكون من المفيد أن نلفت إلى أن مصطلح «الأسلوب» ليس له تعريف واحد مجمع عليه، لكن مما يلقى القبول فى بعض تعريفاته أنه «التنوع فى كلام شخص أو كتابته»، ومعنى ذلك أنْ الاسلوب لا يدرس بعده «نمطا» واحدا يمثل صاحبه، وإنما لابد أن يتوجه الدارس ابتداءً إلى معرفة طبيعة التنوع الذى يسم أسلوبا ما.

وهنا نشير إلى ثلاثة مصطلحات تتصل بصلب ما نحن فيه أولها ما يعرف «بالتحول الأسلوبى» Style Shift وهو «التغير الذى يجرب فى أثناء الاتصال الكلامى أو الكتابى، وهو لا شك أظهر ما يكون فى الاتصال الكلامى، فكل شخص يغير فى درجاته الصوتية والتنغيمية واختياراته اللفظية بل فى أنماطه التركيبية وفقا لتطور الموضوع أو تغير ظروف الكلام، ومن المستحيل أن يتسم اتصال كلاب فى نمط أسلوبى واحد يكتسح برتابته عملية الاتصال ذاتها.

وثانيها «تحول الشفرة» Code Switching وهو يمثل التغير الذى يسيطر على كلام المتكلم أو الكاتب فيجعله ينتقل من لغة إلى لغة ومن تنوع لغوى إلى تنوع لغوى آخر داخل اللغة الواحدة. وانظر مثلا إلى فتاتين تتحدثان تفد عليها فتاة. ثالثة، أو شاب، أو أستاذ آخر أو أم أو أب كيف تتحول «شفرة» حديثها فورا بتلقائية لا تحتاج إلى تدبير، وانظر إلى أستاذ جامعى ريفى يتحدث إلى زميله يدخل عليها أحد الأقرباء من القرية ماذا يحدث لشفرة الحديث وكيف تتغير درجة «الشفرة» تغيرا هائلا. تلك سمة إنسانية تستحوذ الآن على اهتمام الباحثين فى الاتصال اللغوى.

وثالث هذه المصطلحات ما يعرف بعلم السلوك الأسلوبى Stylo behaviovistrcs (S B)، ويتخصص فى دراسته العلاقات بين المثيرات الأسلوبية واستجابات المتلقى مستمعا كان أو قارئا.

كل هذا المصطلحات قد تكون ضرورية لمحاولة فهم ظاهرة التحول الأسلوبى عن النديم.

وإذا كان «التنوع» صفة لازمة فى «الإنسان» فإن النديم قد يكون مثالا بارزاً على هذا التنوع، فقد اجتمعت فى الرجل عناصر من اتجاهات شتى، من أقصى اليمن إلى أقصى اليسار، ومن أقدم القديم إلى أحدث الحديث، وقد لا تستطيع

أن تغلب عنصرا على عنصر، لأنها قد انصهرت جميعا فى «مكون» نفسى عجيب يقدم لنا هذه الشخصية العجيبة، والأمر يرجع أولا إلى الإسكندرية التى ولد فيها وينتمى إليها، فهى مدينة «التنوع» الكبرى فى مصر، إذ إنها كانت باب أهل الغرب الإسلوبى إلى المشرق، وكانت مستقر كثيرين منهم فى قدومهم وفى إيابهم، وكانت ولا تزال بوابة الشمال الأوروبى إلى الشرق بما يحمله من «نماذج» جديدة فى «الثقافة» و«الحياة»، ثم كانت مهاجر أهل الشام إلى مصر، ومن ثم تنفس فيها النديم هذا الخليط العجيب من «الثقافات» وتقلب فيها بين حفظ القرآن الكريم «كتاب شيخنا» والدرس التقليدى فى كان إبراهيم واختلافه إلى الآدباء والأوربيين.

ثم يرجع الأمر ثانيا إلى حياته التى قدر لها أن تكون «تقلبا» مستمرا بحيث أصبح «التنوع» الحاد يمثل عصب حياته فى أعماله التى يمارسها، وفى الأماكن التى تنقل فيها مختفيا أو منفيا، ومن ثم فى مخالطة الناس بمختلف ثقافاتهم و«لغاتهم» و«لهجاتهم» من السادة والأدباء والأعيان والصعاليك والتجار والفلاحين و«الخواجات »....... وقد كان ذلك كله حقيقيا أن يفضى إلى ما نريد أن نلفت إليه من هذه القدرة الذاتية على التحول الأسلوبى عند النديم، ولعلك إذا حاولت أن تضع يدك على مثل هذه الظاهرة عند كاتب من معاصريه أو ممن جاءوا فلن تحظى بشئ كهذا الذى تجده عند النديم.

والذى لا شك فيه أن ذلك قد يكون علامة صادقة على «غنى» فى المكونات النفسية، وعلى «ثراء» فى تنوع العناصر التى لم تتنافر بل تفاعلت هذا التفاعل الفريد.

ويبدو التنوع الأسلوبى على أشده حين نرصد تردده بين ثلاثة مستويات لغوية، أحدها «فصحى التراث» التى تضرب بجذور قوية فى تاريخ العربية حتى

كأنك تقرأ لأحد كتاب القرن الثالث الهجرى وثانيها «فصيحة العصر» حتى كأنك تقرأ لأحد كتاب الصحف أواخر القرن العشرين الميلادى، وثالثها «لغة» تمزج المستويين السابقين بالدخيل والعامى، وهو قد يستخدم واحدا من هذه المستويات استخداما منفردا، وقد يلجأ إلى «التحول» من مستوى إلى آخر حسب ما يقتضيه سياق الحال.

ولن نتوقف هنا عند قضية «العامية» التى توقف عندها دارسو النديم، لأن الرجل استخدامها «خالصة» فى مسرحياته لكنه كان يرى استخدامها خطرا على الأمة خطورة الاستعمار الأجنبى عليها على ما سنرى فى بعض نصوصه.

ويظهر استخدام المستوى الأول فى فصحى التراث ظهورا جليا فى كتابيه «كان ويكون» و«المسامير»، وأنت تقرأ فى مقدمة كتابه الأول نصا من مثل:

«أبسمل والمسمى ناء عن الآناء، وأحمد والحمد له ألى من الآلاء، فهو الأبدى ذارئ الآباد. استأحد بالبرء فأبرز الآحاد. وشاء المكونات فانطوى السبق فى الأشاوى. وتنزه عن الأحد فدفعت أوليته الدعاوى....» (كان ويكون ص٣).

فأنت تلحظ النحت القديم فى «البسملة» و«الحمد له»، وتلحظ استخدام» الذرء» و«البرء» و«الأشاوى»، ثم تلحظ تركيب الجمل الفعلية حين تستوفى مكونها الأساسية فى لفظة واحدة ثم تلحقها فضلة الحال بالواو أو العطف السريع بالفاء.

ثم هو فى الكتاب نفسه يستخدم «التحول الأسلوبى» فينتقل بين فصحى التراث وفصحى العصر، خاصة حين يسجل أحداث ما يجرى له إبان اختفائه، كهذا النص الذى كتبه فى رسالة إلى صديقه «الخواجة»:

«الحمد لله على السراء والضراء، بعد ذهابك أمس أخذت أكتب ما دار بيننا وبينما أنا على وشك الفراغ اعترتنى حمى خفيفة فاستعملت ماء مغلى الكينا بعد ذهاب الدور، وطلبت من أهل البيت عمل جانب من ماء الشعير، وقد علمتهم كيفية عمله، فقلت لهم: اغلوا الشعير أولا ثم أريقوا ماءه فإنه يذهب بما فيه من الزهوقه والغضاضة، ثم اغلوه ثانية حتى يصير كحب البليلة، وصفره وأتونى بمائه لأشرب منه. وفى نصف الليل رأيت الأعراض قد خفت، فصنعت حماماً قريبا بالخردل، وقد أصبحت ولله الحمد فى حالة أحسن من حالة أمس، فتناولت نصف درهم من مسحوق الراوند، وقد عزمت على أخذ مسهل، ولكن لما رأيت الدور انقطع بعد المرة الأولى جزعت نفسى من تناوله فكأن النفس لاتقبل الدواء إلا مكرهة بحكم الضرورة. وكيف حال الست لعلها أصبحت معتدلة المزاج .
(كان ويكون فى ٨٩)

فأنت ترى فصحى التراث فى «الإراقة» و«الزهوقه» و«الغضاضة»، ثم ترى فصيحة التراث غالبة على الرسالة فى «أكتب ما دار بيننا»، و«أهل البيت»، و«المستهل» و «الدور» و «الست»، و«معتدل المزاج».

على أنك ترى القدرة الهائلة على التحول الأسلوبى فى كتابه المسامير الذى كتبه فى هجاء أبى الهدى الصيادى على طريقة أصحاب المقامات، فاجتمع «الهجاء» و«المقامة» على أسلوب ينتقل من فصحى التراث القديمة إلى عامية العصر، ولعل الصورة التى رسمها للمرأة التى اختارها الصيادى زوجا له أن تكون من أنطق الصور بهذا التنقل فى الأسلوب:

«فلما وصلها سلم عليها. وحملق إليها. فإذا هى عجوز بظراء. منتنة بتراء، قبيحة شوهاء. بخرة فوهاء منضاة فتقاء. رطبة رتقاء. برصة جذماء، قذرة صماء هزيلة شعراء، سليطة قعراء. استها فرعاء. وجمجمتها صلعاء.... وجهها

كيوان. وبطنها إيوان. وقدمها قصبة وجثتها حصبة. وحاجبها أنتف. وشدقها مقطف. وأضراسها كالوابور. وأنيابها كالطور. وشفتها كجحفلة الفرس. ولونها كظلمة الفلس. وردفها كالريش. وفخذها كالحشيش ،أصابعها كالرماح وأظافرها كالسلاح. وظهرها كالحجر الصلد. وجلدها يعد للجلد. لها عين عوراء. وأخرى قوراء. (المسامير ٣٣)

والذى لا شك فيه أن الاتجاه المقامى بما يقضيه من نمط خاص فى تركيب الجمل وفى استخدام السجع جعل النديم يظهر قدرته على معرفة المعجم التراثى القديم الذى تلحظه فى الصفات المتتالية من مثل «بظرات، وبتراء، وشوهاء، وفوهاء، ومغضاة...» لكنك تلحظ فى العرف نفسه أن طبيعته التى جبلت على «التحول» التلقائى السريع تسعفه بدفقات متوالية من المعجم المعاصر فى الفصيح والعامى والدخيل، ومن ثم تجد «صلعاء، وريش، وحشيش، وسلاح، وانتف ومقطف وورابور....»

وقد استطاع أن يوظف هذه التلقائية الأسلوبية فى هذا الكتاب على وجه الخصوص باستخدامه الصور الحديثة فى لغة الحياة اليومية Alltagsprache مما يجرى على ألسنة الناس، وذلك فى مثل قوله: «ولم أعلم أنه يضحك على ذقنى، ويلعب سخرية بذهنى» (ب) ثم يوغل فى استثمار المعجم العامى على طريقة المقامة فى مخاطبة أبليس للصيادى. «ياحلو يامدلع. يالطيف يا مشخلع. خذنى من عشاقك أو خادما لفساقك..»

فإذا عدنا إلى المستوى الثانى فى «الفصيحة المعاصرة» وجدنا كاتبا لا يختلف كثيرا عن كتاب وقتنا هذا فى استخدام المعجم وفى تراكيب الجمل وفى طريقة ربط النص كله مما يكشف كما زكرنا على تلك العناصر العجيبة التى تداخلت فى تكوين هذه الشخصية، لأنك لا تستطيع أن تجد مثل هذا التنوع عند

كاتب فرد من كتاب زمانه ولا من كتاب زمننا، ونحن نضع بين يديك مثل هذا النص الذى كتبه أيام اختفائه ويقدم فيه نفسه للقارئ:

«فإن تعلقت آمال القارئ بالسؤال عن المؤلف جنسا ونسبا ومولد ودينا ووطنا أجبته بأنى رجل عربى الجنس، حسنى النسب، اسكندرى المولد والمرقى، إسلامى الدين، أشعرى العقيدة، شافعى المذهب، خلوتى الطريقة، مصرى الوطن تربيت على نفقة والدى حتى يفعت، وأخذت عن العلماء الافاضل كثيرا مما به يشتغلون من السمعيات والعقليات، وجالست الادباء وشاركتهم فيما فيه يتنافسون، وخالطت الأمراء، وداخلت الحكام، وعاشرت أعيان البلاد، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ما هم فيه من الجهالة، ومما يتألمون وماذا يرجون، وحابيت كثيرا من متفرنجه الشرقيين، وألممت بما انطبع فى مرآة صدورهم من أشعة الغربيين، وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وطنيتهم وفطروا على حب الجنس والوطن والدين وعرفت كثيرا من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية وسافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم من مواطنهم واستيطانها وخدمتها، واختلطت بأكابر التجار وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة والسياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمنا، وأتجرب برهة، وفلحت حينا، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتا، وبالخطابة والجرائد آونة، وأتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت بعناء كسائى تحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا، وسبكنى فى قالب الكهولة أيام الفتاء، وتوجنى بتاج الهرم الأكبر بدل صبغة الشباب السوداء، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتى

لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين.... فإن عرفتنى بهذه الصفات عرفت أنى عبد الله رفقنى لهده الخدمة ابتغاء مرضاته، وإن أبيت إلا التصريح جاءك لقبى فى خلال الكتاب فإنه على ما تصورته أنيس الغريب، وللوحيد نديم.

ونختم لك هذا الحديث الموجز بنص قد ترى فيه دلالة خاصة على شخصية النديم اللغوية وقدرته التلقائية فى فهم العربية باعتبارها لغة «طبيعية» يستخدمها أصحابها فى «الاتصال» الثقافى، وذلك حين لا يرى مشكلة فى استثمار الفصيح الذى يستعمل فى العامية فيحسبه الناس عاميا مما يكشف عن الأساس الذى استندت إليه الدعوة إلى «لغة ثالثة» على ما تعرف عند توفيق الحكيم من بعد. يقول النديم فى السلافة (٨٥ – ٨٦):

«اجتمع المعلم حنفى وأبو دعموم ومرعى وحنيفة ولطيفة ودميانة وزبيدة ونبوية عند نديم، وأنابو المعلم حنفى ليتكلم عنهم فقال مرادنا تعمل لنا مدرسة فى جرنالك تعلم الأخلاق اللطيفة والآداب الجميلة ماذا تقول ياحلو؟.

نديم: حبا وكرامة، ولكن المدرسة يلزم أن يكون كلامها بالعربى الصحيح ليس باللغة العامية.

حنفى: ويمكن إننا ما نقدر نفهم الكلام العربى النحوى لأنه كلام صعب على الستات والناس أمثالنا. بقى أنت تريد تحرمنا من التعليم بكلامك النحوى.

نديم: لكن على أن أخاطبكم بكلام يفهمه الطفل الصغير والرجل والمرأة من غير تعب ولا يحتاج إلى تفسير ولا لشيخ يقول لكم على معناه.

حنفى: إذا كنت تمشى مثل ما كنت ما شى ماذا يكون هو أحد خانقك على الكلام العادى؟

نديم: أما أن أحدا خانقنى فإن ذلك ما حصل وإنما رأيت بعض المشتركين فى

«الأستاذ» أرسل محاورة بالكلام البلدى نراها مطبوعة فى الملزمة الثالثة فخفت إلى الكتابة تمشى بالبلدى فنحارب لغتنا العربية بجيشين، وجيش الدخيل الأجنبى وجيش اللغة العامية، فلذا جمعتكم لأخبركم أنى مستعد لمخاطبتكم بكلام بسيط من جنس البلدى فى سهولته ولكنه عربى صحيح.

حنفى: بقى الكلام المخصوص بالدرسة يبقى بالعربى النحورى.

نديم: نعم.

حنفى: الآن أسألك عن حاجة لما تحب تتكلم مع لطيفة أو غيرها تكلمها بالنحوي والا بكلام النسوان؟

نديم: أكلمها بالعربى الذى تفهمه مثل ما تفهم كلامها العادى من غير فرق.

لطيفة: اسألك عن مجلس الهوانم فقل لى على ما جرى فيه وما تم على الآتى.

نديم : «ألم عندما انعقد مجلس الهوانم قالت أم حسن: لما تحضر أزواجنا سكارى نضربهم. فقالت الست نجية: أولا ضرب الرجال من النساء أمر قبيح، ولا تفعله إلا قليلة الحيا عديمة التربية، ولا يقبله على نفسه إلا رجل دون عادم الشرف ليس له بين الرجال قيمة. ثانيا أن العصمة بين الرجال فيمكن أن المرأة إذا ضربت زوجها يطلقها إذا كان فيه حرارة وبعدما تكون ست بيتها تصبح عدم العدم، والداهية أنها إذا كان معها أولاد وكانت فقيرة الحال فإنها تحتار بهم، وإن راحت بيت أبيها تبقى قاعدة مثل الغريبة. فقالت نفوسه: إذا جاء الرجل وهو سكران نقفل الباب فى وجهه ونتركه ينام على الباب لأجل يتأدب. فقالت الست سنية: هذا رأى بطال، فإن المرأة إذا قفلت الباب فى وجه زوجها يغضب عليها ويمكن يطلقها والواحدة إذا أمكنها تطرد زوجها وتخليه ينام على

باب بيتها أو فى بيت ثان يبقى الرجل عندها مثل الخدام فتقل قيمته وتبهدله بين الجيران. والست منا إذا ما كانت تعرف قيمة زوجها تبقى هى والكلب على حد سواء فقالت الست أم فلتاؤس: نعذر الرجال إن سكروا ونضيق منافسهم لأجل ما يتوب الواحد منهم وكل ما جاء واحد وهو سكران ننزل عليه بالكلام المؤلم ونرذله بين أولاده حتى يعرف قيمة نفسه ويفضها سيرة. فقالت الست نجيه: الواحدة إذا طال لسانها على زوجها صارت قليلة الحيا، وضيعت الآدب، ويمكن الرجل ينفر من كلامها ويطلقها. وفى اية شريفة أن المرأة تشتم زوجها ونرذله، هذا رأى فاسد. نحن يلزمنا التمسك بالآداب من الرجال ونحافظ على شرفهم ونعطيهم حقهم الواجب علينا فى كل وقت حتى لو كانت الواحدة منا غنية وزوجها فقير لابد أن تعطيه حقه وتعرف مقامه؛ وفإن الرجل هو عز المرأة وحافظ شرفها ،وهو الساعى فى المعاش التعبان فيه، وعليه مدار البيت، والمرأة من غير الرجل لا تساوى أبيض ولا أسود، والواحدة منا على رأى المثل «سيدى ما أحسن وصفة لا فى يده ولا فى طرفه. الست عزيزة: نعمل طريقة لطيفة نكتب للحكومة نطلب منها أنها تصرف للمستخدمين السكارى نصف ماهيتهم وتعطى نسوانهم النصف الثانى، ونحيل أولاد البلد السكارى على المجلس الحسبى وتعمل لهم مشرفين مثل المعانيه يحافظون على أموالهم، أظن أننا إن عملنا هذا العمل نحفظ حقوق أخواتنا الهوانهم والستات ونهذب أخلاق الرجال، الست نجية: لا يخفاك أن الحكومة لا ترضى بهذا الرأى فإن كل إنسان حر فى ماله وهو المسئول عن بينه وعياله، ومسألة المجلس الحسبى لا يجوزها قانون ولا حكومة، وذلك فإن هذه فضيحة كبيرة للرجال وعار للنسوان، وإنما الرأى عندى أننا نكتب عرض حال للسكارى، على لسان أزواجهم بقلم النديم وننشره وفى «الأستاذ» ويكون من باب الرجا والالتماس فإن نفع ورجعوا عما هم فيه من البلاوى يادار ما دخلك شر، وإن استمروا فى خسرانهم نكتب

عرض حال للحكومة ويبقى تعرف شغلها فيمن يأخذ فلوسها ويصرفها فى ضياع عقله وشرفه. الجميل هذا هو الصواب . ثم إن نجية هانم كتبت لى تقول إن الستار اتفقت كلمتهن على أنك تكتب عرض حال عن لسان نساء السكارى إلى أزواجهن فأنا بالنيابة عن الكل أرجوك أن تكتب عرض حال يلين الحجر ويبكى الذى عمره ما يبكى وأنت لا تحتاج لوصاية فإنك عارف بالحالة كما ينبغى، وبالله عليك ماتخلى وراك وراف الاستعطاف بالكلام الطيب وتعال لهم من بابا مسح الجوخ وهز الفاروق، وعرفهم شرفهم وصبر نسوانهم عليهم كل خذ المرة الطويبة، وربنا يأخذ بيدك ويجزيك عن الولايا كل خير.

نديم: سمعا وطاعة ، ولا بد أن أكتب ولو يشتمونى.

وبعد فلعل فكرة «التحول الأسلوبى» عن النديم أن تكون ظاهر: لك هذا الظهور الذى يدعو - كما أسلفنا - إلى دراسة متأنية لهذا الحيوية اللغوية الطبيعية التى تمثلها هذه الشخصية السكندرية الفريد.

المحتويات

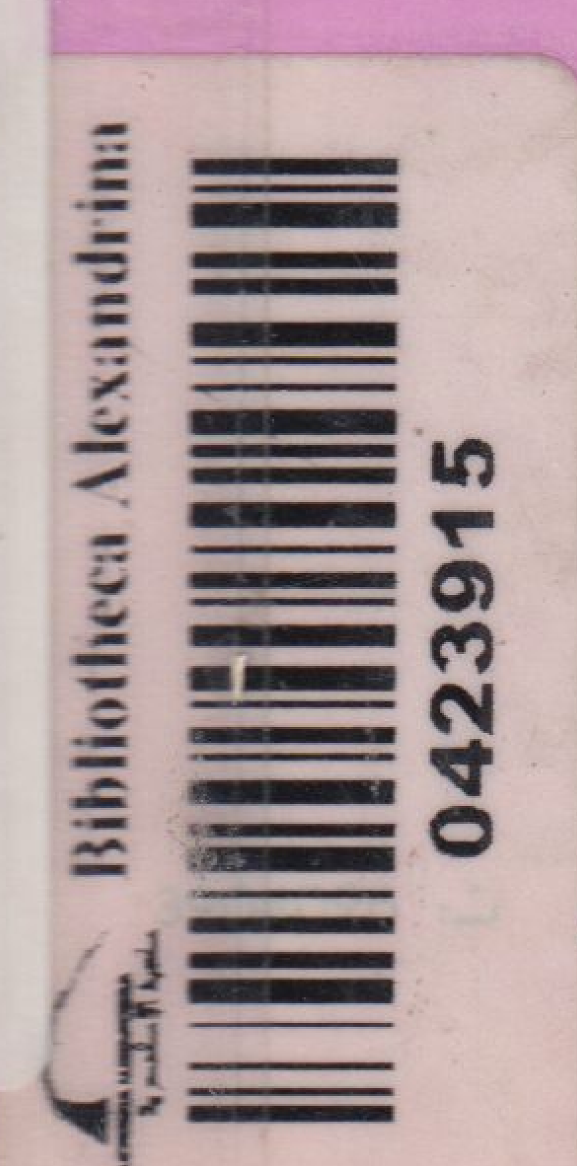
رقــم الإيــداع : ٥٤٠٢ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى : 2- 575 - 235 - 977

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096

عبد الله النديم

قراءات وأبحاث

يقدم هذا الكتاب مجموعة من الإضاءات الثرية حول عبد الله النديم ، فقد كان النديم أديباً ساخراً من طراز فريد ، وصحفياً بارعاً أدرك بوعيه كيف يتواصل مع الجماهير، وسياسياً محنكاً خبر بحدسه وعلمه ما يدور فى كواليس الساسة ، إن النديم بكثرة انتاجه الأدبى وكتاباته الصحفية يعد واحداً من التنوريين العظام الذين أضاءوا ظلمات حياتنا ، إن كتاباته تحتاج إلى إلقاء مزيد من الضوء لكشف ملامحها ، والتنقيب عن وجه مصر الحقيقى الذى سجله النديم بأحرف من نور وهذا الكتاب يعد وهجة أولى نحو التعرف على عالم النديم الفنان والانسان .



الأمل للطباعة والنشر

الثمن : واحد جنيه